دراسات في التاريخ والآثار

(٣)

مجلة جمعية المؤرخين والآثاريين في العراق

محتويات العدد

هيئة التحرير

المراسلات

جمعية المؤرخين والآثاريين في العراق
العراق • بغداد • ص•ب (٢٧٠٨٩)
شارع ١٤ رمضان •

الاشتراك السنوي

- الجامعات والمؤسسات في العراق (٢٠) دينار سنويا
- اعضاء الجمعية (٥) دنانير سنويا •
- الافراد عموما (١٠) دنانير سنويا •
- تدفع الاشتراكات مقدما وكالآتي :
أ - صكوك لآمر الجمعية
ب - نقداً لآمر الجمعية

مطبعة الامة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

المقدمة

تكتسب دراسة موقف عرب العراق من الاحتلال الساساني اهميتها ليس فقط للاعتبارات التي تتعلق بنزوع سكان العراق للتحرر من الاحتلال، ولكن لان تطور هذا الموقف وكشف عمقه التاريخي زمنا وممارسات يكشفان المأزق الحضاري الذي واجه الاحتلال الساساني بشكل خاص والفارسي بشكل عام ، فحتى وقت قريب كان بعض الباحثين يعتقد بوجود صلة للفرس بطبيعة النشاط الحضاري في العراق في حين تكشف المقاومة المستمرة والمتصلة لعرب العراق للاحتلال الفارسي عن رفضهم للاحتلال ونظرتهم له ، سيطرة اجنبية طارئة على تاريخ العراق غريبة عن دوره الحضاري وقوة متغلبة ليس الا . واذا اخذنا بنظر الاعتبار تفاصيل هذا الموقف عسكريا وثقافيا تبين لنا صدق الاعتقاد بأن الفرس دخلوا العراق قوة محتلة وغادروه قوة محتلة حملوا سمات حضارته أكثر مما منحوه . غير ان الباحث يجابه بمشكلة المعلومات فتلك الحقبة الطويلة لم تصل الينا عنها روايات واضحة تفيد في دراستها والواقع ان ما وصل فقير جدا قد لايكفي في تكوين كل تفاصيل الصورة لا بل ملامحها الاساسية ان اقدم المصادر عن دراسة تاريخ الفرس (كتاب تاريخ سني ملوك الارض والانبياء لمؤلفه حمزة بن الحسين الاصفهاني (ت قبل ٣٦٠ هـ) لايبدو وثيقة تأريخية عن الفترة بقدر ما هو محاولة شعوبية متأخرة كثيرا عن القرن الثالث الهجري يبدو علينا طابع التقليد لموارد التاريخ العربي في الانساب خاصة وتحمل روحا يهودية في محاولتها احتواء التأريخ العماني وتحويره فارسيا اما بقية المصادر فانها قدمت لنا روايات مقتضبة ومتناثرة فالطبري في تاريخه (كان حيا ٣١٠ هـ) نقل لنا روايات متناثرة عن مصادر متعددة فقد نقل رواية عن قيادة هانيء بن قبيصة للجيش في معركة ذي قار عن ابي

عبيدة (ت ٢١١)[١] ونقل رواية عن وفادة المثنى بن حارثة الشيباني على الخليفة ابي بكر عن ابي مخنف[٢] (ت١٥٧) ٠ ورواية اخرى عن دور المثنى عن الشعبي[٣] (ت١٠٣ – ١٠٥ هـ) بينما اورد رواية عن عمليات قطبة بن قتادة السدوس نقلا عن المدائني[٤] اما روايته عن بني العم في الاحواز فمصدرها السري[٥] (ت١٤٧ او ١٥٨) واورد البلاذلى (ت٢٧٩ هـ) رواية قطبة عن ابي مخنف (ت١٥٧) او عوانه بن الحكم بطريق عباس بن هشام الكلبي ٠[٦] بينما جاءت روايات الدينورى (ت٢٨٢ او ٢٩٠ هـ) عن ابي الكبس النمري النسابه وعبيد بن شرية ٠[٧] بينما اخذ ابن عبد ربه رواياته عن ابن القطامي عن الكلبي ٠[٨] ونقل البكري رواية عن ذي‌قار عن ابي عبيده ورواية عن افتراق العرب عن ابن عباس بطريق ابن الكلبي[٩] واخرى عن اياد في العراق[١٠] ونقل عن ابن شبه (٢٦٣ هـ) رواية عن اياد ورواية عن ربيعة[١١] وعن ابي علي النقالي رواية اخرى اما ياقوت الحموي فروايته عن اياد كانت عن طريق ابن الكلبي[١٢] وفيما عدى هذا لاتحفل المصادر بروايات اخرى واذا اخذنا بنظر الاعتبار منهج كل من المؤرخين او الجغرافيين المذكورين في تناول الرواية ادركنا كيف

(١) تأريخ الطبرى/٢/٢٠٥
(٢) المصدر نفسه /٢/٢٠٥
(٣) المصدر نفسه /٣/٣٤٦
(٤) المصدر نفسه /٣/٥٩٣
(٥) المصدر نفسه /٣/٧٢
(٦) فتوح البلدان/٤٧٢
(٧) الاخبار الطوال/٧
(٨) العقد الفريد /٢/١٠
(٩) معجم ماستعجم /٢/١٠٤٢
(١٠) المصدر نفسه /١/٢٢_٢٤
(١١) المصدر نفسه /١/٩٨
(١٢) المصدر نفسه /١/٩٩ ، ٨٦

ساهم التشتت في افقاد الروايات الصورة التاريخية التـــي تتشكل منها وبالتالي صعوبة تكوين تصور تاريخي سليم لتطور الاحداث في العـــراق ان ندرة الروايات ومحدودية موضوعاتها تجعل من الصعب تحديد جملـة الدوافع الكامنة وراء موقف عرب العراق من الاحتلال الفارسي ومما لاشك فيه أن تنوع الدوافع يرتبط بمعرفة شرائح المجتمع وعناصره فهناك اضافة الى عرب العراق الذين دخلوه بعد سقوط بابل على يد الاخمينيين الفرس (٥٣٩ ق٠م) يوجد الكلديون الذين هم بقايا المجتمع البابلي ، والعباديون في الحـيرة ٠

عبر موقف عرب العراق عن نفسه بأتجاهين الاول رفض الاحتلال الذي اخذ شكل عمليات عسكرية رغم تباين تلك العمليات من حيث حجم الممارسـة واهدافها ٠ والثاني ٠ الحرص على الاحتفاظ بكيان عراقي بغض النظر عن الحيز الذي يشغله فبعد الاحتلال الفرنســي ظهرت امارة بيت عديني وفي الاحتلال الساساني ظهرت مكانها امارة الحيرة وكلا الامارتين شغلت نفس المنطقة التي ظهرت بها فيما بعد الكوفة٠لقد ارتكز هذا الموقف الى الاعداد المستمر بالقبائل الذي جاءت به شبه جزيرة العرب والواقــــع ان اندفاع القبائل العربية نحو العراق يعبر عن اصرار فريد من نوعه على ابقاء سمة العروبة والتميز الثقافي قائمة في العراق بوجه الاحتلال الاجنبي ، وهـــو الذي اتاح استمر الهوية القومية والحضارية ، وعلى جهود الذين ساهموا في مقاومة الاحتلال من عرب العراق استكملت الامة العربية تحريره فــي معركة القادسية التي كان اخر جيل من المقاومين جزء مــن مادتها افرادآ وقيادات ٠

---

(١٣) المصدر نفسه /١/٧٠

(١٤) معجم البلدان /٢/٦٥٢ ، ٣/١٦٤

تحريــر العراق

دراسة لجهود عرب العراق

للتحرر من الاحتلال الفارسي

الدكتور نزار عبداللطيف الحديثي
عميد معهد الدراسات القومية والاشتراكية

مدخـــل

دخل العراق عام ٥٣٩ ق.م تحت الاحتلال الفارسي ، عندما قام الملك الاخميني كورش (٥٥٨ ـ ٥٣٠ ق.م) بغزو بابل ، وعندما تقدم خلفاؤه فيما بعد نحو الشام ومصر كان واضحا ان الفرس اعتبروا الارض العربية فيما بين جبال لورستان وسواحل البحر المتوسط ميدانا لاطماعهم في الغزوا والسيطرة . ولابد ان الفرس الاخمينيين افادوا مـــن متغيرات توفرت آنذاك في المرحلة التاريخية وتظافرت مع نجاحهم في بناء دولـــة «مركز قوة» في جنوب شرقي جبال لورستان ، وابرز تلك المتغيرات وجود اليهود المرحلين من فلسطين وانتشارهم في العراق ودورهم التخريبي المتمثل في اضعاف الدولة البابلية التي كانت تعاني من اوضاع غريبة(١) . ومع ان الدراسات التأريخية لم تسلط الضوء على تلك الفترة غير ان بعض ما ورد من اشارات الى حالة الملك البابلي نبونائيد تعطي الانطباع بأن الدولـــة كانت تواجه مشاكل في البناء الاجتماعي والفكر(٢) .

---

(١) د. نزار الحديثي : العلاقات العربية ـ الفارسية ، دراسة تاريخية «دار واسط للدراسات والنشر والتوزيع ، بغداد ١٩٨٢» ص٢٠ـ٢١ . وانظر ايضا طه باقر مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة «مطبوعات دار المعلمين العالية ، بغداد ، ١٩٥٦» جـ٢ ، ص٣٩٨ وما بعدها .

(٢) طه باقر واخرون : تاريخ العـــراق القديم (جامعة بغداد ، ١٩٨٠) جـ١/٢٥٣ .

تعاقبت اشكال السيطرة الاحتلالية للاقوام الشرقية على العراق ، وباستثناء الفترة «٣٣٢ ـ ١٣٥ ق٠م» حيث سيطر الاسكندر وخلفاءه السلوقيون على العراق فأن الاقوام الشرقية سيدت الموقف حتى سنة ٦٣٦ م وقد تعاقب على حكم العراق في هذه الفترة اضافة الى الاخمينيين كل من الفرثيين «٢٤٧ ق٠م ـ ٢٢٦ م» والساسانيين «٢٢٦ م ـ ٦٣٦م»[٣]

انتشار العرب في العراق

تشير المعلومات التاريخية الى الصراع العنيف الذي خاضه سكان العراق ضد الاحتلال الاجنبي ، ومحاولاتهم الافادة من الصراع الدولي لانتزاع بعض الانتصارات والمكاسب ، وقد ساعدهم على ذلك استمرار اندفاع حركة القبائل العربية من الجزيرة العربية شمالا نحو العراق وحول الخليج العربي ، وتوغلها في المنطقة العازلة بين العراق وبلاد ايران ويعبر ظهور امارة ميسان العربية فيما بعد بين اعلى الخليج العربي والعراق ، وبين جبال لورستان عن النجاح الذي حققه العرب في صراعهم ضد الاحتلال[٤] ، كما يعبر نشوء الحيرة واستمرارها الى قبيل ظهور الاسلام بقليل عن ذات التوجه ٠

اخذ الصراع بين العرب والمحتلين الساسانيين شكلا جديدا ، تركز على استمرار الاندفاع نحو العراق والانتشار فيه حيثما امكن ، ومع ان الساسانيين لجأوا الى الافادة من ضغط الظروف الاقتصادية والتخلف في استخدام بعض العرب ضد البعض الاخر الا ان نهاية العلاقة كانت

---

(٣) طه باقر : مقدمة في تاريخ العراق القديم ١/٤٦٥ وما بعدها وانظر ايضا د٠ نزار الحديثي وآخرون : الحدود الشرقية للوطن العربي «دراسة تاريخية» «جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق» ، بغداد ١٩٨١ ص١٩ ٠

(٤) د٠ نزار الحديثي «وآخرون» :الحدود الشرقية للوطن العربي ص١٩٠

بأستمرار الوصول الى نقطة افتراق ، عندما يلجأ الطرف المتفاهم الى تعزيز مواقعه من اجل امتيازات ومكاسب اوسع · لقد اخـــذت موجات الاندفاع القبلي ابعادها كاملة في الانتشار في العـراق ، ويشير البكري في مقدمته عن حركة القبائل العربية وحراكها الى هذا الانتشار بوضوح ، فقد دخلت العراق بعض بطون قضاعة يوم بدأت قبيلة الازد حركتها الواسعة فنزلت في حافات الفرات حول الحيرة والسماوة وتوغلوا في منطقة الجزيرة ، عندما شعر سابور ذو الاكتاف بخطر انتشارهم خاض معهم حروب طاحنة فأجلاهم الى الشام ، بينما بقيت بعض جموعهم في الانبار[٥] ·

ثم دخلته بعض بطون قنص بن معد فأنتشروا على حافات الفـــرات حول الانبار والحيرة وهم الذين اسسوا امارة الحيرة ومنهم ملوكها ال نصر بن ربيعة بن عمرو بن الحارث ، رهط النعمان بن المنذر[٦] ، كما انتشرت فيه بطون اياد بدء من كاظمة جنوبا الى سنداد «قرب الكوفة» حتى اعالـي الفرات مما قارب الجزيرة ، وتكاثرت جموعهم واندفعوا عبر الفرات نحـو تكريت والموصل · وخاضوا حروبا طاحنة مع الفرس على عهد انو شروان بن قياذ وكسرى بن هرمز ثم انسحبوا نحو الشام وبقي بعضهم منتشرا فيما حول الفرات وبين تكريت والموصل[٧] ، وانتشرت ايضا بطون ربيعة بعد خروجها من جزيرة العرب فاستقرت بكر بن وائل وعنزة وضبيعة في

---

(٥) البكري : معجم ما استعجم (عالـم الكتب ، بيروت) جـ١/٢٢ بنو تغلب بن حلوان في الحيرة وص٢٣ بنو تزيد بن حلوان في الجزيرة، ص٢٤ بنو ريان بن حلوان في السماوة ، وانظـر ايضا حروبهـم مع سابور ص٢٦ · وانظر البلاذري ، فتوح البلدان ٣٤٥ ·

(٦) البكري : معجم ما استعجم ، ١/٥٢ ·

(٧) البكري : معجم ما استعجم ، ١/٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ وانظـر ايضـا البلاذري : فتوح البلدان ، ١٥٢ المسعودي : مروج الذهب ،١/٢٧٩، تاريخ اليعقوبي : ١/٢٠٨ ·

حافات السواد فيما بين الابلة الى هيت فكانت سدوس حول الابلة وعجل حول السماوة وشيبان حول الحيرة ، وانجازات النمر وغفيلة الى اطـــراف الجزيرة وعانات وقد عرفت منطقة الجزيرة قبل الاسلام بديار ربيعـــة ، وديار بكر لكثرة من دخلها من بكر بن وائل خاصة كما دخلتها بعض بطون مضر ، والجزيرة ما بين دجلة والفرات[٨] كما استقرت فيه بعض بطـــون كندة التي بقيت بعد سقوط امارة كندة سنة ٥٢٤ م[٩] وانتشر بنو العم في الاحواز[١٠] ٠

شهد الربع الاول من القرن السادس الميلادي محاولة عربية مهمـة عندما حاولت دولة اليمن في عهد ملكها الحميري أبي كرب اسعد مجابهـة الاحتلال الساساني واقامة حاجز عسكري بينه وبين جزيرة العرب تمثل في امارة كندة التي اندفعت نحو الحيرة واسقطت تحالف ال نصر بن ربيعة مع الساسانيين[١١] غير ان هذا المتغير هو الآخر لم يكن بمستوى الوضـع الدولي آنذاك فاليمن نفسها تعاني من تعدد الضغوط الخارجية اولا ومن تطورات داخلية مهمة ثانيا ، تمثلت في الاضطرابات التي اججها صــراع الاديان المرتبطة بقوى اجنبية «الصراع بين اليهـود والنصارى في نجران» والذي انتهى باحتلال الاحباش لليمن ثم الفرس بعد ذلك ٠

---

(٨) البكري : معجم ما استعجم ، ١/٨٦ وانظر ٢٧٣ ، ٣٨١ ، ٥٦٨ــ٩٦٨ ، وانظر ايضا البلاذرى : فتوح البلدان ٣٣٧ ، ٣٤٥ تاريخ الطبري : ٣/٣٤٣ ٠ ابو حنيفة الدينوري : الاختيار الطوال ، ص١١١ ٠

(٩) البلاذري : فتوح البلدان ١٥٢ ، جونار اوليدر : ملوك كندة ص١٤٤

(١٠) د٠نزار الحديثي : المقاومة العربيـة للاحتلال الساسانـــي آفاق عربية ، ١٩٨٢ ، العدد ٨ ، ص٧٤ ٠

(١١) محمد عبدالقادر بافقيه : تاريـخ اليمن القديـــم ، ص١٥٩ ، جونار اوليندر : ملوك كندة ، ص١٤٤ ٠

النعمان بن المنذر في الحيرة

حصلت في آواخر القرن السادس الميلادي تطورات مهمة احدها تمثل في الصراع بين الساسانيين والبيزنطيين الذي انتهى بانتصار ساساني أما الثاني فتمثل في بدء الرسول القائد محمد بن عبدالله (ص) جهاده في مكة لتغيير الواقع العربي وقيادة الامة العربية في عملية تجدد قومي قوامها الدعوة الى التوحيد وبناء الامة العربية ونشر العدل والسلام الاسلامي في العالم ، في هذه الاثناء كان هرمز انوشروان يحكم الدولة الساسانية ويعاصره النعمان ابن المنذر في حكم الحيرة وعندما تولى كسرى ابرويز الحكم كان النعمان لايزال في حكم الحيرة ، فقد استمر حكمه اثنين وعشرين عاما[١٢] .

يمتاز حكم النعمان بن المنذر بجو السلام الذي ساد علاقتة بالغساسنة في الشام فلم يعرف عنه انه حارب في بلاد الشام اطلاقا غير انه كان يغزو البيزنطيين[١٣] .

وتبرز علاقات النعمان برجالات العرب المشهورين في عصره من الحكماء والشعراء ورؤساء القبائل الكبرى في الجزيرة كأحد ابرز ظواهر حكمه ونستطيع ان نميز في عصره الظواهر الايجابية التالية :

اولا ــ لقاءاته المستمرة مع حكماء العرب ومشهوريهم من رؤساء القبائل ، فقد التقى النعمان بأكثم بن صيفي رئيس حكومة عكاظ وحاجب بن زرارة وهما من «تميم» ومواقعها شرق الجزيرة العربية في اطراف نجد الشرقية والدهناء . كما التقى بالحارث بن عباد وقيس بن مسعود من «بكر بن وائل» ومناطقها اليمامة وجنوب العراق والتقى بخالد بن جعفر وعلقمة بن علامة وعامر بن الطفيل من « عامر بن

(١٢) تأريخ الطبري : ٢/٢١٣ .
(١٣) حمزة الاصفهاني : ٩٥ .

صعصعة، ومناطقها الفلج فيما بين اليمامة واليمن ، والتقى بعمرو بن بن الشريد السلمي من «بني سليم» شرق المدينة ، وعمرو بن معدى كرب الزبيدي من «مذحج» في اليمن · والحارث بن ظالم المرى[١٤]·

ثانيا ــ اتخاذه من خالد بن جعفر الكلابي والربيع بن زياد العبسي نديمان له ···[١٥]

ثالثا ــ علاقته الواسعة بشعراء عصره فقد كان على اتصال بحسان بن ثابت والنابغة الذبياني والمنخل اليشكرى والمثقب العبدى والاسود بن يعفر وحاتم الطائي وكان النابغة الذبياني اكثرهم صلة به[١٦]·

رابعا ــ علاقته بمكة وتردد رجالاتها على الحيرة في رحلاتهم التجارية اذ يشار الى علاقات تجارية مع عبدالله ابن جدعان وسهل بن عمرو[١٧]·

لقد ساهمت هذه العلاقات في تكوين مناخ ثقافي مؤثر في بلاط النعمان ولابد انها كانت تنقل له اخبار التطورات الجديدة في الجزيرة العربية التي يحدثها جهاد الرسول القائد (ص) ولابد ايضا انهم كانوا ينقلون اخبار لقاءاتهم الى قبائلهم ويسهمون في تكوين رأي عام عربي مشترك عن قضايا تتجاوز المكاسب والمفاخر القبلية ·

لقد شعر النعمان بالاوضاع غير الطبيعية التي تسود الدولة الساسانية والتي في مقدمتها صراعها المنهك مع البيزنطيين وانقسام الاسرة الحاكمة ، وحاول ان يوظف هذا الظرف من اجل الخلاص من السيطرة الساسانية ، اتخذ التحدي الجديد شكل المراسلات[١٨] والتعبير الثقافي

---

(١٤) ابن عبد ربه : العقد الريد ، ٣/٩ ، بلوغ الارب : ٣/١٤٧ ·
(١٥) المسعودى : مروج الذهب ، ٢/٢٥ · الاغاني : ١٦/٢٢ ·
(١٦) الاغاني : ١٥/٢٧ ، ١٦/٢٢ · المسعودى : مروج الذهب ٢/٢٥
(١٧)
(١٨) الدينوري : الاخبار الطوال ، ١١٠ ·

عندما شعر النعمان ان كسرى يستخف بالعرب اذا ذكروا امامه فحشد له رجالات العرب البارزين ونظم لقاءا ثقافيا مع كسرى يوصل العرب امامه ويبرز مزاياهم ، واذا دققنا في مخاطبة النعمان لرجالات العرب تحسسنا بشكل واضح اتجاهات الوعي عنده ، يقول ابن عبد ربه انه خاطب رجالات العرب بقوله : «انما انا رجل منكم وانما ملكت وعززت بمكانكم وما يتخوف من ناحيتكم وليس شيء احب الي مما سدد الله امركم ، واصلح به شأنكم وادام به عزكم ، والرأي ان تسيروا ايها الرهط ··· وليعلم كسرى ان العرب على غير ما ظن او حدثته نفسه[١٩]» .

وقد اعتنق النعمان النصرانية على المذهب النسطوري وبهذا اضاف الى المناخ الثقافي مناخا دينيا في جوهره تعبير عن اعتناق النصرانية كما نزلت في الوطن العربي وقبل التحريف البيزنطي لها[٢٠] فعارض الساسانيين حيث لم يعتنق المجوسية وعارض البيزنطيين حيث لم يعتنق النصرانية على مذهبهم والراجح ان كسرى شعر بالاوضاع الجديدة في بلاط النعمان وخطورتها فقرر اقصاءه عن الحكم فترك النعمان الحيرة والتجأ الى طيء غير انهم رفضوا الوقوف معه بأستثناء بني عبس[٢١] وقد كافأهم كسرى على موقفهم عندما عين آياس بن قبيصة الطائي محل النعمان[٢٢] التجأ النعمان الى بكر بن وائل التي وقفت معه بأكبر قبائلها بني شيبان بقيادة هاني بن مسعود ويقال بقيادة هاني بن قبيصة بن هاني[٢٣] وبني عجل[٢٤] غير

---

(١٩) ابن عبد ربه/العقد الفريد ، ٢/١٠ .

(٢٠) جواد علي : المفصل في تأريخ العرب ، ٣/٢٨٤ .

(٢١) تأريخ الطبري : ٢/٢٠٥ .

(٢٢) الدينوري : الاخبار الطوال ، ١١٠ .

(٢٣) تاريخ الطبري : ٢/٢٠٦ .

(٢٤) تاريخ الطبري : ٢/٢٠٩ .

ان كتيبة عسكرية لكسرى اعترضت طريق النعمان اثناء تنقلاتـــه والقت القبض عليه واخذته اسيرا الى العاصمة المدائن حيث قتل . وقد حاولـت بعض الروايات تصوير مقتله لاسباب تتعلق برفضه رغبة كسرى في تزويج بناته لابنائه غير ان اسباب القتل الحقيقية كانت تتعلق بموقفه المشار لـه سابقا فقد اورد الدينوري رواية عن كسرى انه قال : «واما ما زعمت من قتلي النعمان بن المنذر وازالتي الملك عن آل عمرو بن عدي الى اياس بـن قبيصة فأن النعمان واهل بيته واطئوا العرب واعلموهم توكفهم خروج الملك عنا اليهم وقد كانت وقعت الي في ذلك كتب فقتلتـه[٢٥]» .

احدث مقتل النعمان رد فعل ايجابي في الجزيرة العربية وتصـــدى الشعراء الذين كانوا يترددون عليه لرثاءه مشيرين الى مواقفه تلك ، فقـد رثاه هاني بن مسعود وسلامة بن جندل وغيرهم[٢٦] . وترتب عـلى مقتله ابرز احداث ذلك العصر وهو معركة ذي قار بين العرب والفرس .

معركـة ذي قار

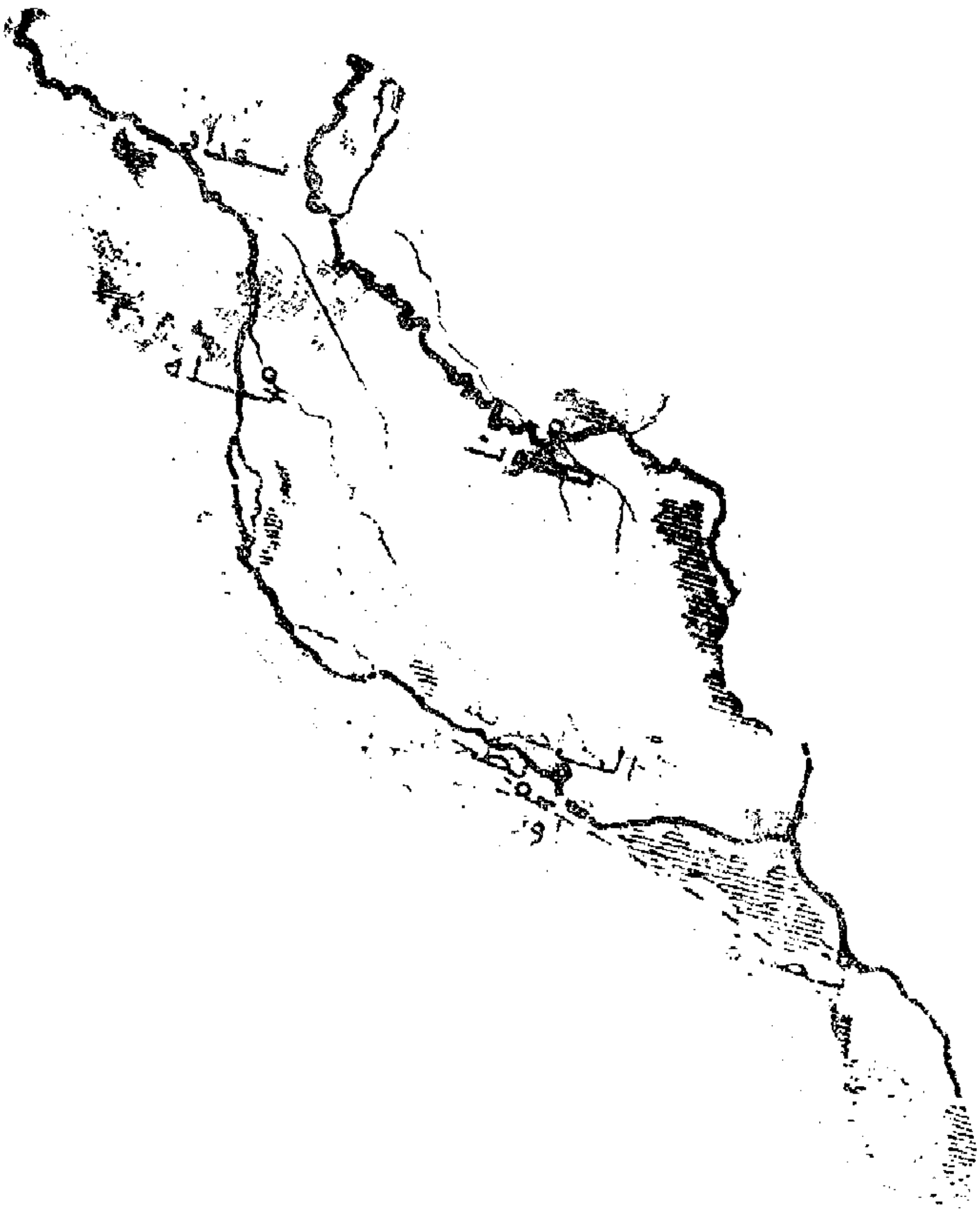
حدثت معركة ذي قار بين العرب والفرس في العراق في موضع مـاء يعرف بذي قار على طريق الحج البصري فيما بين عين ماء صيد وموقـــع اور غرب نهر الفرات والراجح ان الارض منطقة منخفضة تنحدر نحـــو الفرات حيث تنتهي ببطحاء ذي قار وقد ذكرت الروايات مواضـــع عديدة توحي جمعيا بانها مواضـــع مـــاء مثل «ماء ذي قار» و «بطن ذي قار» و «وادي ذي قار»[٢٧] والظاهر ان قبائل بكر بـن وائـــل وبني شيبان

---

(٢٥) الدينوري : الاخبار الطوال ، ١١٠ .

(٢٦) شعراء النصرانية : ٤٦٤ ، ٤٨١ .

(٢٧) البكري .. معجم ما استعجم ، ١٠٤٢/٢ . ياقـوت الحموي : معجم البلدان ، ١٣/٢ ، ١٠/٤ ذكر منطقة (المقير) وذكر عدة مواضع ماء حول ذى قار .



موقع متصور لمعركة ذي قار

ملاحظة : الاسمر الحديثة وضعت للتحديد الدقيق للمنطقة .

خاصة كانت تسكن المنطقة وتستثمر مياهها في فصل الصيف[٢٨] .

اسباب المعركـــة ..

اختلفت الروايات في اسباب المعركة ، فقد اعتمد اليعقوبي الروايـة القائلة ان سببها رفض هاني بن قبيصة تسليم ودائع النعمان بـن المنذر لكسرى[٢٩] وان مقتل النعمان على يد كسرى كان بسبب رفضه تزويـج بناته له .[٣٠] غير ان الدينوري يذكر في قتل كسرى للنعمان سببا اخر يوضح حقيقة الاوضاع التي سادت المنطقة وشكل العلاقة بين العـرب والفرس . ففي كلام ورد على لسان الملك الفارسي في حوارة مـع ابنه يقول .. «واما ما زعمت من قتلي النعمان بن المنذر وازالتي الملك عن آل عمرو بن عدي الى اياس ابن قبيصة فان النعمان واهل بيته واطئوا العرب واعلموهم توكفهم خروج الملك عنا اليهم ، وقـد وقعت الى ذلـك كتب فقتلته»[٣١] ويكمل ياقوت هذه الرواية ببعض التفاصيل عنه اشارته الـى اجتماع قبائل العرب من عبس وشيبان وغيرهم للخروج على كسرى مؤازرين النعمان بن المنذر[٣٢] ان هذه التفاصيل تعطي الانطباع ان سبب المعركـة كون بكر بن وائل وشيبان خاصة ، كانوا جزء مـن قوة بشريه عربيـة التفت حول المناذرة وهيأت لاستقلال الحيرة عـن الفـرس ، وطبيعي ان كسرى قد اجهض المحاولة بقتل النعمان ، ان يتجه الى تصفية حلفائـه الذين ازروه . وهنا تصبح الاشارة الى التفاصيل الاخرى على انها جزء من

---

(٢٨) انظر اليعقوبي .. التاريخ ، ٢٩٥/١ . تاريخ الطبري .. ، ٢٠٧/٢

(٢٩) التاريخ .. ، ٢٩٥/١

(٣٠) تاريخ الطبري .. ، ٢٠٦/٢ وانظر ايضا المسعودي .. مروج الذهب ، ٧٨/٢/٢ .

(٣١) الاخبار الطوال .. ، ١١٠

(٣٢) ياقوت .. معجم البلدان ، ١٠/٤

حالة عامة مسألة طبيعية عندما يكون النعمان بن المنذر يخطط للاستقلال فمن الطبيعي الا يزوج بناته (!) لكسرى ونفس الامر ينطبق على مسألة الودائع التي من المحتمل أنها الاسلحة التي بدان القوة المتحالفة هيأتها لاستخدامها في محاولتها الاستقلال . والراجح ان تركيز الفرس على شيبان جاء بسبب تفرق القبائل بعد مقتل النعمان والرواية التي اشارت الى رفض طيء ايواء النعمان باستثناء عبس تعطي صورة من صور التفرق اما شيبان فالراجح انها بقيت على ولاءها للنعمان ولم تتهاون بعد قتله(٣٣) وتكشف شروط كسرى التي نقلها رسوله الى بكر ابن وائل عن هذه الحقيقة حيث ركز على اجلاءهم عن العراق وليس بينها شرط يتعلق بودائع النعمان(٣٤) استلمت بكر شروط الملك الفارسي وعقدت مؤتمرا لمناقشتها وتشير الروايات الى اتجاهين في موقف القبيلة ، الاول .. عبر عنه هانيء بن قبيصة ويدعو الى عدم الاشتباك والانسحاب الى الصحراء ، والثاني عبر عنه حنظلة بن ثعلبة العجلي ويدعو الى القتال ، حتى قطع (وظن الهوادج) ليبقى النساء في ارض المعركةويضع القبيلة أمام الامر الواقع.(٣٥) غير ن هذه الرواية لاتتفق ومسار الاحداث فذي قار كلها ارتبطت بشيبان ورئيسها الذي وضعته الاحداث في موضع القائد قبل وبعد المعركة فمن غير المعقول ان يتراجع بهذا الشكل والا فكان بامكانة تنفيذ شرط كسرى والقبول بالامر الواقع بالانسحاب الى الصحراء ولكن يبدو ان ابا عبيدة

---

(٣٣) ابن عبد ربة .. العقد الفريد ، ٥/٢٦٣ اشار الى اعتزال طي وبهراء واياد والعياد .

(٣٤) تاريخ الطبري . ، ٢/٢٠٧ اورد شروط كسرى التي نقلها النعمان ابن زرعة التغلبي الى بكر بن وائل وهي «اما ان تعطوا بايديكم فيحكم الملك بما شاء ، واما ان تعروا الديار او ان تاذنوا بحرب».

(٣٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ٥/٢٦٣ . تاريخ الطبري : ٢/٢٠٨ اليعقوبي : التاريخ ، ١/٢١٥ .

معمر بن المثنى لم يكن دقيقا في روايتـه ، ويشير الاصمعي في روايتـه الى مايخالف ابا عبيدة عندما يذكر لهاني بن قبيصة مخاطبة قومه يحظهم على الاستعداد للحرب[٣٦] لذلك ابتداءت القبيلة باتخاذ الاحتياطات اللازمة حيث قام هاني بتوزيع السلاح ، وامر اتباعه التزود بالماء بما يكفي معركة طويلـة[٣٧] .

قوات الطرفـين ..

انتدب الملك الفارسي أياس بن قبيصة الطائي عامله على الحيرة لقيادة جيشه كما ذكرت الروايات ، وحشد له قوات مختلطـة قوامها مسلحـة القطقطانة الفارسية بقيادة الهامرز التستري ومسلحه بارق الفارسية بقيادة الجلايزين ، وقوة بقيادة قيس بن مسعود من طف سفوان ، وبعض طـي واياد وبهراء والعيادة.[٣٨] اما قوات العرب فقوامها بكر بن وائل ومنهم شيبان خاصة وبني عجل والسكون من كنـدة وبض عبد القيسي وحنيفة ويشكر اضافة الى اسرى تميم لدى بني شيبان الذين آثروا القتال ضـد العدو المشترك .[٣٩] ويبدو ان في قوات العرب حوالي خمسمائة وتسعون فارسا[٤٠] وتشير الروايات الى تسليح الجيش العربي والملائكة حوالـي (٤٠٠ ــ ٨٠٠) درع وقبل ٧٠٠٠ درع.[٤١]

(٣٦) العبيدي .. بنو شيبان ، ص١٤١ راوية الاصمعي .
(٣٧) تاريخ الطبري .: ٢٠٨/٢
(٤٨) تاريخ الطبري .: ٢٠٧/٢ . ابن عبد ربه .: العقد الفريد ،٦٣/٥
(٣٩) العبيدي .: بنو شيبان ، ص١٤٣
(٤٠) تاريخ الطبري .: ٢٠٩/١ ــ ٢١٥
(٤١) تاريخ الطبري .: ٢٠٧/٢ . ياقوت .: معجم البلدان ، ١٠/٤
(٤٢) المسعودي .: مروج الذهب ، ٣٠٧/١ . ابن عبد ربه .: العقـد الفريد ٢٦٢/٥ تاريخ الطبري .: ٢٠٧/٢

اولا ـ ميدانها : حدثت المعركة في ميدان واسع يسيطر عليه العرب ويتحكمون في ابرز عناصره الارض والماء ·

ثانيا ـ توقيتها : حدثت المعركة في الصيف ، واختلفت الروايات في سنتها فقيل انها وقعت عند مبعث الرسول (ص)(٤٢) وقيل انها وقعت قبل الهجرة الى يثرب ·(٤٣) وقيل بعد الهجرة الى يثرب فيما بين بدر واحد (٢ ـ ٣ هـ)(٤٤) ·

ثالثا ـ تعبية الطرفين

وكانت تعبية الحرب قلب قيادة هانيء بن قبيصة وميمنة بقيادة يزيد بن سهر الشيباني ، وميسرة بقيادة حنظله بن ثعلبة العجلي ، وقوة فرسان احتياط قوامها خمسمائة فارس بقيادة يزيد بن حمار السكوني ، اما جيش الفرس فكان اياس على القلب وفيه قوة اياد والهارمز على الميمنة والجلايزين على الميسرة ·

رابعا ـ الاشتباك ·

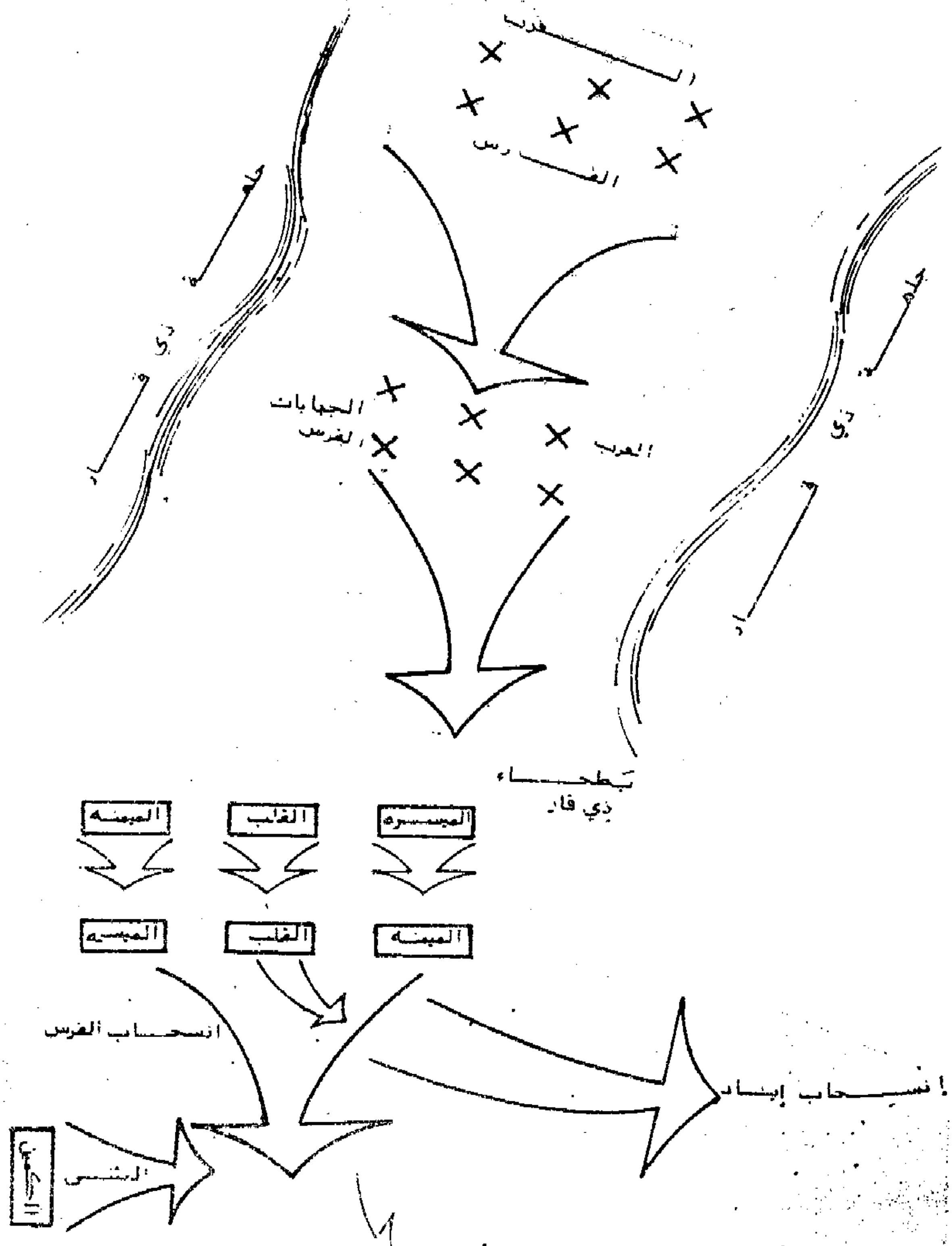
ابتدأت المعركة في ابعد نقطة من ذي قار باتجاه الصحراء (حنو ذي قار) واستخدمت الخطب والشعر لرفع معنويات المقاتلين ، وبادر العرب بالهجوم ، فانسحب الفرس باتجاه الجبابات تحت تاثير العطش والحر حيث دار الاشتباك الثاني ثم انسحب الفرس نحو بطحاء ذي قار ، حيث دار الاشتباك الثلث وحلت الهزيمة النهائية بالفرس ·(٤٥)

---

(٤٣) ابن حبيب ·: المحبر ، ص٣٦٠

(٤٤) ابو الفرج الاصفهاني·: الاغاني ، ٥٣/٢٤ ، وانظر ايضا العبيدي·: بنو شيبان ص١٥١ ناقش الروايات الحديثة حول الموضوع ·

(٤٥) تاريخ الطبري ·: ٢٠٨/٢



مخطط لجولات معركة ذي قار الثلاث

وفي رواية اخرى ان الطرفين التقيا في ذى قار بين الجلهتين (جلهتي الوادي) حيث بدأت المعركة بالمبارزة بين يزيد بن حارثة اليشكري والهامرز وانتهت وانتهت بقتل الاخير ، ومع ذلك فالتفوق كان الى جانب الفرس وفي اليوم الثاني حدث الاشتباك الثاني في الجبابات وكان التفوق فيه للعرب فانسحب الفرس تحت تاثير العطش الى بطحاء ذي قار حيث دارت المعركة الفاصلة(٤٦) .

والراجح ان الرواية الثانية اكثر دقة أذ يبدوا من تفاصيل الروايات ان العرب عانوا من رماة الفرس في اول يوم الى ان اكتشفوا ذلك فغيروا خطتهم في القتال حيث لجأوا الى الاشتباك وترك اسلوب الغارات والراجح ان اليوم الثالث بدأ بهجوم العرب بالميسرة والميمنة على ميمنة وميسرة الفرس ، فلما بدأ القلب الفارسي بهجومة لتخفيف ضغط العرب انسحبت قبيلة اياد من صفوفه فتخلخل فقام القلب العربي بالهجوم فلم يستطع الفرس الصمود لذلك انسحبوا واثناء انسحابهم فاجأهم الكمين بقيادة يزيد بن حمار السكوني في موقع (الخبيء) فانسحب الفرس الى موضع (ادم)(٤٧) حيث اجهز على الجلايزين وقواته وفرضت الهزيمة على الفرس .

تقييم المعركة .

نكشف تفاصيل المعركة على مذرتها عن العوامل التي لعبت دورا فيها فالمعنويات ووحدة القيادة وطبيعة ميدان المعركة عوامل اساسية غير ان العوامل الاخرى كانت مهمة فمتابعة قيادة العرب لسير القتال وتطوير خططهم اثناء القتال كان من الامور المهمة ، كذلك انسحاب قبيلة اياد من قلب الجيش الفارسي ، والافادة من الفرسان في الكمين .

(٤٦) ياقوت . : معجم البلدان ، ٤/ ١١
(٤٧) ياقوت : معجم البلدان ، ٢/ ٤٠٠

اما على صعيد الاثـر البعيد فالمعركة فتحت سجل الكفاح المسلح في العراق ضد السيطرة الفارسية واصبحت شيبان في خفان وعجـــل في السماوة وسدوس في الابلة من قواعده الاساسية • وكانت على المستوى القومـــي معركة فاصلة تغنى بها الشعراء وتناقل اخبارها العرب وقال عنها رسول الله (ص) •• «هذا اول يوم انتصفت فيه العـرب من العجـــم ونصرت عليهم بي» •[49]

من ذي قار الى القادسـية

تمثلت ابرز نتائج انتصار العرب في معركة ذي قار ، في مباشـــرة بكر بن وائل خاصة وعرب العراق عامة الكفاح البطولي لتحرير العـراق • خاصة وقد رأوا امكانية هزيمة الفرس وكيفية فرض الهزيمة عليهم ، فتلك المعركة بقدر ما كانت درسا في موقف الشعوب المحتلة من قوى الاحتلال فهي ايضا درس في قيمة الوحدة كأساس في ممارسة التحرر ولان نتائجها جاءت بمستوى طبيعتها فقد احدثت صدا ، وولدت استجابة جدية فـــي مجابهة الاحتلال الساساني ، فقد ظهرت بعدها عمليات عسكرية قامت بها تجمعات قبيلة عربية صنعت لنفسها قواعد انطلاق واتخذت لها اهـداف تغير عليها وقد برز من قادة تلك العمليات •

---

(٤٨) تاريخ الطبري : ٢/٢٠٨ • ياقـــوت : معجم البلدان ، ١/١٦٩ اشار الى مقتل الهامرز هنا تحيا ذكر في رواية سابقة ان الهامرز قتل بالمبارزة ، ٤/١١ •

(٤٩) المسعودي •• مروج الذهب ، ٣٠٧ وورد بصيغة اخـــرى فـــي الطبري : ٢/١٩٣ وبقية المصادر التي ذكرناها • انظـر بخاصـة تاريخ اليعقوبي : ١/٢١٥

اولا ـ المثنى بن حارثة الشيباني(٥٠) .

يبدو من الروايات ان منطقة حركات المثنى بن الحارثة الشيباني شملت الارض الممتدة بين السماوة والحيرة حيث كان يغير على الفرس في الحيرة وكسكر واسفل الفرات(٥١) ويشتبك معهم منطلقا من معسكره في خفان(٥٢) وتختلف الروايات في اسلامه ، ويشير بعضها الى انه اسلم في عام الوفود وانه لعب دورا في مقاومة ردة بكر ابن وائل مع العلاء بن الحضرمي في منطقة البحرين(٥٣) .

فلما تولى الخليفة ابو بكر الصديق الخلافة قدم عليه المثنى يطلب عون الخليفة ويعمله بما يفعل هناك طالب منه توليته ، ففعل الخليفة ، وعاد المثنى الى العراق يمارس عملياته العسكرية . الراجح ان الفرس تنبهوا له ولتحركاته فشددوا ضغطهم عليه وشعر من ناحيته بحاجته الى الامداد فأرسل اخاه مسعود الى الخليفة يستمده ، فوجه الخليفة ابا بكر

---

(٥٠) المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعدة بن مرة بن ذهل ابن سفيان الربعي الشيباني . اول من حارب الفرس . وتشير الروايات الى انه قدم على الخليفة وقيل كتب اليه ، وطلب منه استخدامه على قومه ووصفهم بقوله (فيهم اسلاما) . فأستخدمه وسماه عمر بن الخطاب (مؤمر نفسه) وفي روايات اخرى ذكر انه قدم على الرسول (ص) واسلم سنة تسع . توفي سنة ١٤ قبل القادسية .
تاريخ الطبري : ٣/٣٣٤ . ابو حنيفة الدينوري /الاخبار الطوال ١١١ ، ابن حجر : الاصابة ، ٩/٨٦ . ابن حزم ٣٠٥ والاضافة بن قوسين من عنده .

(٥١) تاريخ الطبري : ٣/٣٣٤ ، ابو حنيفة الدينوري : الاخبار الطوال، ١١١ .

(٥٢) تاريخ الطبري : ٣/٣٣٤ . ابو حنيفة الدينوري : الاخبار الطوال، ١١١ .

(٥٣) تاريخ الطبري : ٣/٣١٠ وما بعدها .

خالد بن الوليد الى جبهة العراق طالبا الى المثنى ان يسمح له . وتقدر الروايات جيش المثنى بالفي مقاتل(٥٤) .

ثانيا ـ قطبة بن قتادة السدوسي(٥٥)

يبدو من الروايات ان منطقة عمل قطبة كانت حول الايلة «البصرة» وانه انما انحاز لها باتفاق مع المثنى بن حارثة الشيباني . وتشير الروايات الى انه وفد على رسول الله (ص) وبايعا عن نفسه وعن قومه وان حيهم تعرض لهجوم بقيادة خالد ابن الوليد فلما علم بأسلامهم اشركهم في عملياته العسكرية في المنطقة ، والراجح ان ذلك كان قبل توجه خالد الى العراق أذ تشير الروايات الى عمليات قطبة العسكرية حول الخريبة . وعلى عكس المثنى فأول اتصال لقطبة بعد وفاته كان مع الخليفة عمر بن الخطاب وانه طلب معونته فأرسل عتبة بن غزوان وضم له قطبة بمن كان يقاتل معه من بكر بن وائل وتميم(٥٦) .

بنو العم

ترد الاشارة الى بني العم عند الطبري(٥٧) ويفهم منها انهم تجمع قبلي ضم بعض بطون ربيعة وتميم وانهم كانوا منتشرين فيما بين مناذر

---

(٥٤) تاريخ الطبري : ٣/٣٤٧ .

(٥٥) قطبة بن قتادة بن حريز السدوسي ابو الحويصلة ابن حجر : الاصابة : ٨/١٦٤ وانظر ايضا اخباره في البلاذري : فتوح البلدان : ٤٧٥ وتاريخ الطبري : ٣ : ٥٩٣ ابو حنيفة الدينوري : الاخبار الطوال ، ١١١ .

(٥٦) تاريخ الطبري : ٣/٥٩٣ . البلاذري فتوح البلدان : ٤٧٥ ، ٧٤٩ .

(٥٧) تاريخ الطبري : ٤/٧٣ ـ ٧٤ .

ونهر تيري واسفل دجيل «الكارون» وانهم ناهضوا الهرمزان وكانوا يغيرون على المواقع حولهم فلما بدأت العمليات العسكرية لتحرير العراق انضم لها بنو العم واختلفت الروايات في تحديد البداية فقيل انها بدأت مع تقدم خالد بن الوليد سنة ١٣ هـ الى العراق وقيل انها بدأت مع عمليات ابو موسى الاشعري لتحرير الاحواز غير ان الواضح لدينا انهم كانوا مع الجيش العربي الذي تقدم نحو ميسان بقيادة سلمى بن القين وحرملة بن مريطة ، وبرز من قادتهم غالب الوائلي وكليب بن وائل الكلبي ٠

اضواء على دور الانصار
في مغازي وسرايا الرسول (ص) حتى غزوة بدر

للدكتور
هاشم يحيى الملاح
استاذ التاريخ الاسلامي في كلية الاداب جامعة الموصل

تمهيد :

بعد ان فرغ الرسول (ص) من تنظيم العلاقات الداخلية بين سكان المدينة في الاشهر الاولى من هجرته اليها اخذ يعمل من اجل تنظيم علاقات المدينة الخارجية مع القبائل العربية المجاورة للمدينة · وقد كان الرسول (ص) حرصا على اقامة علاقات سليمة مع جميع الاطراف كي يتفرغ لنشر الدعوة الاسلامية بين الناس · ولكن موقف قريش المعادي للرسول (ص) ودعوته كان يحول بينه وبين تحقيق هذا الهدف وكان يدفع القبائل العربية المختلفة الى معاداة دولة المدينة وعدم اقامة علاقات سليمة معها · لذا كان لابد للرسول (ص) من أن يعمل على اقناع قريش وكافة القبائل العربية المحيطة بالمدينة ان دولة المدينة قوية وانها قادرة على تهديد مصالح قريش التجارية وغيرها من القبائل بحيث تقنعها بالدخول فى علاقات سلمية طبيعية معها ·

ومن ثم فقد اخذ الرسول (ص) بتنظيم غزوات وسرايا ذات اهداف تعرضية محدودة تستهدف تحقيق الامور الاتية[1] :ـ

١ ـ لقد كانت القبائل البدوية التي تعيش حول المدينة او على الطريق بين المدينة ومكة مثل قبيلة ضمرة وجهينة وغفار،لاتقيم وزنفي علاقاتها العامة الا للقوة · لذا فقد اراد الرسول (ص) ان يستعرض امامها قوته من اجل حملها على التحالف معه او فك ارتباطاتها مع قريش

واتخاذ موقف محايد بينهما ٠

٢ ـ لقد بادات قريش المسلمين بالعدوان ، واخرجتهم من ديارهم وكانت لاتزال مصرة على سياستها في اضطهاد المستضعفين من المسلمين المقيمين في مكة ، وتحريض القبائل العربية ضد الرسول (ص) ودولته في المدينة ٠ لذا اراد الرسول (ص) من تنظيمه لهذه الغزوات والسرايا ان يفرض نوعا من الحصار الاقتصادي على مكة من خلال التعرض لقوافلها التجارية المتجهة الى الشمال عسى ان يجعلها ذلك على اعادة النظر في موقفها من المسلمين ٠

٣ ـ ربما اراد الرسول (ص) بالاضافة الى الاهداف المتقدمة اشعار اهل المدينة وعلى الاخص غير المسلمين منهم ، انه ليس مجرد نبيا فقط ، وانما هو قائد سياسي وعسكري يمتلك القوة المادية التي تساعده على تنفيذ مايريد ، ومن ثم فأن عليهم ان يأخذوا ذلك بنظر الاعتبار، والا يفكروا في الخروج على سلطته ٠

٤ ـ لقد كان المهاجرون يعانون من ضائقة اقتصادية شديدة نظرا لمصادرة قريش لاموالهم عند الهجرة ٠ لذا فقد اراد الرسول (ص) من توجيه المهاجرين للمساهمة في الغزوات والسرايا ان يعوضهم عما اصابهم بمصادرة قوافل قريش التجارية وبذلك تتحسن احوالهم الاقتصادية٠

بدء الغزوات والسرايا :ـ

اختلف كتاب المغازي في تحديد التاريخ الذي بدأ فيه الرسول (ص) في تنظيم غزواته وسراياه ، فبينما يذكر الواقدي وابن سعد ان اول سرية ارسلها الرسول (ص) لاعتراض قوافل قريش التجارية كانت سرية حمزة ابن عبدالمطلب التي خرجت في رمضان على رأس سبعة اشهر من هجرة الرسول (ص) الى المدينة(٢) ٠ يؤكد ابن هشام ان سرية حمزة لم تكن

السرية الاولى التي بعثها الرسول (ص) ، وانما كانت السرية الاولى هـــي سرية عبيدة بن الحارث · وان تاريخ ارسالها كان بعد عودة الرسول (ص) من غزوة الابواء التي قام بها في «صفر على رأس اثني عشر شهرا مـــن مقدمة المدينة»[٣] مما يدل على ان السرية الاولى قد بعثت في مطلع السنة الثانية للهجرة ·

يستنتج مما تقدم ، ان اختلاف اصحاب المغازي لاينحصر فقط فـــي تحديد من هي السرية الاولى التي بعثها الرسول (ص) وانما يتجاوز ذلك الى تحديد تاريخ بدء هذه السرايا ، ليمتد ذلك الى التساؤل حول مسألة هل بدأ الرسول (ص) نشاطه الحربي بأرسال السرايا اولا ام قام فـــي البداية بتنظيم الغزوات التي كان يقودها بنفسه ·

يبدوا للباحث ان مسألة الخلاف حول اى السريتين اسبق اهي سرية حمزه ام سرية عبيدة بن الحارث ليست بالمسألة الكبيرة لان ابـــن هشام يذكر ان بعث حمزة وبعث عبيدة «كانا معا فشبه ذلك عـــلى الناس»[٤]· ويذكر ابن حزم «وكان هذان البعثان متقاربين جدا او معا ، فلذلك اختلف في ايهما كان قبل»[٥] ·

اما بالنسبة للخلاف حول تاريخ بدء النشاط الحربي للرسول (ص) فيبدو ان ماذهب اليه ابن هشام من ان تاريخ بدء هذا النشاط كان في نهاية السنة الاولى للهجرة وبداية السنة الثانية لها هو الاقرب للصواب وذلك لان الطبري حينما عرض لهذه المسألة في تاريخه ضعف رواية الواقدي بقوله · «وزعم الواقدي ···»[٦] في الوقت الذي وثق فيه رواية ابن هشام بقوله : «وقال ابن اسحاق في امر كل هذه السرايا التي ذكرت عن الواقدي قوله فيها غير ما قاله الواقدي ، وان ذلك كلـــه كـــان في السنة الثانية من وقت التاريخ»[٧] اى الهجرة ·

ان من الامور التي ترجح الرأي الثاني ـ في نظـــر الباحث ـ أن الرسول (ص) كان في خلال السنة الاولى منشغلا في تنظيم شؤون المدينـــة الداخلية وتقوية مركزه فيها فلا يعقل ان يتجه نحو بدء نشاطه الحربي مع خصومه في الخارج قبل ان ينتهي من تثبيت قواعد حكمه في الداخـــل ٠ كما يبدو لنا ان رواية ابن هشام التي تذهب الى ان الرسول (ص) قـد افتتح النشاط الحربي بنفسه عن طريق قيادة غزوة الابواء ـ ودان ـ في نهاية السنة الاولى للهجرة[٨] هي الرواية الارجح لانها تتفق مـع اسلوب الرسول (ص) في القيادة حيث كان يميل الى اخذ زمام المبادرة بنفسه في شتى الامور كي يكون قدوة لاتباعه فلا يأمرهم بشيء الا ويكون قد سبقهم الى فعله لذا فقد جاء في القرآن الكريم : «ولقد كان لكم في رســول الله اسوة حسنة»[٩] ٠

تخلص مما تقدم ان النشاط الحربي للدولة العربية الاسلامية قد بدأ في نهاية السنة الاولى للهجرة ، وانه بدأ بغزوات الرسول (ص) ثم اعقبتها البعوث والسرايا ٠

دور الانصار في الغزوات والسرايا :ـ

لقد رأى معظم الباحثين والكتاب المعاصرين ان الغزوات والســرايا التي ارسلها الرسول (ص) قبل معركة بدر قد تألفت مــن المهاجرين ، وانه لم يكن للانصار اي دور فيها ٠ فقد ذكر الشريف ان «السرايا الثمانية الاولى التي وقعت من قبل كانت كلها من المهاجرين ، ولـم يبدأ اشتراك الانصار الا في غزوة بدر سنة ٢ هـ»[١٠] ٠ وقد ذهب دروزة الى نفس هذا الرأي وعلله بقوله : «والمتبادر ان النبي عليه السلام لم ينتدب الانصار للخروج في هذه السرايا والغزوات لانها تعد بشكل ما عمــلا تحرشيا او هجوما في حين ان العهد الذي بينه وبينهم ان يدافعوا عنــه ويحموه بما

يدافعون ويحمون نساءهم واولادهم» .(١١)

اما سرور فقد ذهب الى ان الرسول (ص) قد بعث المهاجرين دون الانصار في هذه السرايا والغزوات «لانهم تعرضوا وحدهم لايذاء قريش بمكة وقاسوا الام الهجرة ، وكان الغرض من هذه السرايا ان يظهروا لقريش قدرتهم على الدفاع عن انفسهم ودرء اى خطر يحيق بهم . هذا الى استطاعتهم التعرض لقوافلهم التجارية المارة ببلدهم» .(١٢)

ويبدو ان اراء الباحثين المعاصرين في عدم مساهمة الانصار في الغزوات والسرايا قبل معركة بدر قد تأثرت بالروايات التي وردت في المصادر التاريخية القديمة حول هذه المسألة . فقد ذكر ابن سعد ان رسول الله (ص) «لم يبعث احدا من الانصار مبعثا حتى غزا بهم بدرا وذلك لانهم شرطوا له ان يمنعونه في دارهم . وهذا الثبت عندنا»(١٣) ويلاحظ ان الواقدي كان قد اشار الى مثل هذا الرأي الذى تبناه كاتبه ابن سعد ولكن في صيغة التضعيف فذكر انه : «ويقال.. لم يبعث رسول الله (ص) احدا من الانصار مبعثا حتى غزا بهم بدرا ، وذلك لانهم شرطوا ان يمنعوه في دارهم »(١٤) . اما ابن هشام فقد ايد هذه الروايات ضمنا حينما تحدث عن مشاورة الرسول (ص) لاصحابه قبل معركة بدر لانه كان حريصا على معرفة رأي الانصار حيث انهم «حين بايعوه بالعقبة ، قالوا : يارسول الله: انا براء من ذمامك حتى تصل الى ديارنا ، فاذا وصلت الينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه ابناءنا ونساءنا فكان رسول الله (ص) يتخوف الا تكون الانصار ترى عليها نصره الا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وان ليس عليهم ان يسير بهم الى عدو من بلادهم»(١٥) . ويلاحظ من مجمل الروايات التي اوردها الطبري عن غزوات الرسول (ص) وسراياه قبل معركة بدر الى انه يتفق مع الروايات التي تذهب ان ان الانصار لم

يشاركوا في هذه الغزوات والسرايا حيث لم يشر في اي موضع من تاريخه الى مساهمة الانصار بينما اكد في اكثر من غزوة او سرية انها كانت تتألف من المهاجرين .(١٦)

ان الروايات التي اوردتها المصادر التاريخية حول عدم مساهمة الانصار في الغزوات والسرايا قبل معركة بدر تكاد تحمل القارىء على اعتقاد ان المسألة منتهية وانها موضع اجماع المؤرخين وبالتالي فليس هنالك من مجال لابدأ القول فيها او اعادته . غير ان القراءة المتمعنة للروايات التاريخية الواردة في هذا الخصوص تشعر الباحث بوجود بعض النواحي الغامضه او حتى المتناقضة في البعض من هذه الروايات كما ان هنالك نصا صريحا عن اشتراك الانصار في سرية حمزة بن عبد المطلب لدى الواقدي مما يحمل الباحث على التساؤل ومحاولة الرجوع الى دراسة موقف الانصار منذ بدايته لاعادة تقديم موقفهم بصورة سليمة خدمة للحقيقة التاريخية وانصافا لمن نصروا الدعوة الاسلامية في احلك الظروف والاحوال .

حقيقة تعهدات الانصار في بيعة العقبة الثانية :ـ

ان الاتفاق الذي تم بين الرسول (ص) وبين الانصار عن العقبة لم يتم تثبيته في نص مكتوب على شكل وثيقة تتحدد فيها التزامات الطرفين بشكل واضح . ومن ثم فليس امام الباحث لفهم حقيقة ماتم من تعهدات في بيعة العقبة الثانية سوى قراءة مجمل الروايات التي نقلتها لنا المصادر التاريخية عن الكلام والحوار الذي دار بين الرسول (ص) وبين من حضر هذا اللقاء من الانصار .

١ ـ لقد بدأ الاتفاق بين الرسول (ص) وبين الانصار بأن قال الرسول (ص) لهم : «ابايعكم على ان تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم

وايناه كلا»(١٧) فاخذ البراء بن معرور بيد الرسول (ص) ثم اجابه بقوله :

«نعم ــ والذي بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما نمنع منه ازرنا فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله ابناء الحروب ، واهــــل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر»(١٨) .

يفهم مما تقدم ان الشرط الوحيد الذي قدمه الرسول (ص) للانصار وطلب منهم التعهد بالوفاء به هو حمايته كما يحمون نساءهم واولادهم . وقد قبل الانصار هذا التعهد بكل حماس .

ولكن هل طلبوا من الرسول (ص) تعهدا مقابلا لتعهدهم ؟

٢ ــ لقد تساءل ابو الهيثم بن التيهان ان كان في نية الرسول (ص) أن يترك المدينة ويرجع الى قومه في مكة ــ اذا اظهره الله ــ اي نصره . «فتبسم رسول الله (ص) ثم قال : بل الدم الدم الهدم الهدم ، انا منكم وانتم مني ، احارب من حاربتم واسالم من سالمتم»(١٩) . وهذا يدل على ان الرسول (ص) قد تعهد تجاه الانصار بأن يصبح منهــم ويحمل السلاح معهم في قتال من يقاتلون وبذلك لم يقبل ان يعيش بينهم عيشة الرجل الضعيف الذي يحمونه كما يحمون نساءهـــم واولادهـــم .

٣ ــ ان ماتقدم هو الحد الادنى مما تضمنته العقبة الثانية مـــن تعهدات الانصار . اما الحد الاقصى فهو حرب جميع الناس دفاعـــا عـــن الرسول (ص) والدعوة الاسلامية . وقد اوضح ذلك العباس بـــن عبادة الانصاري حينما خاطب قومه قائلا قبل مبايعة الرسول (ص) : «هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا نعم، قال انكم تبايعونه على حرب الاحمر والاسود من الناس ، فان كنتم ترون انكـــم اذا

نهكت اموالكم مصيبة واشرافكم قتلا اسلمتموه ، فمن الان : فهو والله ان فعلتم خزي الدنيا والاخرة»[٢٠] ومع هذا التحذير فقد مضى الانصار في مبايعة الرسول (ص) مما يدل على استعدادهم لتحمل كافة التبعات التي تترتب على هذه البيعة :

٤ ـ بعد ان تمت المبايعة طلب الرسول (ص) ان يعودوا الى رحالهم بهدوء كي لاتشعر بهم قريش فقال له العباس بن فضلة «والله الذي بعثك بالحق ! ان شئت لنميلن على اهل منى غدا بأسيافنا»[٢١] فأجابه رسول الله (ص) : «لم نؤمر بذلك»[٢٢] • فاذا صحت هذه الرواية فلابد ان الانصار كانوا على استعداد للمضي في القتال من اجل الدعوة الى ابعد الحدود •

٥ ـ حينما بلغت اخبار مبايعة الانصار للرسول (ص) قريشا ، جاءوا اليهم فقالوا : «يامعشر الخزرج ، انه قد بلغنا انكم قد جئتم الى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين اظهرنا وتبايعونه على حربنا[٢٣] مما يدل على ان قريشا كانت تعتبر مبايعة الرسول (ص) بمثابة اعلان الحرب عليها من قبل الانصار •

٦ ـ عندما تأكدت قريش من صحة الخبر القت القبض على احد زعماء الانصار وهو سعد بن عبادة وكادوا يفتكون به لولا ان استجار باثنين من زعماء مكة فمنحوه الجوار لانه كان يجير قوافلهم حينما تمر في المدينة[٢٤] وبذلك اصبح اهل المدينة في حالة حرب مع قريش نتيجة لبيعة العقبة الثانية •

٧ ـ ويبدو انه نتيجة للمعطيات السابقة فقد وصف عبادة ابن الصامت احد نقباء الانصار ـ بيعة العقبة الثانية بانها بيعة الحرب فقال : «بايعنا رسول الله (ص) بيعة الحرب»[٢٥] •

بينما وصفت بيعة العقبة الاولى ببيعة النساء لانه لم يرد فيها ذكر للحرب وكان الرسول (ص) يبايع النساء طبقا لها حيث لم يفرض الاسلام القتال على النساء .(٢٦)

هذه هي حقيقة التزامات الانصار في بيعة العقبة الثانية وهي تنحصر في حدودها الدنيا في الدفاع عنه في المدينة ، اما في حدودها العليا فهي تصل الى قتال الاحمر والاسود دفاعا عن الدعوة ومن ثم فان استشارة الرسول (ص) لهم فيما يفعل قبل معركة بدر ليس مردها تخوفه من الا تكون الانصار ترى عليها نصرته الا ضد من دهمه في المدينة - كما ذهب ابن هشام - وانما كان يريد ان يشركهم كما أشرك المهاجرين في مسؤولية اتخاذ قرار الحرب لانه حينما خرج من المدينة من أجل الاستيلاء على القافلة التجارية التي يقودها ابو سفيان لم يكن يتوقع تطور الموقف الى حرب شاملة بل كان يظنها ستقتصر على قافلة ابي سفيان والاستيلاء عليها كما كان يحصل في الغزوات والسرايا السابقة . اما قول الانصار للرسول (ص) بأنهم غير مسؤولين عن حمايته حتى يصل الى ديارهم فذلك امر طبيعي حيث كان يستحيل عليهم القيام بواجب حمايته قبل ان يهاجر الى ديارهم .

التزامات الانصار الحربية بموجب احكام الصحيفة :-

لقد كتب الرسول (ص) بعد استقراره في المدينة كتابا نظم فيه العلاقات بين المهاجرين والانصار واليهود بصورة شاملة حتى اعتبره الكثير من الكتاب المعاصرين دستورا للمدينة .(٢٧) وعلى الرغم من ان ابن هشام الذي اورد النص الكامل للصحيفة لم يذكر تاريخ كتابة هذه الصحيفة الا ان ايراده لها بعد حديثه عن هجرة الرسول (ص) الى المدينة وقبل ذكره لموضوع المؤاخاة بين المهاجرين والانصار يوحي بأن الصحيفة

قد ثبت في خلال السنة الاولى للهجرة (٢٨) وهنالك مناقشات مطولة بين الدارسين للصحيفة لتحديد تاريخ كتابتها ليس هنا مجـــال لاستعراضها ومناقشتها (٢٩) كما ان هذا البحث لايتسع للحديث عن كافة المسائـــل التي تعرضت لها الصحيفة لذا سنقتصر معالجتنا على مايتصل منها بشؤون الحرب مع التركيز على التزامات الانصار في هذا المجال :-

١ ـ لقد ورد في الفقرة الاولى من الصحيفة ان المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم ، انهم امة واحـــدة من دون الناس»(٣٠) وبذلك اعتبرت الصحيفة المهاجريــن والانصار ومن يتبعهم ويجاهد معهم أمة واحدة متميزة عن غيرها من الناس . ان مفهوم الامة الواحدة يقتضي تضامن افراد هذه الامة في السـراء والضراء كما أن اعتبار الاستعداد للجهاد مع هـذه الامـــة الشرط الاساسي لقبول انتماء الفرد اليها دليل على مدى اهمية الجهاد فـي توجهات الامة الناشئة .

٢ ـ وانسجاما مع هذا المفهوم الذي اكدته الفقرة الاولى من الصحيفة جاءت النصوص الاخرى لتوضح حدود الالتزامات الحربية لفئات وافراد الامة باعتبارهم وحدة متضامنة في احوال السلم والحرب : «ان سلم المؤمنين واحدة . لايسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم . وان كان غازيـة غزت معنا يعقب بعضها بعضا . وان المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم سـبيل الله» (٣١).

ان النصوص الواردة آنفا تؤكد وحدة الامة في حالات الحرب وعلى هذا الاساس ليس من الجائز ان يتجه المهاجرون للقتال ويقف الانصـار موقف المتفرج . كما وردت اشارة الى «الغزو والغزوات» مما يوحي

بان هذه الصحيفة قد كتبت بعد بدء الرسول (ص) في ارسال السرايا والغزوات او انه كان يخطط للقيام بها على اقل تقدير .

٣ ـ لقد اعتبرت الصحيفة قبيلة قريش وحلفاءها العدو الاساسي للامة لذا حرمت الصحيفة منح الجوار لها ولمن يناصرها «وانه لاتجار قريش ولا من نصرها» (٣٢). مما يلهم بان الرسول (ص) كان عازما حين كتابة هذه الصحيفة على سلوك سياسة فرض الحصار الاقتصادي على قريش ومنع قوافلها التجارية من استخدام الطريق الذي يمر بالقرب من المدينة للذهاب الى الشمال .

ولم يكن تحريم منح الجوار مقصورا على المسلمين بل امتد ليشمل كافة سكان المدينة حتى المشركين منهم . وقد اكدت الصحيفة على ذلك بوضوح وصراحة : «وانه لايجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن» . (٣٣)

وبذلك تكون الصحيفة قد وضعت كافة فئات الامة وحلفاءها في حالة استعداد للحرب مع مشركي مكة وحرمت منحهم الجوار او اية تسهيلات للاستفادة منها في حركتهم التجارية .

البعد الحربي للمؤاخاة :ـ

لقد اخى الرسول (ص) بين المهاجرين والانصار في السنة الاولى للهجرة فقال : «تآخوا في الله اخوين أخوين» (٣٤) . وقد اعتبرت المؤاخاة «حلفا» ، فقد اورد ابن سعد في طبقاته عن انس بن مالك ان «رسول الله (ص) حالف بين المهاجرين والانصار» (٣٥) .

لقد اراد الرسول (ص) ان يقيم عن طريق المؤاخاة حلفا بين المهاجرين والانصار على اساس الحق والمواساة ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الارحام» (٣٦) وبذلك يكون الرسول (ص) قد عمل على تقديم رابطة العقيدة

على النسب . وقد كلف ذلك طبيعيا لانه بهجرته الى المدينة كان قد خلع رابطة النسب وانحاز الى رابطة العقيدة وكذلك فعل اصحابه المهاجرين ثم انه شرع بعد استقراره في المدينة يهيء اصحابه للدخول في حرب مع قومهم قريش فكيف يمكن ان يتم ذلك لو لم يدر رسول الله (ص) ظهره ولو مؤقتا لرابطة النسب ليستنده الى رباط العقيدة .

على ضوء ماتقدم . يمكن فهم البعد القتالي للمؤاخاة حيث ان من مقتضيات المؤاخاة ان يتعاون الاخوان الجديدان في القتال بحيث لايترك احدهما الاخر اثناء المعركة وبذلك تقودنا المؤاخاة ـ كما يقول وات ـ الى «منع مختلف فرق المحاربين من ان ترد على هجوم العدو بشكل موزع . فاذا قتل احد الاخوين ورثه الاخر»(٣٧) . لذا فقد اوصى حمزة بن عبدالمطلب ـ عم النبي (ص) في معركة احد «حين حضره القتال اذا حدث به حادث الموت»(٣٨) لزيد بن حارثة لان الرسول (ص) كان قد اخى بينهما بعد الهجرة الى المدينة .

وهكذا فان الرسول (ص) حينما عقد حلف المؤاخاة بين المهاجرين والانصار فانه اراد ان «يشد ازر بعضهم ببعض»(٣٩) . ليتمكنوا من مواجهة اعدائهم بصفتهم أمة موحدة متماسكة كالبنيان المرصوص . وقد جاء في القرآن الكريم : «ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كالبنيان المرصوص»(٤٠) .

اشتراك الانصار في غزوات وسرايا الرسول (ص) قبل بدر :ـ

لقد وجدنا من خلال العرض انف الذكر انه لم يكن هنالك مايمنع الانصار من مشاركة اخوانهم المهاجرين في الغزوات والسرايا . بل ان روح التضامن التي قامت عليها الامة الناشئة كانت تدعوهم الى هذه المساهمة ، فهل استجاب الانصار لهذه الدعوة ام انهم تأخروا عن الاستجابة لها حتى

واقعة بدر كما ذهب الى ذلك اغلبية المؤرخين .

١ ـ لقد ذكر الواقدي في المغازي ان اول سريـة ارسلها الرسول (ص) لاعتراض قوافل قريش التجارية كانت سرية حمزة بن عبدالمطلب التي خرجت في رمضان على رأس سبعة اشهر من هجرة الرسول (ص) الى المدينة . وكانت هذه السرية تتالف من ثلاثين رجلا خمسة عشر من المهاجرين وخمسة عشر من الانصار . ولم يكتف الواقدي بايراد العدد الاجمالي للذين ساهموا في هذه السرية من المهاجرين والانصار بل قدم لنا قائمة باسماء عشرة من المهاجرين يتقدمهم حمزة بن عبدالمطلب قائد السرية وعشرة من الانصار .(٤١)

وقد ذكر الواقدي ان هذه السرية اعترضت قافلة لقريش قد جاءت من الشام تريد مكة فيها ابو جهل في ثلاثمائة راكب من اهل مكة عند مكان يدعى سيف البحر «فالتقوا حتى اصطفوا للقتال ، فمشى بينهم مجدي بن عمرو ، وكان حليفا للفريقين جميعا ، فلم يزل يمشي الى هؤلاء والى هؤلاء حتى انصرف القوم وانصرف حمزة راجعا الى المدينة باصحابه وتوجه ابو جهل في بعيره واصحابه الى مكة ، ولم يكن بينهم قتال» .(٤٢)

ان توسط مجدي بن عمرو وهو مـــن بني جهينه لحسم النزاع بين الطرفين يدل على وجود جماعة من الانصار في السريـة التي كان يقودها حمزة بن عبدالمطلب لان قبيلة جهينة كانت تربطها علاقات تحالف مــع اهل المدينة وفي ذلك يقول وات : ان «عمل مجدي بن عمرو من بنــي جهينة خلال غزوة حمزة وقيامه بالوساطة بين المسلمين ، وبين قوة ضخمة من المكيين ، سببه وجود مدنيين متحالفين مع جهينة بين المهاجمين» .(٤٣)

ان ماتقدم ، يكاد يحملنا على القناعة بصحة رواية الواقدي حــول اشتراك الانصار في هذه السرية . غير ان ثمة ما يدعونـا الى التروي

والبحث عن ادلة اخرى قبل الجزم في هذه المسألة وذلك لان الواقدي نفسه قد عاد بعد ان انتهى من سرد خبر هذه السرية الى ايراد رواية اخرى عن ابن المسيب وعبدالرحمن بن سعيد ابن يربوع ، قالا : «لم يبعث رسول الله (ص) احدا من الانصار مبعثا حتى غزا بنفسه الى بدر ، وذلك انه ظن انهم لاينصرونه الا في الدار ، وهو الثبت» (٤٤)

٢ ـ لقد اورد ابن سعد في طبقاته ان الرسول (ص) خرج في غزوة بواط على رأس ثلاثة عشر شهرا من هجرته الى المدينة لاعتراض قافلة لقريش في قوة مؤلفة من مائتين من اصحابه (٤٥)

ولم يحدد ابن سعد في هذه الرواية الفئات التي كانت تتكون منها هذه القوة • ولكن دراسة عدد المهاجرين في المدينة خلال تلك الفترة تقودنا الى استنتاج ان اغلبية افراد هذه القوة كانت تتالف من الانصار وذلك لان عدد المهاجرين الذين آخى الرسول (ص) بينهم وبين الانصار في السنة الاولى للهجرة كان يتراوح بين الـ ٤٥ ـ ٥٠ مهاجرا حسب الروايات التي اوردها ابن هشام وابن سعد (٤٦) كما ان عدد المهاجرين الذين ساهموا في معركة بدر لم يتجاوز الـ ٨٣ رجلا (٤٧) • علما بأن معظم المهاجرين قد اشتركوا في هذه المعركة وانها قد وقعت بعد غزوة بواط بعدة اشهر مما كان يفسح المجال لزيادة عدد المهاجرين في المدينة •

٣ ـ لقد ذكر الواقدي وابن سعد ان الرسول (ص) خرج بعد مضي ستة عشر شهرا على هجرته الى المدينة في غزوة ذي العشيرة على رأس قوة مؤلفة من خمسين ومائة ويقال في مائتين من اصحابه (٤٨) لمهاجمة قافلة مكية كبيرة كانت متجهة الى الشام •

ويلاحظ انه في الوقت الذي اكتفت فيه رواية الواقدي ان القوة التي خرجت مع الرسول كانت مؤلفة من مائة وخمسين من «اصحابه»

فصيبت الرواية التي اوردها ابن سعد ان هذه القوة كانت مؤلفة من «المهاجرين» فقط .

ان المعطيات التي سبق لنا تقديمها عن عدد المهاجرين في المدينة خلال هذه الفترة لاتساعدنا اطلاقا على قبول رواية ابن سعد من ان جميع القوة كانت تتالف من المهاجرين . ومن ثم يجوز لنا ان نقرر انه لو صح ماذكره الواقدي وابن سعد من ان عدد افراد القوة كان مائة وخمسين او مائتين فلا بد ان يكون اكثر من نصفهم من الانصار .(٤٩)

لقد حمل هذا التناقض بين العدد الذي اورده الواقدي وابن سعد عن عدد افراد الغزوة وبين قول ابن سعد انه لم يكن احد بينهم من المهاجرين بروفيسور وات الى البحث عن مخرج لازالة هذه الصعوبة فذكر انه قد اتيحت للرسول (ص) «الفرص للحصول على غير المهاجرين الاصليين . وانضم اليه مكيون آخرون ، فلقد ترك عياش بن ابي ربيعة (من مخزوم) وهشام بن العاص (من سهظ) مكة خلال السنة الاولى للهجرة ... وانقلب مقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان ... اثناء غزوة عبيدة . كما مال اليه بعض البدو طمعا في المال»(٥٠) .

يبدو ان الجواب الذي طرحه بروفيسور وات لايحل المشكلة كما انه يدعونا لتسجيل بعض الملاحظات عليه . ذلك لانه لايوجد تقسيم معترف به بين مهاجرين اصليين وبين مهاجرين (غير اصليين) من المكيين بين الصحابة الذين هاجروا في السنوات الاولى للهجرة وانما وجدت التفرقة بين من هاجر قبل فتح مكة وبين من هاجر بعد فتحها . كما ان العدد الذي قدمه لايزيد عن اربعة مهاجرين ومن ثم

فهو لايساعد على رفع مجموع عدد المهاجرين بصورة واضحة ·
اما افتراض بروفسور وات بان بعض البدو قد مالوا الى الرسول (ص) طمعا في المال فيبدو لنا ان ذلك في حالة صحته لايدل على مساهمة البدو في الغزوة فعلا لان مجرد ميل بعض البدو الى الرسول لايعني مشاركتهم اياه في غزواته · ومن ثم فلايمكن ان يساعد مجرد الميل الى الرسول في زيادة عدد الرجال المساهمين معه في الغزوة · اما اذا قصد بروفسور وات من هذا التعبير الغامض المشاركة الفعلية في الغزوة كما يوحي سياق كلامه فأن مقتضيات البحث التاريخي تطالبه بان يقدم لنا بعض النصوص او الروايات التاريخية التي تؤيد رايه وهو امر لم يفعله · كما كان من المفروض ان يعطينا فكرة عن عدد البدو الذين مالوا الى الرسول (ص) او شاركوا معه في غزوته وهو امر لم يقم به ايضا · يبدو ان بروفسور وات قد شعر بضعف الطروحات التي قدمها في هذا المجال فقرر في النهاية انه «لاتستطيع هذه المساعدات ان ترفع العدد الى ١٥٠»(٥١) رجلا · ومن ثم فقد بقي التعارض قائما بين العدد الذي قدمه الواقدي وابن سعد عن عدد المساهمين في غزوة ذي العشيرة وبين نفي اشتراك الانصار فيها ، لانه لو صح هذا العدد فلا بد ان يكون الانصار قد شاركوا في هذه الغزوة وبنسبة قد تزيد على النصف كما قدمنا ·

٤ ـ لقد ذكر ابن هشام ان الرسول (ص) حينما سمع بخبر عودة قافلة تجارية كبيرة لقريش من بلاد الشام يقودها ابو سفيان ويقوم على حراستها ثلاثون رجلا من قريش او اربعون ، «ندب المسلمون اليها وقال : هذا عير قريش فيها اموالهم فاخرجوا اليها لعل الله

يملكوها»(٥٢) . فاستجاب لدعوة الرسول (ص) ثلاثمائة واربعة عشر رجلا ، ثلاثة وثمانون منهم من المهاجرين ومائتان وواحد وثلاثون من الانصار(٥٣) . وكان ذلك في اوائل شهر رمضان من السنة الثانية اى على رأس تسعة شهرا لهجرته (ص) الى المدينة (٥٤) .

ان الامر الجدير بالملاحظة هنا ، ان المصادر التاريخية تجمع على واقعة اشتراك الانصار في الخروج لمهاجمة قافلة ابي سفيان جنبا الى جنب مع اخوانهم المهاجرين . كما تتفق على ان حجم مشاركة الانصار كان كبيرا بحيث بلغ عدد الانصار المساهمين في هذه الغزوة حوالي ثلثي عدد المجموع الكلي . ولم تكن مساهمة الانصار في هذه الغزوة بهذا العدد الكبير نتيجة الزام او اكراه لاحد لان الرسول (ص) اكتفى ب «ندب المسلمين» للمساهمة في هذه الغزوة كما تؤكد المصادر التاريخية(٥٥) . فما هي العوامل التي كانت تقف وراء عدد المساهمين في هذه الغزوة قياسا الى الغزوات السابقة وخصوصا ما يتصل منها بدور الانصار .

يبدو ان تطور سياسة الرسول (ص) في قطع الطريق على تجارة قريش وفرض الحصار عليها قد تصاعدت وتطورت بشكل تدريجي بحيث بدأت بسرايا وغزوات صغيرة ثم توسعت نتيجة لنجاح هذه السياسة حتى وصل عدد المساهمين في الغزوات الاخيرة «غزوة بواط وذي العشيرة» الى مائتي رجل كما قدمنا آنفا . وكان من الطبيعي ان تعتمد الزيادة في عدد المساهمين في الغزوات على الانصار لانهم اهل المدينة وغالبية سكانها اما المهاجرون فكان عددهم محدودا منذ البداية وكانت زيادة عدد المساهمين منهم في الغزوات تعتمد على عدد المهاجرين الجدد الى المدينة . ولم يتم ذلك خلال السنوات الاولى

للهجرة الا باعداد ضئيلة .

وتلهم الروايات التاريخية الى ان من اسباب زيادة الاقبال على المساهمة في غزوة بدر هو الرغبة في الاستيلاء على القافلة حيث كانت تتالف من الف بعير وكانت فيها اموال عظام ، ولم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعدا الا بعث به في البعير ، حتى ان المراة لتبعث بالشيء التافه . فكان يقال : ان فيها لخمسين الف دينار(٥٦)

وقد اعتقد المسلمون ان بامكانهم الاستيلاء على القافلة بسهولة وذلك لضعف الحامية التي تتولى حراستها . وفي ذلك يقول الطبري:

فلما سمع رسول الله (ص) بخبر القافلة ندب اصحابه وحدثهم بما معهم من الاموال ، وبقلة عددهم ، فخرجوا لايريدون الا ابا سفيان والركب معه ، لايرونها الا الغنيمة لهم ، لايظنون ان يكون قتال كبير اذا لقوهم ، وهي التي انزل الله عز وجل فيها : وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم (٥٧)،(٥٨) .

ان الدافع الاقتصادي للغزوات الذي ابرزته كتب السيرة والتاريخ بشكل قوي لاينبغي ان يحجب الدافع العقائدي لهذه الغزوات والذي كان هو الدافع المركزي لها كما يفهم من الايات القرآنية التي اذنت للمسلمين في القتال : «اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا والله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ، ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز»(٥٩) .

ومهما يكن الامر بشان دوافع المساهمة في غزوة بدر ، فان القافلة التي خرجوا للاستيلاء عليها قد تمكنت من النجاة وقامت

قريش بأرسال قوة مؤلفة من ٩٥٠ رجلا تقريبا لمحاربة قوة المسلمين التي كانت بحدود ثلث قوة قريش . لذا فقد استشار الرسول (ص) اصحابه بخصوص الموقف الواجب اتخاذه لمواجهة تحـدي قريش للمسلمين بالحرب . ولم يكن ثمة مناص في مثل هذه الحالة سوى الموافقة على الحرب والا فقد المسلمين مكانتهم في نظر العرب(٦٠) . لذا رحب زعماء المهاجرين بقرار القتال ولكن الرسول (ص) كـان حريصا على معرفة رأى زعماء الانصار لانـه كما تذكـر المصادر التاريخية كان «يتخوف الا تكون الانصار ترى عليها نصره الا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وان ليس عليهم ان يسير بهم الى عدو من بلادهم» .(٦١)

يبدو ان حرص الرسول (ص) على معرفة راى زعماء الانصار لم يكن بدافع التخوف من نصرتهم له خارج المدينة كما تذكر المصادر التاريخية لانهم بمجرد موافقتهم على الخروج معه من اجل الاستيلاء على القافلة المكية كانوا قد حسموا هذه المسألة وذلـك لان مهاجمة القافلة يعد من الاعمال الحربية التعرضية ولايمكن ان يعد بأي حال من الاحوال من اعمال حماية الرسول (ص) في المدينة . ان الدافع الذي كان يقف وراء رغبة الرسول (ص) في التعرف على راى زعماء الانصار هو حرص الرسول على استشارتهم لانهـم يمثلون ثلثي القوة التي سيخوض بها المعركة . وقد جاء موقـف سعد بن معاذ الذي تحدث عن الانصار متفقا مع راى زعماء المهاجرين في ضـرورة التصدي لقريش ونصرة الرسول (ص) الى ابعد الحدود .(٦٢)

ان دراسة مواقف الانصار قبل واثناء معركة بدر تبرهن على مدى صدق وقوة موقف الانصار في الدفاع عن قضية الامـة فقـد

ساهموا بشكل متميز في اتخاذ قرار الحرب وتحديد الموقع الذي ستدور عليه رحى المعركة والتخطيط لكيفية ادارتها .(٦٣) وحينما اصطفت الصفوف للمبارزة كان اول المتقدمين من الانصار . غير ان الرسول (ص) كما يذكر الواقدي استحى من ذلك «وكره ان يكون اول قتال لقي المسلمون فيه المشركين في الانصار ، واحب ان تكون الشوكة لبني عمه وقومه . فأمرهم فرجعوا الى مصافهم وقال لهم خيراً» .(٦٤) وحينما اسفرت معركة بدر عن انتصار المسلمين على المشركين انتصارا مبينا كانت الخسائر التي قدمها المسلمون من اجل احراز هذا النصر الكبير اربعة عشر شهيدا ستة من المهاجرين وثمانية من الانصار(٦٥) اما خسائر المشركين في الارواح فكانت بحدود سبعين قتيلا عدا الجرحى والاسرى .(٦٦)

ويلاحظ ان سعد بن معاذ احد ابرز زعماء الانصار الذين شاركوا في معركة بدر لم يكن ميالا الى اخذ اسرى من المشركين رغم ما قد يعود عليه وعلى قومه منهم من اموال الفداء ـ بل كان يميل الى قتلهم . وقد لاحظ ذلك الرسول (ص) فقال له : «يا أبا عمرو، كأنه شق عليك الاسرى ان يؤسروا . قال : نعم يارسول الله ، كانت اول وقعة التقينا فيها والمشركين ، فأحببت ان يذلهم الله وان يثخن فيهم القتل»(٦٧) .

ان ماتقدم ، يثبت ان موقف الانصار قد اتسم بالصدق والمبدأية العالية في نصرة الدعوة منذ بايعوا الرسول (ص) عند العقبة وانهم قد وقفوا الى جانبه يدافعون عنه ويقاتلون معه الى جانبه منذ شرع في سياسة فرض الحصار على تجارة قريش الخارجية عن طريق ارسال الغزوات والسرايا حتى واقعة بدر . ومع ذلك فان من الملاحظ

ان هناك ميلا قويا لدى اصحاب السير والمغازي لنفي اية مساهمة للانصار في الغزوات والسرايا التي وقعت قبل معركة بدر . فما هي الدوافع التي تكمن وراء هذا الموقف .

ان محاولة تفسير الدوافع النفسية عملية تتسم دائما بالصعوبة والتعقيد خصوصا عندما تغيب النصوص الصريحة ولا يبقى امام الباحث سوى الاستعانة ببعض القرائن والملابسات العامة للحكم على الاشياء . وهو ما سنحاول اللجوء اليه في هذا المجال .

من المعروف ان معظم الروايات التاريخية عن المغازي قد كتبت خلال العصر الاموي وأوائل العصر العباسي حيث كانت السلطة والنفوذ متمركزة بشكل اساس في قبيلة قريش . لذا لايمكن استبعاد عنصر المحاباة لابناء هذه القبيلة من المهاجرين حين رواية اخبار المغازي من خلال ابراز دورهم وتلوينه بالشكل الذي يدخل الرضا الى نفوس الخلفاء والحكام . وفي المقابل فان التقليل من دور الانصار او انكاره في المغازي والسرايا الاولى يلتقي مع ميول الخلفاء الامويين الذين اتسمت علاقتهم بالانصار بشكل عام بالطابع السلبي بسبب معارضتهم للحكم الاموي . لذا فقد لوحظ ان الروايات التي انكرت دور الانصار في السرايا والغزوات الاولى قد وصلتنا عن طريق اشخاص تظهر اسماؤهم في الخلافات الفقهية بالاضافة الى انهم جميعا ينتمون لبني مخزوم من قبيلة قريش من امثال عمر بن عثمان المخزومي .(٦٨)

وهنالك مسالة اخرى ، ربما كانت جديرة بالملاحظة ، وهي ان جميع الغزوات والسرايا التي وقعت قبل معركة بدر ـ عدا سرية عبدالله ابن جحش التي حصل حولها لغط كثير ـ لم يقع فيها قتال

ولم تسفك فيها دماء . ومن ثم فان ابراز دور المهاجرين فيها لايثير اية ذكريات سلبية بينهم وبين قومهم من قريش بعد استقرار السلطة في ايديهم منذ بداية الحكم الاموي . اما غزوة بدر وما تلاها من غزوات فقد جرى فيها قتال وسفك دماء مما يجعل الحديث عنهما وابراز دور المهاجرين فيها مصدرا لاذكاء بعض الذكريات السلبية بين افراد قبيلة قريش . ومن ثم ، فربما كان هنالك ميل لدى الرواة للتعتيم على دور المهاجرين في هذا المجال مع الرغبة في نسبة دور اكبر في هذه الغزوات الى الانصار الذين لاتربطهم علاقات عشائرية بقريش . وهكذا فقد تعرض دور الانصار للتعتيم والانكار في الغزوات والسرايا التي سبقت بدر بينما أصبح موضع اهتمام وتضخيم منذ معركة بدر لاعتبارات تتصل بمصالح قريش القبلية في عصر التدوين التاريخي .

ويبدو ان الحرص على وحدة قبيلة قريش والسعي للمحافظة على مايمكن المحافظة عليه من الروابط الحسنة بين افرادها رغم الاختلاف في العقيدة كان يجد له انصارا اقوياء بين المشركين والمهاجرين المؤمنين على حد سواء في عصر الرسالة . فقد ذكر ابن هشام ان عتبة بن ربيعة وقف خطيبا في قومه قبل معركة بدر يدعوهم الى تجنب قتال المسلمين بقوله «انكم والله ماتصنعون بأن تلقوا محمدا واصحابه شيئا ، والله لئن اصبتموه لايزال الرجل ينظر في وجه يكره النظر اليه ، قتل ابن عمه او ابن خاله او رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب فان اصابوه فذاك الذي اردتم وان كان غير ذلك الفاكم ولم تعرضوا عنه ماتريدون»(٦٩) .

كما جاء ابو بكر الصديق بعد معركة بدر الى الرسول (ص) يرجوه

ان يكتفي باخذ الفدية من اسرى قريش بدلا من القتل فقال له : «يارسول الله ، بأبي أنت وامي ، قومك فيهم الاباء والابناء والعمومة والاخوان وبنو العم ، وابعدهم منك قريب ، فامنن عليهم مـن الله عليك ، او فادهم يستنقذهم الله بك من النار فناخذ منهم ما اخذت قوة المسلمين فلعل الله يقبل بقلوبهم اليك»(٧) .

ان ماتقدم يثبت ان اعتبارات وحدة القبيلة والمحافظة علـى الروابط التي تشد افرادها ببعضهم قد لعبت دورها في اتخاذ اخطر القرارات المتصلة بامور الحرب والسلام فما الذي يمنع ان يكون لها دورها فما هو أقل منها خطرا ونعني به امر نقل الاخبار وتدوينهـا بالشكل الذي يخدم المصالح الحيوية للاسر الحاكمـة في الفترات اللاحقة لعصر الرسالـة .

---

(١) راجع على سبيل المثال ، هيكل ، محمد حسين ، حياة محمد ، مصر ١٩٥٦ . ص٢٤٤ ـ ٢٤٦ ، فرج ، صالح محمد ، العبقرية العسكرية في غزوات الرسول (ص)، مصر ١٩٥٨ ص١١٦، سرور د.محمد جمال الدين ، قيام الدولة العربية في حياة محمد (ص) ، مصـر ١٩٦٤ ص٨١ ـ ٨٢ .

(٢) الواقدي ، المغازي ، بيروت ١٩٦٦ (تحقيق مارسدن جونس) ج١ص٩، ابن سعد ، كتاب الطبقات الكبير ، ليزمن ١٣٢٥ هـ مجلد ٢ص٢ .

(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، مصر ١٩٥٥ مجلد ١ص٥٩٠ ـ٥٩١ .

(٤) المصدر نفسه ، قسم١ ص٥٩٥ ـ ٥٩٦ .

(٥) ابن حزم ، علي بن احمد ، جوامع السيرة ، مصر (تحقيق دراسات عباس ود. ناصر الدين الاسد) ص١٧ .

(٦) الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، مصر ١٩٦٨ ، ج٢ ص٤٠٢ .

(٧) المصدر نفسـه ج٢ ص٤٠٣ .

(٨) ابن هشام ، السيرة قسم١ ص٥٩٠ — ٥٩١ .

(٦) قرآن كريم ، سورة الاحزاب : ٢١ .

(١٠) الشريف ، احمد ابراهيم ، الدولة الاسلامية الاولى ، مصر ١٩٦٥ ، ص١٠٩ .

(١١) دروزة ، محمد عزة ، تاريخ العرب في الاسلام تحت راية النبي (ص) بيروت ، (المكتبة العصرية) ص١٨١ ، وذهب الى نفس الراي محمد فرج . العبقرية العسكرية في غزوات الرسول (ص) ، ص١١٦ .

(١٢) سرور ، قيام الدولة العربية ، ص٨١ .

(١٣) ابن سعد ، كتاب الطبقات الكبير ج١ ص٢ .

(١٤) الواقدي ، المغازي ج١ ص١١ .

(١٥) ابن هشام ، السيرة النبوية ، مجلد ١ ص٦١٥ .

(١٦) الطبري ، تاريخ ، ج٢ ص٤٠٢ — ٤١٠ .

(١٧) ابن هشام ، السيرة ، مجلد ١ ص٤٤٢ .

(١٨) المصدر نفسه مجلد ١ ص٤٤٢ .

(١٩) المصدر نفسه مجلد ١ ص٤٤٢ .

(٢٠) المصدر نفسه مجلد ١ ص٤٤٦ .

(٢١) المصدر نفسه مجلد ١ ص٤٤٨ .

(٢٢) المصدر نفسه مجلد ١ ص٤٤٨ .

(٢٣) المصدر نفسه مجلد ١ ص٤٤٨ .

(٢٥) المصدر نفسه قسم ١ ص٤٥٤ .

(٢٤) المصدر نفسه مجلد ١ ص٤٤٩ — ٤٥٠ .

(٢٦) المصدر نفسه قسم ١ ص٤٥٤ وص٤٦٧ .

(٢٧) راجع على سبيل المثال : الشريف ، احمد ابراهيم ، الدولة الاسلامية الاولى ص٦٩ — ٧٠ .

(٢٨) ابن هشام ، السيرة ، المجلد ١ ص٥٠١ — ٥٠٤ .

(٢٩) يراجع بحثنا في مجلة آداب الرافدين ، العدد الخامس ، الموصل ١٩٧٤ .

(٣٠) ابن هشام ، السيرة ، مجلد ١ ص٥٠١ .

(٣١) المصدر نفسه مجلد ١ ص٥٠٣ .

(٣٢) المصدر نفسه مجلد ١ ص٥٠٤ .

(٣٣) المصدر نفسه مجلد ١ ص٥٠٣ .

(٣٤) المصدر نفسه مجلد ١ ص٥٠٥ .

(٣٥) ابن سعد ، الطبقات الكبير ، مجلد ١ ص ١ ·
(٣٦) المصدر نفسه ، مجلد ١ ص١ ·
(٣٧) وات ، مونتمري ، محمد في المدينة (تعريب شعبان بركات) بيروت ، ص٢٧٨ ·
(٣٨) ابن هشام ، السيرة مجلد ١ ص[illegible] ·
(٣٩) السهيلي ، الروض الانف ، مصر ١٩١٤ ، ج٢ ص[illegible] ·
(٤٠) سورة الصف : ٤
(٤١) الواقـــدي ، المغازي ، ج١ ص٩ - ابـــن ســـعد ، الطبقـات مجلد ٢ ص٢ ·
(٤٢) المصدر نفسه ج١ ص٩ — ١٠ ·
(٤٣) وات ، محمد في المدينه ص ٧ ·
(٤٤) الواقدي ، المغازي ج١ ص١٠ ·
(٤٥) ابن سعد ، الطبقات الكبير مجلد ٢ ص٤ ·
(٤٦) ابن هشام ، السيرة مجلد ١ ص٥٠٤ — ٥٠٧ . ابـــن سعد ، الطبقات مجلد ٢ ، ص١ ·
(٤٧) ابن هشام ، السيرة مجلد ١ ص٧٠٦ ·
(٤٨) الواقدي ، المغازي ، ج١ ص١٢ — ١٣ ، ابـــن سعد ، الطبقات مجلد ٢ ص٤ ·
(٤٩) وات ، محمد في المدينة ص٧ ·
(٥٠) المرجع نفسه ص٦ — ٧ ·
(٥١) المرجع نفسه ص٧ ·
(٥٢) ابن هشام ، السيرة ، مجلد ١ ص٦٠٦ — ٦٠٧ ·
(٥٣) المصدر نفسه ، مجلد ١ ص٧٠٦ ·
(٥٤) المصدر نفسه ، مجلد ١ ص٦١٢ ·
(٥٥) المصدر نفسه ، مجلد ١ ص٦٠٧ ، راجع ايضا الواقدى ، المغازي ج١ ص١٩ ، الطبري ، تاريخ ج٢ ص٤٢١ ·
(٥٦) الواقدي ، المغازي ج١ ص٢٧ ·
(٥٧) سورة الانفال : ٧ ·
(٥٨) الطبري ، تاريخ ج٢ ص٤٢١ ·
(٥٩) سورة الحج ٣٩ — ٤٠ ·
(٦٠) وات ، محمد في المدينة ص ١٧ — ١٩ ·
(٦١) ابن هشام ، السيرة مجلد ١ ص٦١٥ ، يراجع ايضا ، الواقدي ، المغازي ج١ ص٤٨ ، الطبري التاريخ ، ج٢ ص٤٣٥ ·
(٦٢) ابن هشام ، السيرة ، مجلد ١ ص٦١٥ ·

(٦٣) المصدر نفسه ، مجلد ١ ص٦٢٠ ــ ٦٢١ ٠
(٦٤) الواقدي ، المغازي ج١ ص٦٨ ٠
(٦٥) ابن هشام ، السيرة مجلد ١ ص٧٠٧ ــ ٧٠٨ ٠
(٦٦) المصدر نفسه ص ٧٠٦ ــ ٧١٥ ٠
(٦٧) الواقدي ، المغازي ج١ ص١٠٦ ٠
(٦٨) وات ، محمد في المدينة ص٦ ، راجع ايضا ابن سعد ، الطبقات ج٢ ص١ ٠
(٦٩) ابن هشام ، السيرة المجلد ١ ص٦٢٣ ٠
(٧٠) الواقدي ، المغازي ، ج١ ص١٠٨ ٠

نظـام المعاون
من نظم الأمن الداخلي في الدولـة العربية الاسلامية

د . فاروق عمر فوزي
كلية الاداب/جامعة بغـداد

مقدمـــة :

أشرنا في بحث سابق(١) الى ان الدولة العربية الاسلامية كانت تدرك جيداً بان أمن البلاد (دار الاسلام) واستقرارها وطمأنينة مواطنيها عوامل مهمة للنهوض الحضاري والتقدم الاقتصادي والاقتدار العسكري والثقـل السياسي ... ولهذا عملت بكل الوسائل لتحقيق اكبر قدر ممكن منه . ومما يدلل على اهتمام الدولة بالاستقرار الداخلي كثرة المؤسسات والنظم التي ابتدعت الاشاعة هذا الاستقرار مثل نظام الشرطة والحسبة والمظالم والقضاء وغيرها . ولم يكن نظام المعاون او المعونه الا واحـداً من هـذه الانظمة التي تختص بالأمن الداخلي .

لقد كان الوالي أو الأمير هو المسؤول المباشر والأول امام الخليفة أو الوزير عن الأمن الداخلي وتبدو اهمية الاستقرار الداخلي من أقوال بعض الولاة. فقد خاطب والي المدينة المنورة أهل المدينة قائلا :

«ايها الناس انا والله مارأينا شعاراً قط مثل الأمـــن فالزمـــوا الطاعة ...(٢)» وكانت الدولة تعتبر الناس او الرعية متضامنين مع الدولة في حفظ الأمن الداخلي وتؤكد على ضرورة اشراكهم في ذلك سواء من كان يستقر في الامصار والمدن او من كان يستوطن القرى وأرياف - فقد طلب والي العراق زياد بن ابيه من زعماء كل ناحية ان يضمنوا له الطريـق وقد نجح في ذلك لأنه كان يقول :

«لو ضاع حبل بيني وبين خراسان عرفت من أخذ به»(٣) !!

كما اقامت الدولة مراكز من مواقع استراتيجية على الطريــق بين الاقاليم ينزلها المجيرون الذين يحفظون الطريق ويجيزون السابلـة، اي يراقبون المسافرين ويأذنون لهم بالعبور بعد تفتيشهم . وكان المسؤول من هـذه المراكز صاحب السكك[٤] .

ولم تدخر الدولة العربية الاسلامية وسعاً في تطوير مؤسساتها خدمة للأمن الداخلي ولهذا نراها لاتعتمد فقط على المؤسسات التقليدية بل تحاول ان تطور مؤسسات اخرى او توســع في اختصاصات مؤسسات موجود لهذا الغرض . فلم يكن من اختصاص ديوان البريد على سبيل المثال نقل الرسائل والاخبار فقط بل كان صاحب البريد عين الخليفه وأذنه المخلصه على كل ما يحدث في الاقليم حيث ينقله الى العاصمة بكـل أمانة . كما استعانت الدولة بالمخابرات برئاسة صاحب الخبر وهم مجموعة من العيون والجواسيس والمخبرين للتحري عن المشاغبين ومثيري الاضطرابات وكان شعار الدولة على لسان أحد ولاتها حيث يقول : «والله أني لأعد للأمــر عسى الا يكون ابداً»[٥]

وينقل الرواة والاخباريون روايات تاريخية عديدة تشير الى الوعي العالي لدى المسؤوليين بأن التدهور السياسـي والتفكك الاداري انما يبــدأ بتضييع الاخبار وباستتار الانباء عن السلطة المركزيــة في العاصـمة . ويجعل المؤرخون الرواد ذلك سبباً رئيسياً من اسباب سقوط الخلافــة الاموية والعباسية[٦] .

الأصل اللغوي والتاريخي :

ان الأصل اللغوي الذي اشتق منه لفظ معاون هو العون كما جـاء في تاج العروس وجمعه (معونه) او لعله اشتق من معن كما في لسان العرب ومعناه الاقرار بالحق ، وتمعن اي تصاغر وتذلل انقياداً ، من قولهم أمعن

يحقي اذا أذعن واعترف . وقال ابن منظور والمعونة الاعانة ورجل معوان حسن المعونة(7) .

اما في الاصطلاح التاريخي فقد اختلف المؤرخون والكتاب من رواد ومحدثين بشأنه . ففي رواية تاريخية أن المعاون جمع معونة وصاحب المعونة قيل في تسميته عامل المعونة ووالي المعونة ويتولى المعونة وصاحب للبلد هو الأمير دون الحاكم والمرتب لتقويم أمور العامة فكأنه معين المظلوم على الظالم وهو بمثابة والي الجنايات(8) .

ومن تعريفات الجرجاني «ان المعونة مايطهر من قبل العوام تخليصاً لهم عن المحن والبلايا(9)» وكان غالباً مايطلب الي أصحاب المعاون مساعدة القضاة والحكام ومعونتهم بما يقضي بلم شمل الصلاح في تنفيذ القضايا والانتضام(10) .

وللمعاون ديوان يضم صاحب المعونة وحملة من كتاب المعونة الذين يجب أن يكونوا «علماء بالقصاص والحدود والجراحات والمراقبات والسياسات»(11) . ولصاحب المعونة مع كتابه دار يسمى (دار المعونة) ولهم أيضاً حبس المعونة .(12)

اختصاص المعاون :

ان الروايات التاريخية حول اختصاص صاحب المعونة وصلاحياته نادرة . ومن هنا جاء اختلاف المؤرخين حول هذه الاختصاصات . والذي يبدو ان صلاحيتهم تنوعت وتعددت لأنها شملت كلما يتعلق بحفظ الأمن الداخلي والاستقرار . وكانت بعض الاحكام والغرامات التي يصدرها القاضي يقوم ولاة المعاون باستيفائها بامر من القاضي(13) ، ومعنى ذلك أن المعاونة كانت تقوم باعمال الشرطة القضائية في تنفيذ الاحكام الصادرة من القضاة . وهذا بعض اختصاصها . مما اعتبرت دائرة المعارف

الاسلامية(١٤) المعاون جزءاً من الشرطة . فاختصاص الشرطة يكون في العاصمة والمدن الكبيرة في حين نجد «فرقة المعونة في غير ذلك من الاماكن الأقل شأناً حيث تناط بها واجبات مماثلة لما ينط بالشرطة . وكان الضابط المنوط به القوة من الجند هو صاحب الشرطة (في المدينة الكبيرة) وصاحب المعونة (في المدن الصغيرة والقرى) وفي مصر كان يسمى (والي الاحداث والمعاون)... وكان يصدر أحكام وفقاً للعرف وان يتصرف لمنع الجرائم او القلاقل معتمداً على التقارير التي تصله . في حين أن القضي والمحتسب كانا موكلين بالشرع .

ومن اختصاص صاحب المعونة كذلك على ما أورده الماوردي اختيار الحراس في القبائل . يقول : «أما اختيار الحراسين في القبائل والاسواق فالى الحماة وأصحاب المعاون»(١٥) ، كما وان من واجبات الحماة وولاة المعاون النظر في أمر الحاكمة والصاغة والقصارين والصباغين وهم — في رأي الماوردي — أخص بالأمر من المحتسب لأن هؤلاء الحرفيين ربما هربوا بأموال الناس فيراعي أهل الثقة والامانة منهم فيقرهم ويبعد من ظهرت خيانته وشهر أمره لئلا يغتر به من لايعرفه ... فالخيانة تابعة للسرقة . ومما يدل على حسن التنظيم الاداري وضبطه في الدولة العربية الاسلامية في العصر العباسي أن مدينة صغيرة على نهر الفرات مثل مدينة الرقة(١٦) كان تضم من الموظفين الاداريين بالاضافة الى الوالي او الأمير مما يلي : (١) القاضي ، (٢) كاتب سلعة يسمي (البندار) يطالب بالخراج ووجوه المال (٣) صاحب جند (٤) صاحب بريد ينهي الاخبار للخليفة (٥) متول للضياع السلطانية (الصوافي) (٦) صاحب معونة ، وذلك في بداية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي . ويبدو من كلام قدامة في كتابه الخراج أن أصحاب المعونة كانوا معروفين في الدولة ومنتشرين في اقاليمها وان

الكتب والمراسلات كانت تجري اليهم من العاصمة حيث ان من جملة واجبات كاتب التحرير هو تحرير الكتب الى «اصحاب الدواوين او اصحاب المعونة أو القاضي أو من جرى مجراهم[17] .

ويؤكد ادم متز ماذهب اليه ليفي فيفرل بأن الذي يعني بالأمن من مقر الأمير هو الوالي وصاحب الشرطة ، اما من في المدن الاخرى فكان يتولى ذلك صاحب المعونة ...»[18] .

ولعل مما يدخل ضمن اختصاص صاحب المعونة ماورد في مقامات الحريري (ت٥١٦ هـ) حيث يقول : «فاذا .. شيخ طويل اللسان قصير الطلسان . قد لبث فتى جدير الشباب خلق الجلباب فركضت في اثر النظارة حتى وافينا باب الامارة . وهناك صاحب المعونة متربعا في دسته . ومروءة بسمته فقال له الشيخ : اعز الله الوالي ، وجعل كعبه العالي . أني كفلت هذا الغلام فطيما وربيته يتيما ثم لم آله تعليما ، فلما مهر وبهر . جرد سيف العدوان وشهر ولم اخله يلتوي علي ويتقح حين يرتوي مني ويلتقح .

فقال له الفتى : «علام عثرت مني حتى تنشر هذا الخزي عني ؟..»[19]

نشوء نظام المعاون وتطوره :

لعل اقدم نص تاريخي حول بدايات نشوء نظام المعونة هو نص الطبري في حوادث سنة ٤٠هـ في خلافة علي بن ابي طالب (رض) حيث يقول :

«وكان واليه على البصرة في هذه السنة عبدالله بن العباس ... واليه وكانت الصدقات والجند والمعاون ايام ولايته كلها»[20]

وفي تاريخ اليعقوبي ان المنصور أول من ولى قضاة الامصار ممن قبله ، وكان يجمع اليهم كذلك[21] . ويشير هلال الصابي ان مذهب صاحب

المسوحة كان في زمانه يضم عادة الى صاحب الجند والحرب وكثيراً مايطلب من اصحاب المعون مساعدة القضاة في تنفيذ احكامهم(٢٢) .
وفي رواية في الطبري عن احداث سنة ٢٣٨هـ أن والي معونة مصر عتبة بن اسحق الصبي أمر الجند الذين بدمياط ان يحضروا الفسطاط وأخلى دمياط من الجند(٢٣) .
ويقول مسكويه في حوادث سنة ٢٥٠هـ(٢٤) :

لما ظهر يحيى بن عمر الزيدي بالكوفة وجمع كثيراً من الاعراب وأهل الكوفة كتب محمد بن عبدالله طاهر الي عاملة على معاون السواد عبداللهبن محمود السرخس والي عامل الكوفة يأمرهما بالاجتماع لمحاربته .

وفي رواية تاريخية ان الخليفة العباس المعتصمبالله غضب حين وصل الى سمعه آن أحد القاطنين قد قال في السوق «ليس للمسلمين من ينظر في امورهم» فاعتذر القطان مؤكداً انه لم يقصد بذلك الخليفة بل المحتسب. وقد أدهش هذا الفعل القاضي ابو علي الحسن بن اسماعيل نديم الخليفة وتسأل من الخليفة عن سبب ذلك الاهتمام الشديد بقول القطان مشيراً الى انه كان يكفي هذا القطان «ان يصيح عليه رجل من رجال المعونة» وان امثال هذه الاقوال تقولها العامة دائما ولايتميزون فيها فقال الخليفة : «ياحسن انت تعلم مايجره هذا القول اذا تداولته الالسن ودعته الاسماع»(٢٥) . وفي رواية للطبري عن استعانة عبدالله بن طاهر بأصحاب المعاون ببغداد حين تأزمت العلاقة بينه وبين أهل بغداد حيث :
«تقدم الي اصحاب المعاون ببغداد بتسخير ماقدروا عليه من الابل والبغال والحمير لينتقل عنها، ولكن عاد فطاب منهم بترك السخرة بعد ان صلحت الحال(٢٦) .

ويبدو ان المعاون لم تكن من المناصب الهينه فقد تولاها الولاة وامراء الجند

والحرب كما تولاها ابناء الخلفاء • فقد اشار ربيعة الجرشي على عبدالملك بن مروان ان يولي ابنه الوليد «على المعاون والصوائف يكن ذلك له شرفا وذكراً» • كما قلد المقتدربالله سنة ٣٠١هـ ابنـــه علي «الصلاة وأعمال المعاون والحرب بالري ودربناوند وقزوين ورنجان • وكان القائد نزوك صاحب معونة في عهد المقتدر كذلك • وولى المقتدر ياقوتا اعمال الخراج والمعاون بفارس وكرمان ، وولى العباس بن عمر الفنولي الحرب والمعاون بمصـــر(٢٧) •

وحين ضعف امر الدولة في عهد الراضي نصب هذا الخليفة محمد بن رائق اميراً للامراء وقلده امارة الجيش والخراج والمعاون وجميع الدواويـــــن سنة ٣٢٤هـ وبطلت الوزارة واصبح امير الامراء هو الناظر من جميع الامور وصارت الاموال تجمع الي خزائنه»(٢٨) •

وفي عصر التسلط البويهي على بغداد ٣٣٤هـ ـ ٤٤٧هـ غدا وزيـر الامير البويهي هو الذي يقلد صاحب المعاون سلطاته(٢٩)•

«قال ابو اسحق : قلدني الوزير ابي محمد المهلبي دواوين الرسائل والمظالم والمعاون تقليداً سلطانياً كتب عن المطيع لله الى اصحاب الاطراف»

كما ويبدو ان المعونة صارت تشمل بغداد كذلك فقد تقلد سنة٣٨٩هـ ابو الحسن علي بن أبي علي المعونة بجانبي مدينة السلام وضلع عليه وغدا من واجب صاحب المعونة استتاب الأمن والنظام في العاصمة •

«ففي سنة ٤٢٤ هـ ثار العوائل من جامع الرصافة ومنصور الخطيب من الخطبة ورجموا القاضي أبا الحسن بن المرديـــف الخطيب وقالوا ان خطبت للبرجمي والا فلا تخطب لخليفة ولا للملك •

ثم اقيم على المعونة أبو الغنائم بن علي فركب واطف وقتل فوقعت الرهبة •••» ويبدو من النصوص التي لدينا عن مصر من العصر الايوبي

ارتباط المعاون بالشحنة حيث كانت (دار الشحنه) تسمى (دار المعونة)[٣٠]. وفي نص تاريخي آخر ارتباط اصحاب المعاون بالقضاة حيث يساعدون القضاة والحكام ويعينونهم في تنفيذ احكامهم[٣١] .

وهذا ما كان عليه الحال في المغرب والاندلس كما تشير رواية من صبح الاعشى حيث تسرد واجبات اصحاب المعاون والشروط التي يجب ان يتحلوا فيها . كما وتشير نفس الرواية الي ارتباط اصحاب المعاون بالقضاة في المغرب ، كما هو الحال في مصر حيث تقول :

«يأمره (يوسف بن كاشفين) ان يوعز الى اصحاب المعاون بأن يشدوا من القضاة والحكام ، ويجدوا من اجراء امورهم على أوفى شروط الضغط والانقدام ويأمرهم بحضور مجالسهم لتنفيذ احكامهم وأمضائها .. والتصرف حسب امثلتهم في أحضار الخصوم اذا ما امتنعوا وسوقهم الي والواجب اذا زاغوا عنه وانحرفوا وان يتقدم بامداد عمال الخراج بما يؤدي الى قوة ايديهم في استيفاء مال الفتى واجتبائه ، واعتماد ماينصر الحقوق في مطاويه واثنائه .. قال الله تعالى : «وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان وأتقوا الله ان الله شديد العقاب»[٣٢] .

ولعل الحريري(٣٣) في مقاماته قد لخص كل هذه الصفات والصلاحيات بجملة واحدة واضحة حيث عرف صاحب المعونة بأنه «المرتب لتقويم امور العامة فكانه معين المظلوم على الظالم..» . ولعل ذلك جعل بعض المؤرخين الغربين او الآخرين الذين تثقفوا ثقافة اوربية الى اعتبار صاحب المعاون مقابلا لمنصب في الشرطة هو

و واعتبره أخرون أقرب مايكون في اختصاصاته الى الشرطة القضائية بينما ذهب أخرون الى تشبيه بالمحتسب وسماه أخرون برئيس الدرك . الا ان صاحب المعاون ليس احد من هؤلاء

على وجه الدقة رغم أنه من صلاحياته يأخذ منهم جميعاً فهو مثلا اوسع في اختصاصه من الشرطة القضائية ولكنه أقل من الشرطة العامة وأقل كذلك من المحتسب • والقاضي وصاحب المظالم

الخاتمـة :

لقد اختلفت اختصاصات نظام المعاون في الدولة العربية الاسلاميـة عبر العصور ، كما تداخلت هذه الصلاحيات مع أنظمة ومؤسسات أخرى • وليس هذا غريباً في النظم الاسلامية كما اوردتها كتب التراث فالباحـث المتمعن يلاحظ تداخلا مثلا بين صلاحيات صاحب الشرطـة وصاحب الخبر وبين هذا الأخير وصاحب البريد ••• وهكذا نجد التداخل بين اختصاصات صاحب المعونة وصاحب الشرطة والخبر والبريد أو انه كان يأخـذ جزءاً من صلاحياتهم في اماكن واوقات معينة وحسب الظروف • وكذلك كـان صاحب المعونة يساعد أو يعين المحتسب والقاضي وصاحب المظالم وربما كان يتمتع ببعض صلاحياتهم بتقليد من الخليفة او الوالي لكي يتصـرف طبقاً للعرف والقانون دون الرجوع الى القاضي أو الوالي خاصة مايتعلق منها بالجرائم وتعكير الأمن والنظام •

ويبدو ان نظام المعاون المكون من صاحب المعونة وكتابه وشلة مـن الجند كان من بداياته يهتم باقرار الأمن والنظام بكل ماتعنيه هـذه الكلمة من معنى شامل في الاماكن خارج المدن الكبيرة والامصار اي في المدن الصغيرة والقرى والارياف(٣٤) على عكس صاحب الشرطة الذي يقصر اهتمامه بالمدن الكبـيرة •

لقد اهتمت الدولة العربيـة الاسلاميـة بتامين السبل والسـكك والطرقات بين المدن وفي اقاليم الدولة • وكان هناك على عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز الاموي موظفاً يسمى (صاحب السكك) وفي رواية تاريخية

ان بشر بن نافع كان على سكك العراق ـ واستمر الحال في العصر العباسي حيث كان الخلفاء يولون موظفيين خاصيين على الطرق ، ففي سنة ١٨٩هـ ولي محمد بن الجنيد الطرق مابين همدان والري ، وفي سنة ٢١٦هـ ولي محمد بن أوس البلخي طريق خراسان . وربما تداخلت واجبات هؤلاء مع واجبات صاحب المعونة او صاحب البريد حيث ان من جملة واجبات هذا الأخير حفظ الطرق وصيانتها من القطاع والسراق وانسلال الجواسيس في البر والبحر ، على ان واجبات صاحب المعونة الرئيسية كانت في القرى والارياف اى في الحواضر وليس الطرق والسكك.

واذا كان المؤرخون والكتاب المحدثون قد اختلفوا في تعريف نظام المعاون فمنهم من قال أنه اشبه بالشرطة القضائية ومنهم من أشار الى انه اقرب الى الحسبة ، فانهم لم يختلفوا في كونه واحداً من أنظمة الأمن الداخلي في الدولة وان ارتباطه كان وثيقاً بالمؤسسات الاخرى ذات الاختصاص المماثل مثل الشرطة والقضاء والمظالم والحسبه وانه كان يعين مؤسسات اخرى من أجل الاقتصاص من المذنب أو المقصر او الممتنع عن الازعان للحق والواجب ، ومن هنا جاء التدخل بين صلاحيات صاحب المعونة وصلاحيات المؤسسات الاخرى التي لها ارتباطات ونيقة ومصالح مشتركة معه .

والذي نراه أن صاحب المعونة يتمتع بالعديد من صلاحيات مؤسسات حفظ الأمن والاستقرار الداخلي دون أن يمس بها أو يتعدى على اختصاصات اصحابها . وان حدود سلطته في البدء كانت من القرى والارياف والبودي التي تتواجد فيها القبائل ثم امتدت هذه السلطة لتشمل العواصم والمدن الكبيرة في القرن الرابع الهجري او قبله بقليل .

الهوامش والتعليقات

(١) فاروق عمر ، الأمن في الدولة العربية الاسلامية ، افاق عربية، ١٩٨٤

(٢) الطبري ، تاريخ ، جـ٦ ص٤٨٦ طبعة القاهرة

(٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ٥ ص٧

(٤) البلاذري انساب (مخطوطه) ورقة ٤٦ ، ابن عبدالحكم ، سيرة عمر بن عبدالعزيز ، ص١٥٦ ٠

(٥) القالي ، الآمالي ، جـ١ ص٨٧ (ط دار الكتب المصرية)

(٦) راجع مثلا : الطبري ، تاريخ ، القسم الثالث ص٤١٤ ليدن

(٧) ابن منظور ، لسان العرب ، مجلد ١٣ ، ص٤٠٩ مادة «معن» بيروت ١٦٥٦ انظر تاج العروس مادة «عون» ٠

(٨) هلال الصالحي ، أقسام ضائعة من الشحفة الوزاء جـ١ ص٧٨

(٩) الرجاني التعريفات ، ص٢٣٤

(١٠) هلال الصالحي ، المصدر السابق ، جـ١ ص٧٨

(١١) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، جـ٣ ص٣٠٩

(١٢) هلال الصالحي : أقسام ضائعة من تحفة الوزراء ص٧٨

(١٣) الماجدي ، أدب القاضي جـ١ ص١٧١ ، وهنا يشبه الدكتور محي هلال السرحان أن ولاة المعاون أشبه مايكون بالمحتسبين (راجع كلام المحقق في حاشية (١) من نفس الصفحة) بينما شبهها ظافر القاسمي في كتاب نظام الحكم بالشرطة القضائية ص٤١١ ، في حين يعرف محققوا كتاب الجهشياري (طبعة ١٩٣٨) المعاون بالجنايات والمظالم ٠

(١٤) دائرة المعارف الاسلامية م١٣ ص١٩٣ فما بعد الطبعة القديمة ٠ ويشير ليمي في نفس المقالة ان من جملة واجباته التعسس ليلا لمنع الجرائم مستندا على خطط المقريزي جـ٢ ص٢٢٠ ٠ مادة (شرطة)

(١٥) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص٢٥٤ ، ٢٥٦

(١٦) ادم قز ، الحضارة الاسلامية جـ١ ص١٥٧ ــ ١٥٨

(١٧) عن حسام السامرائي ، المؤسسات الادارية ، ص٢٦٥ ــ ٢٦٦

(١٨) ق٠ ، المصدر السابق ، ١٥٨

(١٩) الحريري ، المقامات ص١٧٩ ــ ١٨٠ ، سنة ١٩٥٨ بيروت

(٢٠) الطبري ، تاايخ ، جـ٣ ص١٢٣

(٢١) اليعقوبي ، تاريخ ، جـ٣ ص١٢٣

(٢٢) هلال الصابي ، المصدر السابق ، ص٧٨

(٢٣) تاريخ ، جـ٩ ص ١٩٤

(٢٤) مسكويه ، تجارب الامم ، جـ٦ ص٥٦٦ ـ ٥٦٧

(٢٥) ابن الجوزي ، المنتظم طبعة ١٣٥٧ هـ م/الخامس القسم الثاني ص١٢٩ ـ ١٣٠ كذلك التنوخي ، نشوار المحاضرة جـ١ ص٣٢٧ .

(٢٦) الطبري ، جـ٩ ص٣٣٩ فما بعد

(٢٧) حول هذه الاخبار راجع الجهشياري ص٣٧ .. العيون والحدائق جـ١ ص٢٥٥ ، ٣٥٢ ، ٢٦٧ .

(٢٨) التنوخي ، نشوار المحاضرة ص٢٥ كذلك ابن الاثير ، جـ٨ ص٢٢٢

(٢٩) حول نصوص الفترة البويهية راجع ابو شجاع ، ذيل تجارب الامم القاهرة ١٣٣٧ هـ جـ٤ ص٣٣٧ ، الصابي ، ص٤٢ ، ابن الجوزي ، المنتظم م٨ ص٧٥ .

(٣٠) ابن الوردي ، تاريخ ، القاهرة ١٢٨٢ هـ ، جـ٢ ص٧٩ . ـ كذلك في بغداد في عهد المقتدر بالله تقلد نازوك الشحنة والمعونة (راجع الصابي ، رسوم دار الخلافة ص٨ ـ ٩ . والشحنة منصب ظهر في العهد العباسي المتاخر ويتولاه من فيه الكفاية لضبط البلد من جهة السلطان وله صلاحيات ادارية وعسكرية وكان الشحنة حاكما عاما لبغداد والعراق معا .

على ان الجواليقي يذهب الى ان الشحنة اسم للرابطة من الخيل في البلد لضبط أهله وليس باسم للأمير أو القائد . والكلمة عربية صحيحة واشتقاقها من شحنت البلد مالخيل والفلك المشحوت اي المملوء (راجع تاج العروس ٩/٢٥١ مادة شحن) .

(٣١) القلقشندي ، صبح الاعشى ، طبعة القاهرة ، جـ١٠ ص١٥٠

(٣٢) المصدر السابق ، جـ١٠ ، ص٣٨ ، ٣٩

(٣٣) الحريري المصدر السابق ، ص١٥٨

(٣٤) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص٣٢ فما بعد . ـ ابن حوقل ، صورة الارض ، بيروت ١٩٧٩ ص٣٦٠ فما بعد . ـ قز ، الحضارة الاسلامية ، م/٢ ص٢٧٩ .

الماوردي : الاحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٠٩ . ـ أدب الوزير ، طبعة بغداد .

القلقشندي ، صبح الاعشى ، القاهرة ، ١٩١٣ ـ ١٩١٧

الحريري ، مقامات ، باريس ١٨٢٢ م .

ابن الوردي تاريخ ، مصر ١٢٨٥ هـ
ابن منظور ، لسان العرب ، بولاق ١٣٠٠ ـ ١٣١٧ هـ
الزبيدي ، تاج العروس ، القاهرة ١٣٠٦ هـ
الطبري ، تاريخ ، طبعة ليدن والطبعة المصرية الحسينية
مسكويه ، تجارب الامم ، ليدن ١٨٦٩
ابن الجوزي ، المنتظم ، حيدر أباد ١٣٥٧ هـ
المجهول ، العيون والحدائق ، ليدن ١٨٦٩
قز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجم ، القاهرة ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ ٠

القاسمي ، نظام الحكم ، دار الفقائس ، بيروت ، ١٩٧٨
حسام السامرائي ، المؤسسات الادارية ، بغداد ، ١٩٧١

أثر الإسلام في نضوج الحرف اليدوية الفنية

الدكتور صلاح حسين العبيدي
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

اسهم اصحاب الحرف والمهن الشعبية اسهاما بارزا في بناء صرح الحضارة العربية الاسلامية من خلال ما قدموه من جهود وخدمات في مختلف الميادين ، وفي شتى المجالات ، فكان منهم الفلاح والبناء والنساج والخزاف والحداد والنجار والحجام والبراز وغيرهم ٠

ولابد لي وانا اعرض لهذا الموضوع من ان اشير الى ما قدمته كتب الحسبة من معلومات تخص الحرف والصناعات فكتاب الشيرزي (نهاية الرتبة في طلب الحسبة)[١] يقدم اربعين حرفة وكتاب (معالم القربة في احكام الحسبة)[٢] لأبن الأخوة يقدم اكثر من ستين حرفة ومهنة ، ويضم كتاب (نهاية القربة في طلب الحسبة)[٣] لأبن بسام حوالي ثمانين حرفه ومهنة ٠

والحرفة الصناعة وحرفة الرجل ضيعته او صنعته والحرفة الصناعة وجهة الكسب ومنه الحديث «اني لأرى الرجل يعجبني فاقول : هل له حرفه ، فأن قالوا لا ، سقط من عيني»[٤] ٠

والصنعة حرفة عرفها الانسان منذ ان ادرك سر الحياة وانتظم في مسيرتها ، وان ملازمة الانسان لها قديمة وبراعته في خدمتها متميزة ٠

ولكن الذي يؤسف له ان هذا الموضوع لم يحظ من عناية الباحثين بالنصيب الذي حظيت به الموضوعات الأخرى ، فالكتب العربية لاتفرد كتابا واحدا يقتصر على دراسة الموضوع وليس هناك فيما اعلم كتاب لباحثين محدثين يتناول هذا الموضوع وان كانت هناك فصول وابحاث متفرقة

ولكن ليس فيها الا القليل النادر ولايتناول ابعاده كلها او يمس زواياه جميعا ٠

لذلك كان لابد من توجيه العناية لدراسة هذا الجانب المهم من تاريخ الحضارة الاسلامية واخترنا هذه المرة الكلام عن موقف الاسلام من هذه الطبقة من طبقات المجتمع الاسلامي واعمالهم وتأثير ذلك في الصناعات اليدوية وتقدمها وتطورها وجمالها ونضوجها ٠

والمعروف ان الاسلام اعطى للعمل قيمة واهمية كبيرة عندما جعله في مصاف العبادة بل اعتبره من الواجبات المفروضة على المسلم والحقوق التي تؤديها الدولة لــه ٠

وقد اكد القرآن الكريم على العمل وعده شرطا اساسيا من شروط الرزق فأشاد بالعمل اليدوي حتى عده نعمة عظمى لابد للانسان من حفظها والمداومة عليها (ليأكلوا من ثمرة وما عملته ايديهم افلا يشكرون)[٥] وقوله (هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور)[٦] ٠

كما اكد الاسلام على كل مؤمن ان يتقن عمله كل الاتقان كما قال النبي (ص) أن «الله يحب اذا عمل احدكم عملا ان يتقنه»[٧]

وعن الرسول (ص) ايضا قوله (ان الله يحب اذا عمل العبد عملا ان يحسنه ويتقنه)[٨] ٠

ولقد كان لهذه التعاليم ابلغ الاثر في نفوس المسلمين فأقبلوا على العمل وعلى الانتاج واتقان العمل وتطويره والتفوق في شتى مجالاته كما يظهر لنا ذلك من خلال الاعمال الجليلة التي قدمها الحرفيون العرب والمسلمون مما كان له اكبر الاثر في ازدهار الصناعات الفنية وكانت الدولة ترعى اصحاب الحرف والمهن وتقدم لهم ما يحتاجون لاعمالهم كما انها تراقب مصنوعاتهم

وابناجهم عن طريق الحسبة التي تمثل السلطة الحكومية التي كانت تشرف على نقابات الحرف وتتصل اعمالها باعمال اعضاء هــذه النقابات وتمنح رجالها من النفوذ والسلطة مايمكنهم من حسن اداء واجباتهم ٠

واول من اوجد هذه الوظيفة في الاسلام هو الخليفة الثانـي عمـر بن الخطاب (رض) المحتسب الاول الذي كان اول من اشرف بنفسة على الاسواق٠

وكانت مهام المحتسب واسعة شملت النواحي الدينية والاقتصاديـة والاجتماعية والصناعية والذي يهمنا هنا هو الجانب الذي يتعلق بالحرف والفنون الصناعية ٠

ولعل اهم وظيفة للمحتسب تلك التي تتصل باشرافه على الصناعات اذ كان يرسم للصانع طريق العمل بارشاد شيخ الصنعة ويحدد له الهدف الاسمي الذي ينبغي ان يتجه اليه وهو اتقان العمل والاخلاص فيه ٠

كما امتدت واجبات المحتسب لتشمل حماية الصانع والمستهلك على السواء لتحقق للصانع سهولة الحصول على المواد الاولية التي تدخل فـي الصناعة ، وتمنع الاحتكار وتسعى لرفع مستوى الصانع الاجتماعي ويضمن للمستهلك جودة المصنوع واتقان الصناعة ويضرب على كل يد تحاول الغش والتدليس ٠

ومن الذين شملتهم رقابة المحتسب البزازون فكان عـلى البزاز ان يعمل ذراعا من خشب طوله بعرض الابهام اربعة وعشرون اصبعا محزوزة وينقش على طرفه الاول اسم الامام وعلى الطرف الثانـي اسـم المحتسب يتعيشون به ليرتفع الشـك في طـول امتعة الناس وعرضها في الزيادة والنقصان وان يعتبر موازينهم كل وقت(٩) ٠

اما بالنسبة للمطرزين فقد امرهم المحتسب الا يطرزا بقز ويدعوا انه حرير وان لايطرز احد شيئا حتى يزنه بالميزان ويكتب وزنه بطرفه اذا اتاهم

احد بثوب يطرز والاينقلوا رقم ثوب على ثوب آخر غيره[10] .

كما امتدت رقابة المحتسب بالنسبة الى بعض انواع الملابس نذكر منها على سبيل المثال نوعا من اغطية الرأس تعرف بالقلانس والقلانس مايلاث على الرأس تكويرا .[11] .

وقد نصت تعليمات المحتسب لصناع القلانس ان لايعملوا القلانس من الخرق البالية التي يلقونها بالقراطيس والاشراس ولايخيطوا عتيقا الا ان يكون فتيقا مقلوبا ويكتب على بطانة الجديد جديدا والعتيق عتيقا بخط المحتسب .[12]

اما بالنسبة للخياطين واعمالهم فأن المحتسب طالبهم بتضييق الابدان وسعة التخاريص وان تكون خياطتهم دززا ولا تكون شلا وان لاتكون الخيوط طوالا فانها تضعف من التكرار[13] . والزم الخياطون بجودة التفصيل وحسن فتح الجيب وسعة التخاريص واعتدال الكمين والاطراف واستواء الذيل[14] .

ومن بين واجبات المحتسب ايضا ملاحظة الانسجة ومنع الغش فيها كما يجب على الحاكة الجودة في العمل وان يسيروا على الطول والعرض المتعارف عليه في الحياكة ، وتنقية الغزل من القشرة السوداء[15] .

وكان الحاكة يجهزون القماش حسب رغبة الزبائن وكان بعضهم يحيك الخيوط المغزولة التي يحضرها لهم الزبائن ولذلك ربما آتهم الحاكة بامانتهم فيهربون بما يودع لديهم من خيوط او يبدل الغزل وكثرة اهمالهم للمواعيد الامر الذي استلزم اخضاع صناعة المنسوجات واصحابها للاشراف الحكومي عن طريق المحتسب ، واشترطت قوانين الحسبة على الحاكة ايضا ان يراعوا جملة تعليمات اخرى تتعلق بامانتهم والمحافظة على مواعيدهم وتجويد منتوجاتهم فقد طلب اليهم مثلا ترك مطل الناس وان يشترطوا على

الزبون مدة فراغهم من حياكة غزله(١٦) .

واغرب ما نصادفه عند حديث هؤلاء المؤرخين عن هــذه المهنة وجود عريف عليهم يراقبهم ويتفقد امورهم ويأمرهم ان يعطوا لكل من عمل عندهم ملاكا من غزله ، لتزول التهمة ويرتفع الشك فاذا جرى في ذلك دعوة مــن صاحب الغزل ان غزله قد ابدل رجع العريف واهل الصنعة الى ذلك المسلك ونظر ما رسمناه للصناعة ورسم نقص الغزل درهم واحد لكل ذراع ويتقدم اليهم بأن يكروا عقد كل شيء يعملوه للناس وللبيع ايضا ويصفقوه ولايحلو لأحد من سائر الحاكة الشرب والصفيق وغيرهم الخيانة جملة كافية ومــن خالف أدب(١٧) .

وقد اشارت الكتب الى اوامر اخرى تخص الحاكة ، فقد ورد في كتاب (مفيد النعم ومبيد النقم) للسبكي الاوامر التي تصدر الى الحائك اي النساج، يقول السبكي ، ومن حقه ان لاينسج مايحرم استعماله لئلا يكــون معينا فلا يمنع لانه لم يتعين ان الذي يلبسه رجل بالغ ، اما عن المخلوط مــن الحرير وغيره فان كان الحرير اكثر وزنا حرم وان كان غيره اكثر وزنا او استويا لم يحرم ويجوز جعل طراز من حرير وبشرط ان لايتجاوز قــــدر اصابع(١٨) .

وخضع الغزالون لمراقبة المحتسب ايضا ويمدنا صاحــب كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، وبصورة دقيقة وغنية بالتفاصيل عن الامور الواجب اتباعها وتطبيقها من قبل الغزالين فقد ذكر انه «ينبغي ان يعرف عليهم عريفا طاهرا مامونا بصيرا بما يجرى في السوق من الخطا والتدليس ويجعل كــــل جزء من النساء منفردا غير مختلط وقــــد يشترى بعض السماسرة الغــزل الرخيص ويعيدة الى السوق مع غيره الى من يساله شراء مثله فيبيعه لـــه بزيادة متفاوته ، وينبغي ايضا ان يتامل من يشتري الغزل فان كان مظنونا

به او مواصيا للمشتري اكثر ما يحتاج اليه ، حل غزله وبل بالماء قبل دفعه اليه ويستحلف سماسرته اتم يمين ان لايدلوا غـزلا ولايشاركـوا في ذلـك ولايواطئوا عليه احدا ومتى ما اطلعوا على هذا من غيرهم نموا عليـــه ولـم يسكتوا عنه واظهروا فعله ولم يستروه كائنا ما كان من المسلمين وغيرهم .

ولاتبخس الموازين ولايظلمون احد من البائعين والبائعات وان ينقدوا لهم نقدا جيدا يغني عن المعاودة والمراجعة ويعتبر موازينهم وصنجبهم كـــل وقت ولايترك عند احد منهم دستي صنج ولا صنجة ثلـث درهـــم ولاثلث اوقية(١٩) .

ولدينا خبر آخر عن الغزالين في العصر العباسي فقد نقل الى الخليفة المعتضد خبر عن قطان شيخ بن بركة زازل انه قال ليس للمسلمين ناظـر في امورهم واستدعى القطان الى المعتضد ، وقال الشيخ انا رجل سوقـــي لا اعرف غير الغزل والقطن ومخاطبة النساء والعامة وانما اجتاز بنا رجـــل بايعنا شيئا كان معه ، فوجدنا ميزانه نقصا وانما قصدت بكلامي المحتسب، فامر المعتضد باحضار المحتسب والمبالغة عليه في الفضله عن أنكار مراقبة الغزالين وضبط معا يبرهم(٢٠) .

كما ان الدولة كان لها موظفون يشرفون على مصانع النسيج ومنهم والى الطراز او صاحب الطراز كما يسميه ابن خلدون(٢١) مهمته الاشراف وادارة كل ما يتعلق بدور الطراز ، ويذكر الصابي ان من بين واجبات والي الطراز الاشراف على الصناع فيما يأخذونه من المناسج حتى يجوده واخذهم باثبات اسم امير المؤمنين على ما يصنع من الاعلام والبنود وما ينسج مـن الكسي والفروش(٢٢) .

ولما كانت صباغة المنسوجات تشكل عنصرا اساسيا في الصناعـــة النسيجية لذا فقد ادرجت ضمن واجبات المحتسب فكانت التعليمات تقتضي

ان يعرف على اصحابها عريفا ثقة عارفا بغشي هـذه الصنعة ويمنعهم ان يطرحوا في حوانيتهم الحناء فأن اكثر صباغي الحرير الاحمر يصبغونه بالحناء عوضا عن الفوة فيخرج الصبغ حسنا مشرقا فأذا اصابته الشمس تغير لونه وزال اشراقه وكذلك صبغ الغزل اذا دكن بالعفص والزاج وصبغ ذلـك تغير وانتقص ولم يثبت(٢٣) .

كما كان المحتسب يطلب الى صانع الخزف ان ينتقي من الطين احسنه ومن الوقود افضله وانظمه فلا يستعمل روث الادمي ولاشيئا من الازبال فأنها نجسه بل يستعمل الحلفاء وقشر الارز وما اشبه(٢٤) .

وعليه ان يحرص على جعل الاواني معتدلة تامة الشيء حتى لاتتفت اذا ما وضع الطعام فيها وتكون كاملة الادهان ولايستعمل في الصبغة الا أحسن المـواد(٢٥) .

وكان من واجبات المحتسب ايضا مراقبة باعة الفخار ، ويتقدم اليهم بأن لايدلسوا على الناس بسد المثقوب والمشقوق ومن سائر ما يبيعونـه بالشحم والجير وماء البيض ويبيعونه على انه سالم ومتى وجد عندهم شيئا بهذه الصفة كسر . (٢٦) .

كما الزم صناع الامشاط بالصناعة الجيدة . ولم تغفل الحكومـة مراقبة النجارين لذلك فرضت رقابتها عليهم عن طريق المحتسب . ومهمته التدخل في شؤون هذه الحرفة واصحابها وتوجيـه فعالياتهم بحيث لاتترك مجالا لمن تحدثه نفسه بالشر ان يعبث بمصالح الناس . ونظرا لعدم تخصص المحتسب في هذه الصناعة كان يجعل عريفا من خيرة اهلها بصيرا بصناعتهم مشهورا بالثقة والامانة له دين ، فقد يوافق اكثر الصناع على اجرة معلومة كل يوم فيتأخروا عند الغد وينصرفوا قبل المساء فينبغي ان يشترط فـي ذلك بما يمنع منه ومن النجارين من يقرب على اصحاب الاشغال ما يعملونه

لهم ويهونونه عليهم ويقللون من مؤونته ، حتى اذا نشطوا اليـــه ترعـوا شرعوا فيه طالبوهم بزيادة المؤونة عما قرروه فكان في ذلك خطر وغش ، فينبغي ان يتقدم المحتسب بالمنع من ذلك ، ثم منع بالايمان المؤكده[٢٧] .

ويلزم اي المحتسب النشارين ان يعمل على كل مقص ثلاثـة انفس ، احدهم يحيل المنشار واذا تعب واحد من الاثنين ناب عنه الآخر إلى يأخـذ صاحبه راحة ولاينصرفوا الى آخر النهار ويمنعوا من إشتراك جميعهم عـلى الناس بل يكونوا مثل النجارين والبنائين لايعلمون الا بما قسم الله ورزق، وان لايحرقوا شيئا مما ينشرونه فيستلفوا الخشب ويمتحق من التجار فمن فعل هذا بعد الانذار ادب[٢٨] .

اما بالنسبة الى نجاري الضبب (الاقفال) فأن الشروط التي فرضهـا نظام الحسبة عليهم هي ان يعرف عليهم عريف ثقة عارفا بمعيشتهم بصيرا بهذه الصناعة وينشر جواسيسها وهي باب جليل يحتاج الى ضبطه لأن فيه حفظ اموال الناس وصيانة حريمهم ، فينبغي مراعاة ذلك بالحلف بحضرة عريفهم باكفارة لهم فيه وان لايعلموا لرجل ولا لامرأة مفتاحا على مفتاح إلا ان يكونا شريكين مشهوريـــن ويؤمروا ان لاينقبوا رأس الابيات لطـرح الاسنان ، بل ينقروا لها في رؤوس الابيات لحفظ الاسنان .

وتكون الاسنان التي فيها مربعة الرؤوس مدورة الاسافل مبرودة مجلسه وكذلك اسنان المفتاح مبرودة مجلسة حتى لايخرب ذكر الغلق لا من فوقـه ولا من تحته ويؤمرون ان يضموا الاغلاق بالجواسيس المختلفة حتى لايعمل مفتاح على مفتاح ومن خالف ادب[٢٩] .

كما امتدت واجبات المحتسب لتشمل صنفا آخر من اصناف النجارين، وهم نجارو المراكب او ما يسمونه بالقلافطة ، اذ ينبغي ان يعرف عليهـم عريف ثقة ، لأن هؤلاء النجارين يشترطون على ارباب المراكب ويأخذون عما

شاؤوا درهما واحدا او خمسة دراهم فان امتنع عليهم أحد تركوه وانصرفوا، وحلفوا انهم لايعملونه الا بزيادة عما قرروه في الاول فيرجع الناس اليهم لانهم عصبة لايخالف بعضهم بعضا ، فهم في هذا اول شيء خالفوه ، خالفوا سنة رسول الله (ص) لانه قد حرم شركة الابدان فينبغي ان لايمكنوا من الشركة لانها حيف ومضرة على ارباب المراكب ، فينبغي ان يحلفوا جميعا على ترك هذه الشركة ، ويشهر هذا الامر بالجرس في كل السواحل ويعلموا لسائر الناس كما يعمل نجارو الدور من الصناع ، وكذلك القلاطفة من غير ان يحيف على الجهتين ومن خالف ادب[٣٠] .

اما الاساكفة صناع الاخفاف ، فان تعليمات المحتسب واضحة فهي تنص بمنعهم من عمل العتيق ويطرحونه ويبيعونه جديدا وأن لايكثروا حشو الخرق بين البشتيك والبطانة ولا بين النعل والضهارة ولايشتروا نعلا قد احرقته الدباغة لاوفطيرا لم ينضج ولا أديما فاسدا ولاسوسا ولامعيوبا وان يحكموا ابرام الخيط ولايطولوه اكثر من ذراع[٣١] .

ومن الصناعات التي خضعت لرقابة المحتسب صناعة الزجاج فكان ينبغي أن يعرف على اصحابها ويحلفوا أن لايخرجوا الزجاج من الكور اذا فرغ حتى يمضي له يوم وليلة فأذا نشرب دخانه اخرجه بعد ذلك وباعه وان عجل في اخراجه قبل ان يشرب دخانه يصدع ويهلك على سائر من اشتراه ويأمر المحتسب العريف ان يختم على الكور فأذا تشرب فتحه ، وكذلك يصنع بصناع المثاقيل الزجاج ويحماها عند فتحها الى المحتسب يعيرها قبل بيعها[٣٢] .

ولم تقتصر مهمة المحتسب على مراقبة الحرف التي تكلمنا عنها وانما شملت طبقة اخرى من الحرفيين وهم الصاغة ، فكان يؤخذ عليهم الا يبيعوا اواني الذهب والفضة والحلي المصنوعة الا بغير جنسها ليحل فيها

التفاضل(٣٣) .

وقد اكدت كتب الحسبة ان تدليس الصياغ وغشوشهم خفية لاتكاد تعرف ولايصدقهم عن ذلك الا اماناتهم ودينهم وانهم يعرفون من الجلاوات والاصباغ ما لا يعرفه غيرهم فمنهم من يصبغ الفضة صبغا لايفارق الجسد الا بعد السبك في الروباص ، لذا فرض المحتسب على الصاغة ان تكون اكوار السبك غير مرتفعة بل تكون في قصارى مبنية على وجه الارض حتى لايخفي ما يسبكه فيها عن صاحبه من ذهب او فضة ، وكذلك صناع الخواتم يؤخذ عليهم انهم لايثقلوا الخواتم بالرصاص تحت الفصوص ويبيعونها للناس بفضة(٣٤) .

كما التفتت كتب الحسبة الى ناحية مهمة لها اثرها الكبير في تقدم الصناعات والفنون ونضوجها وهي مراقبة المواد الاولية التي تدخل في الصناعة حتى انهم كانوا يحددون نوعية تلك المواد ، مثال ذلك صناعة الامشاط اذ كان يؤخذ على صناعتها الا يعملوا امشاط الرجلية والنسائية الا من خشب البقس فانه انفع ما يفعل لهذا وان لايكون اخضر فانه اذا عمله اخضر ثم جف يتعوج وينكسر ومن عمل من غير هذا الخشب النارنج وغيره فانه يظهر في تسريحة شعرات من الخشب ينتف شعر الادامي(٣٥) .

بل ذهبت كتب الحسبة الى ابعد من ذلك عندما رسمت لهم المواصفات التي تكون عليها الامشاط ، فكان المحتسب يلزم بالصناعة الجيدة وان يكون صحيح الشرح ويكون مدة قائما عقب القطع مع صحة انزاله ويعتمد على المخرزة لانها لاتمشي الا على الصحيح ويصح التبطين بان يكون فمه رقيقا حتى ترف رؤوس الاسنان فينزل في الشعر حادة مع تدوير الحروف بالرنك ويتجنب الشعث(٣٦) .

وما عدا ما تقدم هناك حرفة اخرى خضعت الى اشراف المحتسب وهي

صناعة النحاس ، اذ تلزم قوانين الحسبة وتعليمها الصناع الا يخلطوا النحاس الاحمر مع السوسي ولا ضرب الحار مع البارد ولايكثروا الرصاص في النحاس المفرغ فانه اذا فعل منه هاون او طاسة او غير ذلك وقع انكسر سريعا مثل الزجاج ولايمكنهم ان يعملوا الطاسات المفرغة الارزينة حتى اذا وقعت لم يصبها شيء(٣٦) .

وهكذا نرى انه كان للدين الاسلامي وتعاليمه وبهدى من الهدف الاسمى للفن الاسلامي ان تقدمت الفنون الصناعية الاسلامية تقدما عظيما وتطورت وارتفع مستواها حتى اذا تجاوزت مرتبة السلعة العادية الى مرتبة التحفة الفنية الجميلة والامثلة كثيرة وواضحة من خلال القطع الاثرية المتنوعة التي تحتفظ بها المتاحف ، والتي استأثرت باعجاب العالم وتدلنا في وضوح لا ليس فيه ولا غموض على اننا امام فن صناعي بارز المعالم قوي الشخصية .

(١١) ابن سيدة ، ابو الحسن علي بن اسماعيل

الهوامش والمصادر

(١) الشيرزي ، عبدالرحمن بن نصر
نهاية الرتبة في طلب الحسبة . تحقيق الباز العريني (بيروت ١٩٦٩) .

(٢) ابن الاخوة ، معالم القربة في احكام الحسبة
عني بنقله روبن ليوى . مطبعة دار الفنون بمكبرج (١٩٣٧) .

(٣) ابن بسام ، المحتسب . نهاية الرتبة في طلب الحسبة
حققه وعلق عليه حسام الدين السامرائي مطبعة المعارف(بغداد١٩٦٨) .

(٤) ابن منظور ، جمال الدين محمد ابن مكرم
لسان العرب . دار صادر . بيروت (١٣٧٤ هـ) جـ٩ ص٤٤ .

(٥) قرآن كريم . يس٣٥

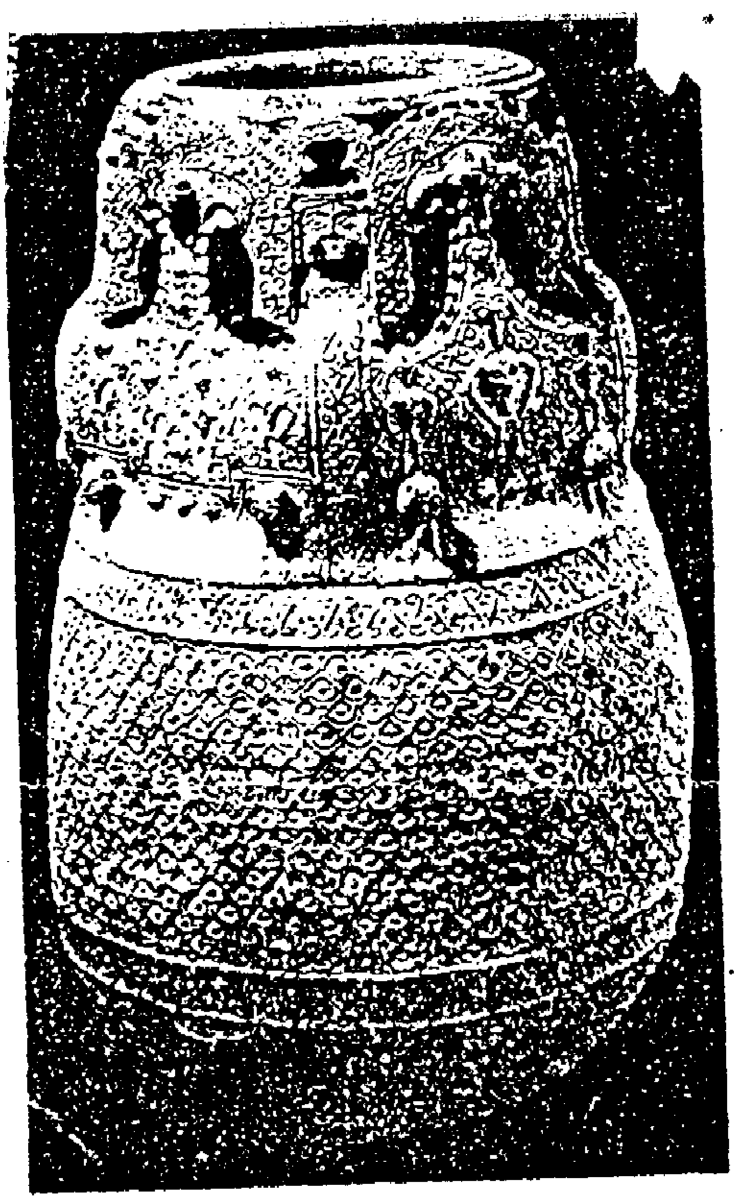
(٦) قرآن كريم . الملك١٥

(٧) رواه البيهقي
(٨) الكتانـي ، عبد الحي
التراتيب الادارية جـ٢ ص٨٣
(٩) ابن بسام ، المصدر السابق ص٨٠
(١٠) ابن بسام ، المصدر السابق ص٨٣
المخصص (مطبعة بيروت) جـ٣ ص٩٢
(١٢) ابن بسام ، المصدر السابق ص٧٧
(١٣) ابن بسام ، المصدر السابق ص٧٨
(١٤) الشيرزي ، المصدر السابق ص٦٧
(١٥) ابن الاخوة ، المصدر السابق ص١٣٦
(١٦) الماوردي ، علي ابن محمد بن حبيب
الاحكام السلطانية ط٢ القاهرة (١٩٦٦) ص٢٥٦
(١٧) ابن بسام ، المصدر السابق ص١٣٥
(١٨) السبكي ، تاج الدين عبدالوهاب
مفيد النعم ومبيد النقم (القاهرة ٠ ١٩٤٨) ص١٩١ ٠
(١٩) ابن بسام ، المصدر السابق ص٧٣
(٢٠) سعد ، فهمي عبدالرزاق ٠
العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين (الاهليـة للنشر والتوزيع) بيروت ١٩٨٠ ص١٣٥ ٠

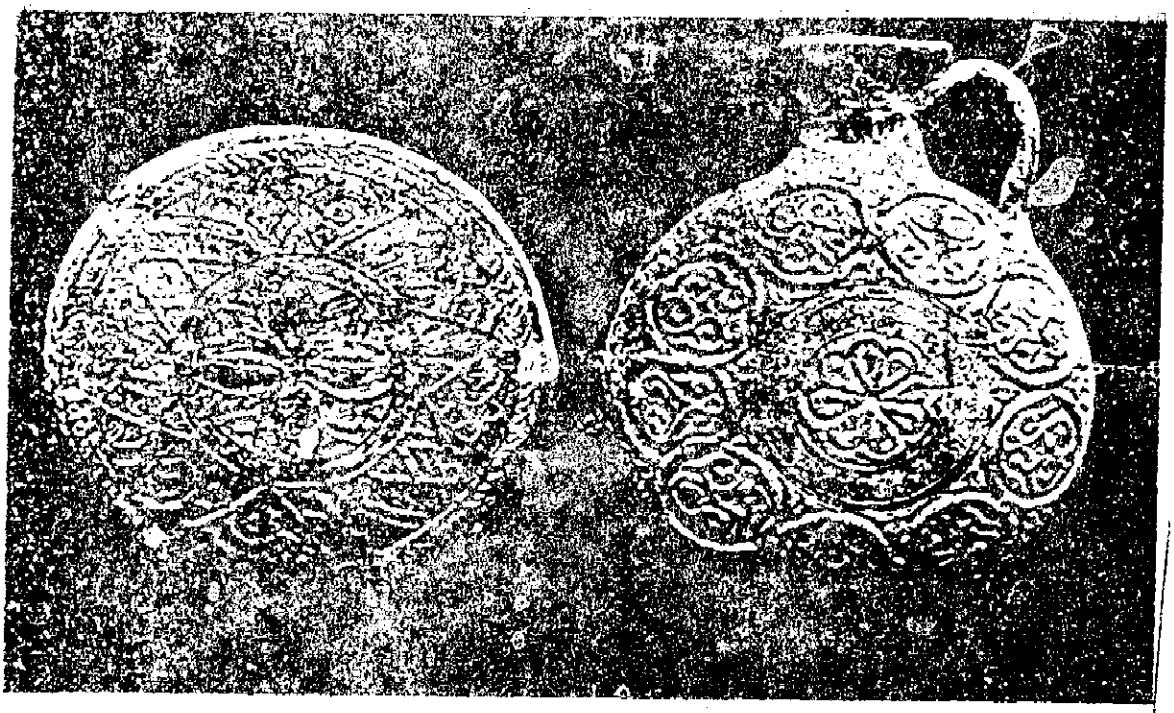
(٢١) ابن خلدون ، عبدالرحمن محمد المغربي
مقدمة ابن خلدون ٠ مطبعة مصطفى محمد (القاهرة) ص٢٦٦ ٠
(٢٢) الصابي ، ابو الحسين هلال بن المحسن
المختار من رسائل الصابي ٠ نقحه وعلق حواشيه شكيب ارسـلان (المطبعة العثمانية في بعبدا) ١٨٣٨ جـ١ ص١٤١ ـ ١٤٢
(٢٣) ابن بسام ، المصدر السابق ص١٢٨
(٢٤) مرزوق ، محمد عبدالعزيز
العراق مهد الفن الاسلامي ص٥٩

(٢٥) مرزوق ، المصدر السابق ص٥٩
(٢٦) ابن بسام ، المصدر السابق ص١٥٨
(٢٧) ابن بسام ، المصدر السابق ص١٤٤
(٢٨) ابن بسام ، المصدر السابق ص١٤٤ ـ ١٤٥
(٢٩) ابن بسام ، المصدر السابق ص١٤٧

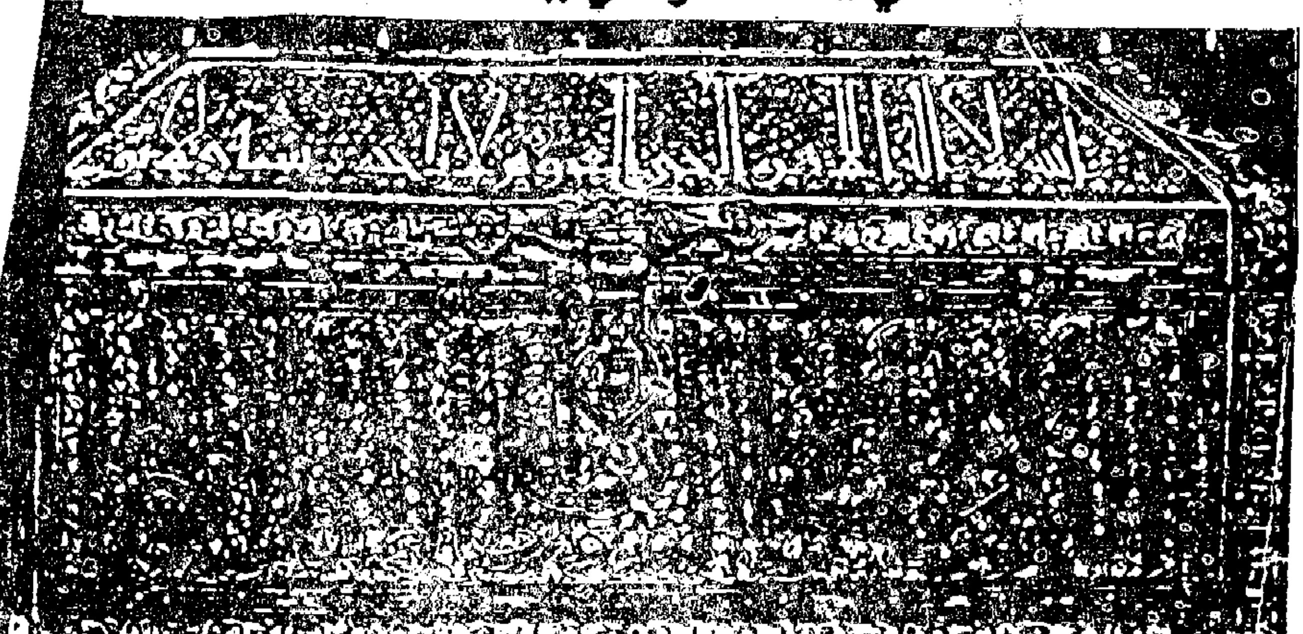
(٣٠) ابن بسام ، المصدر السابق ص١٤٨
(٣١) ابن بسام ، المصدر السابق ص١٣٠
(٣٢) ابن بسام ، المصدر السابق ص١٦٠
(٣٣) ابن الاخوة ، المصدر السابق ص١٤٣
(٣٤) ابن الاخوة ، المصدر السابق ص١٤٦
(٣٥) ابن الاخوة ، المصدر السابق ص١٢٢
(٣٦) ابن الاخوة ، المصدر السابق ص١٢٧
(٣٧) ابن الاخوة ، المصدر السابق ص١٢٨



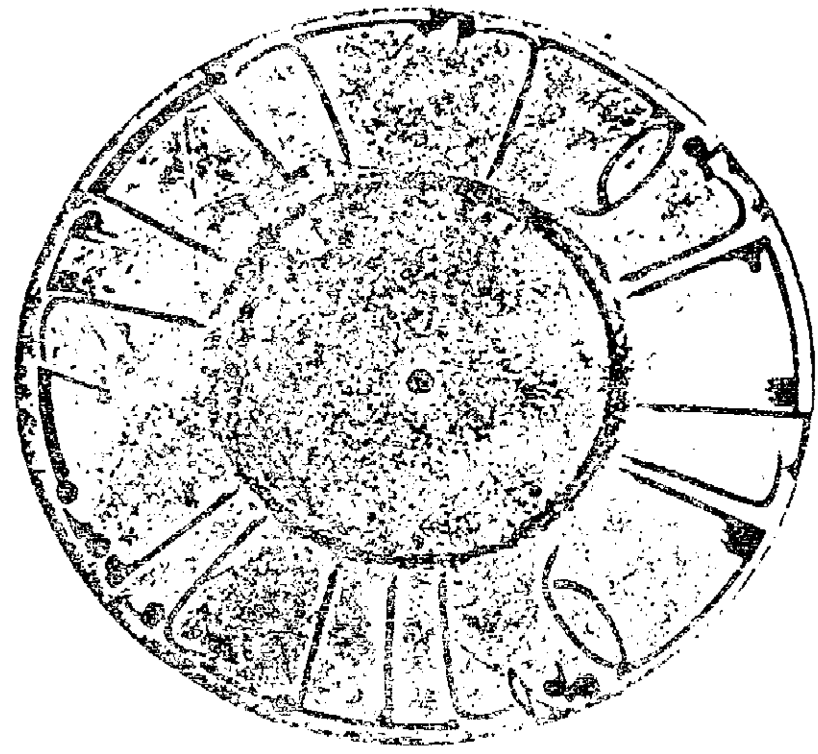
شكل (١)
جرة من فخار غير مدهون من العصر العباسي
في المتحف العراقي ببغداد



شكل (٢)
زمزمية من الفخار غير الملون من العصر العباسي
في المتحف العراقي ببغداد



شكل (٣)
صندوق مصحف مصنوع من الخشب ومصفح من الخارج بصفائح من النحاس الاخضر مؤرخ من سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م محفوظ في مكتبة الجامعة الازهرية بالقاهرة ·

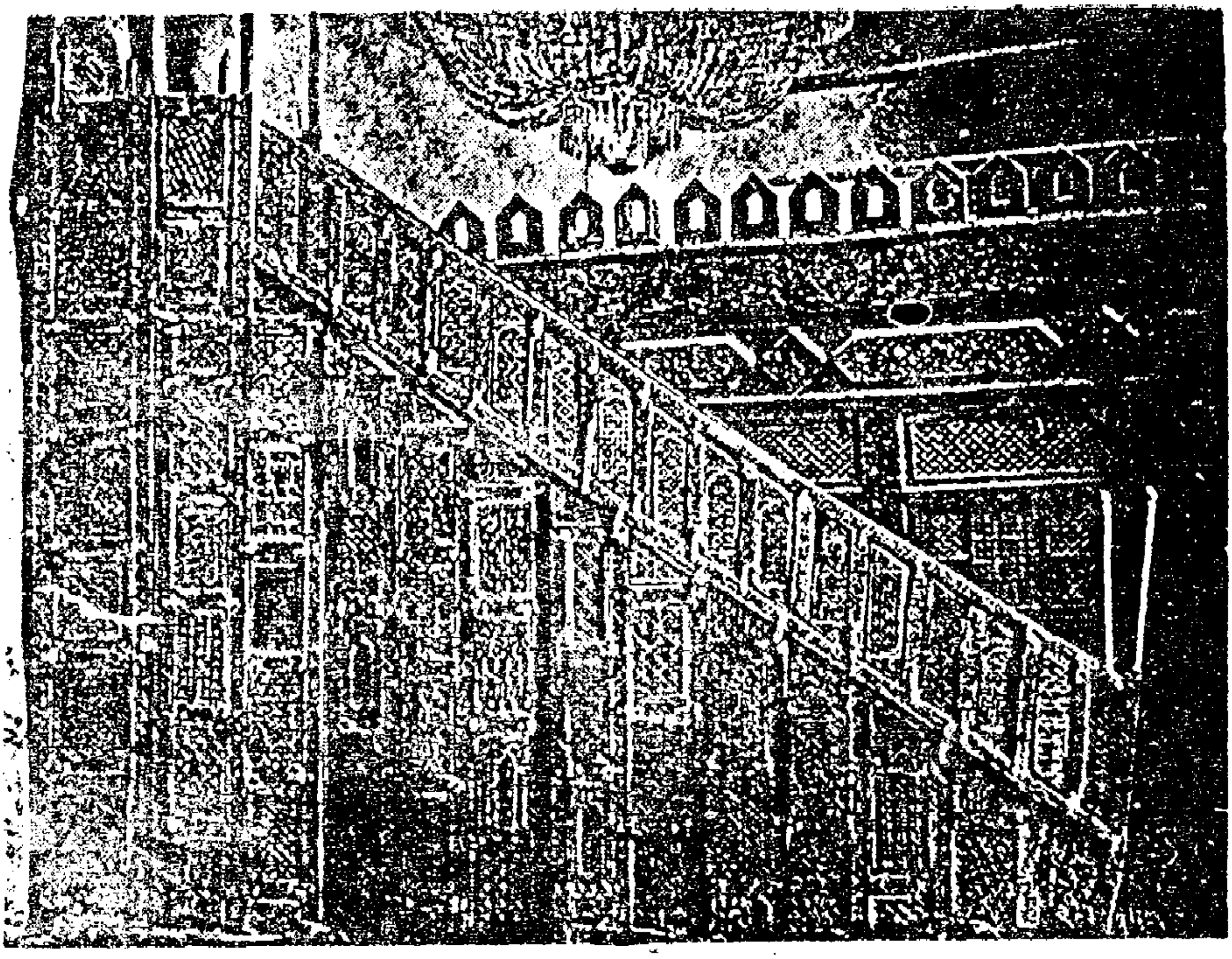


شكل (٤)
صحن من خزف في متحف اللوفر بباريس تزينه كتابة بالخط الكوفي
نصها «العلم اولة مر مذاقه لكن آخره احلى من العسل . السلامة» .



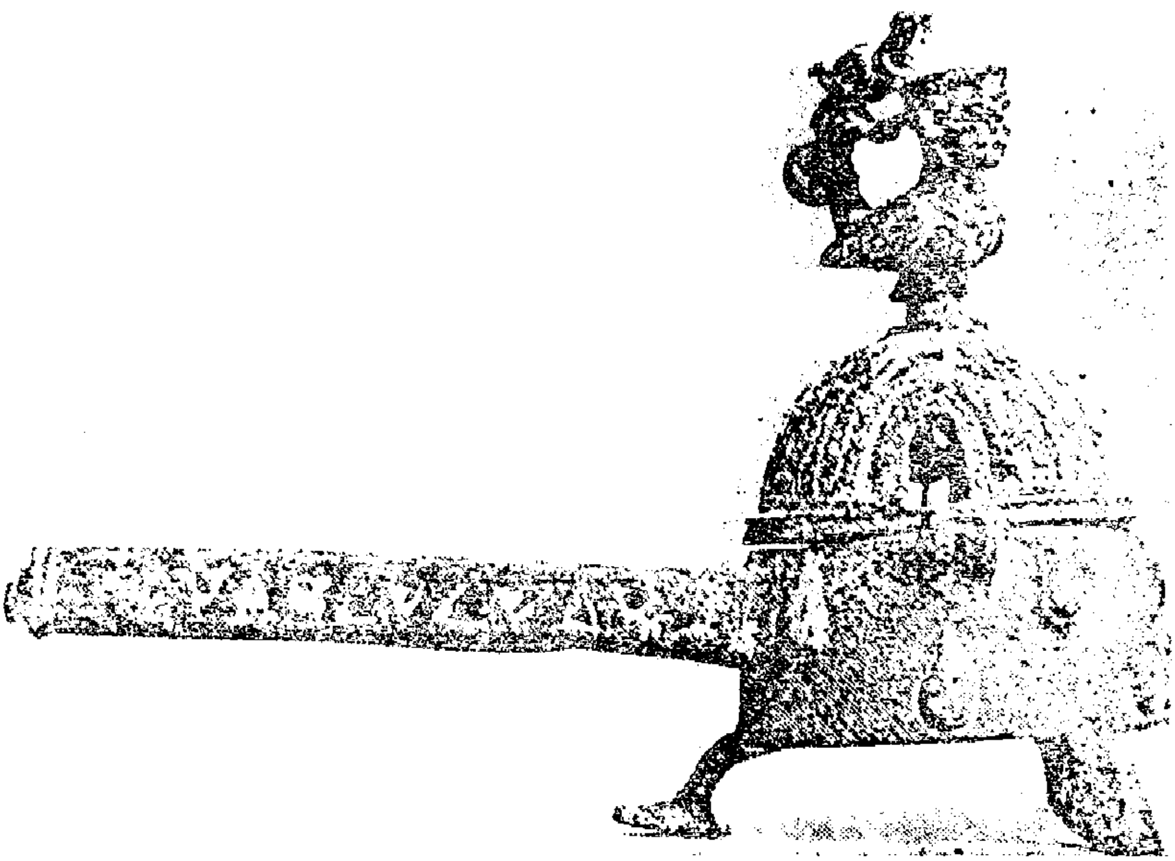
شكل (٥)

لوح من القاشاني من صناعة محمد الشامي في دمشق سنة ١١٢٩ هـ/ ١٧٢٧م في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة .

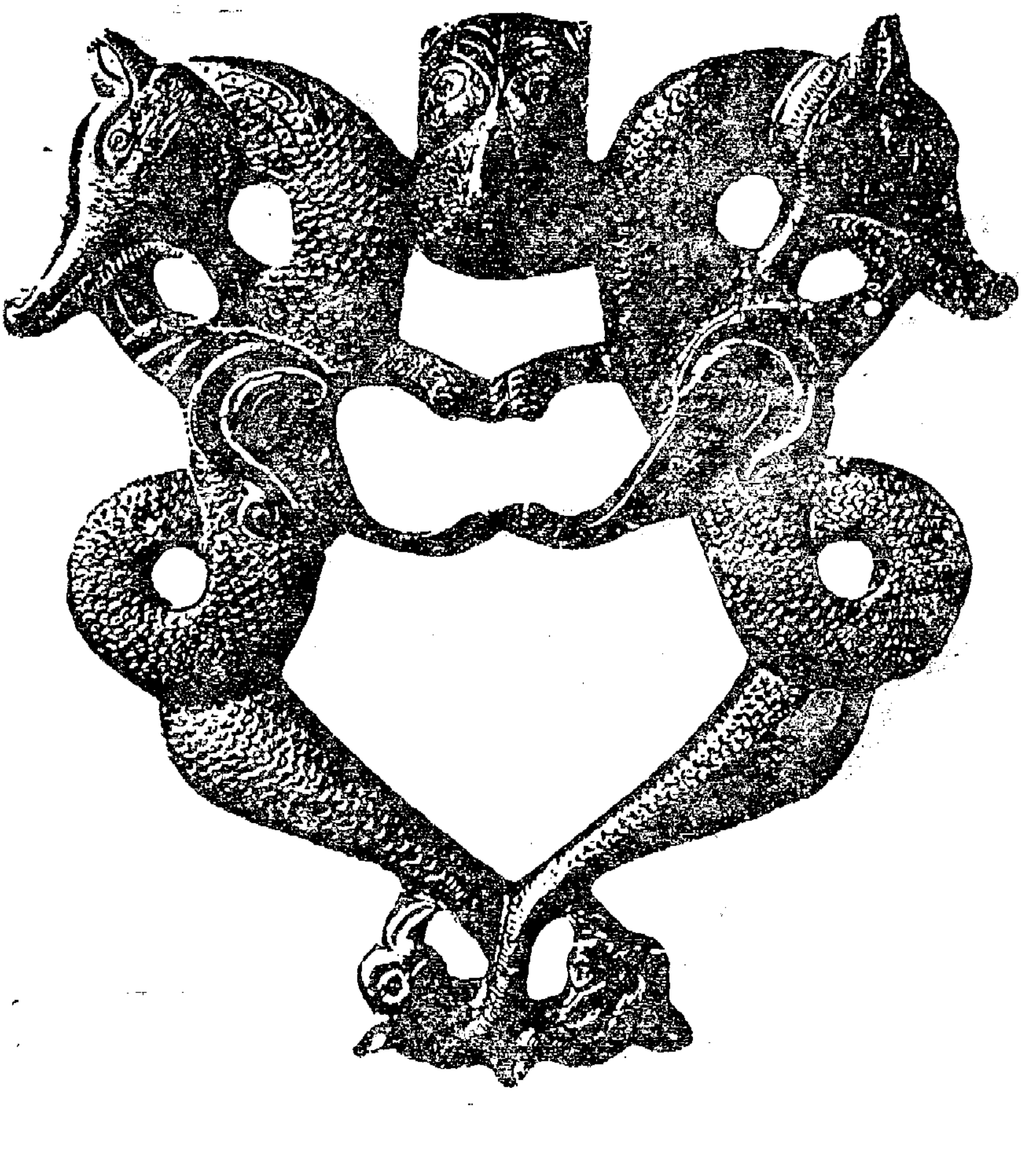


شكل (٦)

منبر جامع سيدي عقبة بالقيروان مصنوع من خشب يرجع تاريخه الى سنة ٢٤٢ ـ ٢٤٩ هـ/٨٥٦ ـ ٨٦٣ م ٠



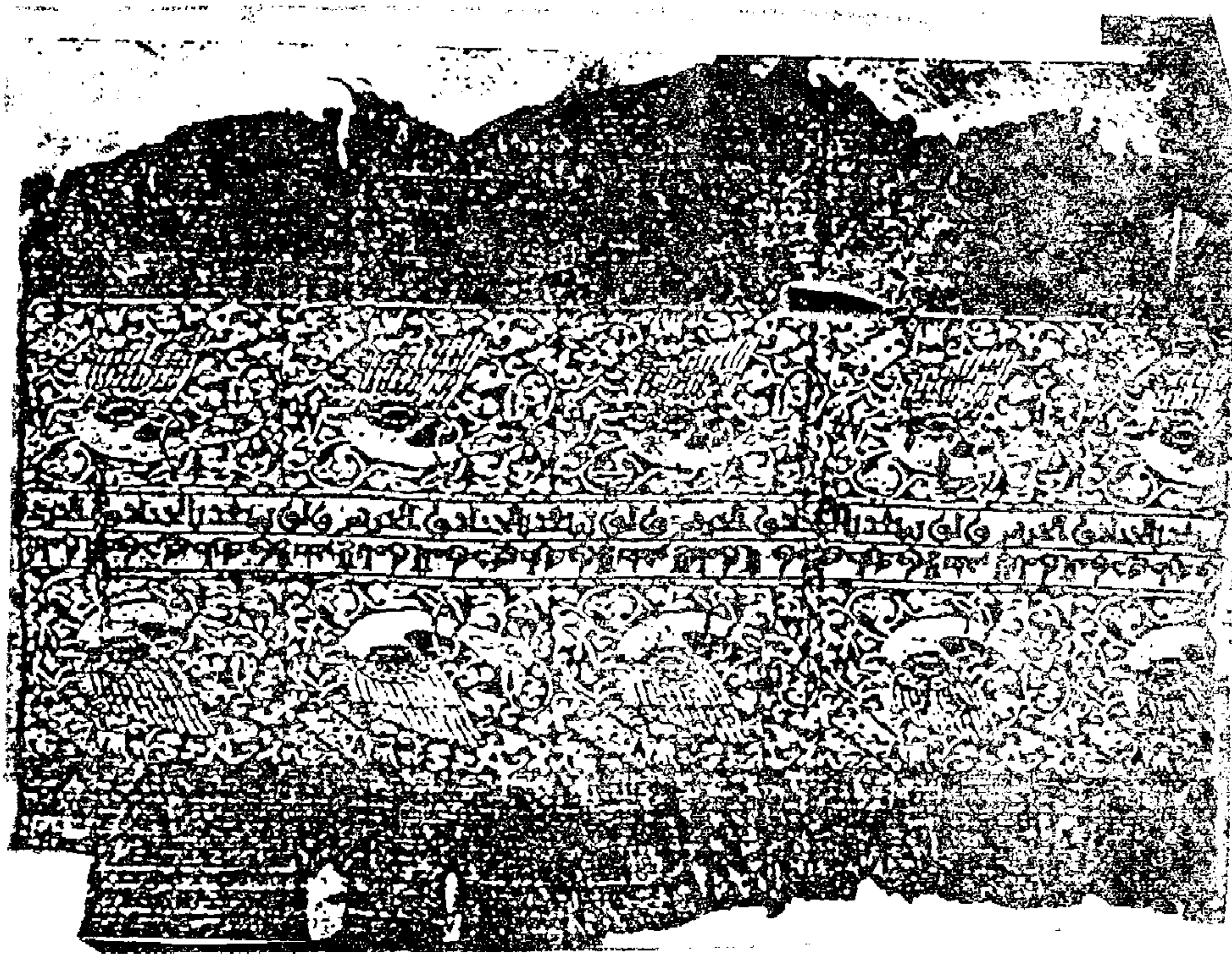
شكل (٧)
مبخرة من البرونز من القرن الخامس أو السادس الهجريين (الحادي عشر او الثاني عشر الميلاديين) في متحف برلين .



شكل (٨)
مطرقة باب من البرونز من العراق في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) في متحف برلين .



شكل (٩)
ابريق من النحاس المكفت بالفضة
صنع في الموصل بالعراق سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٥٢ م في المتحف البريطاني بلندن .



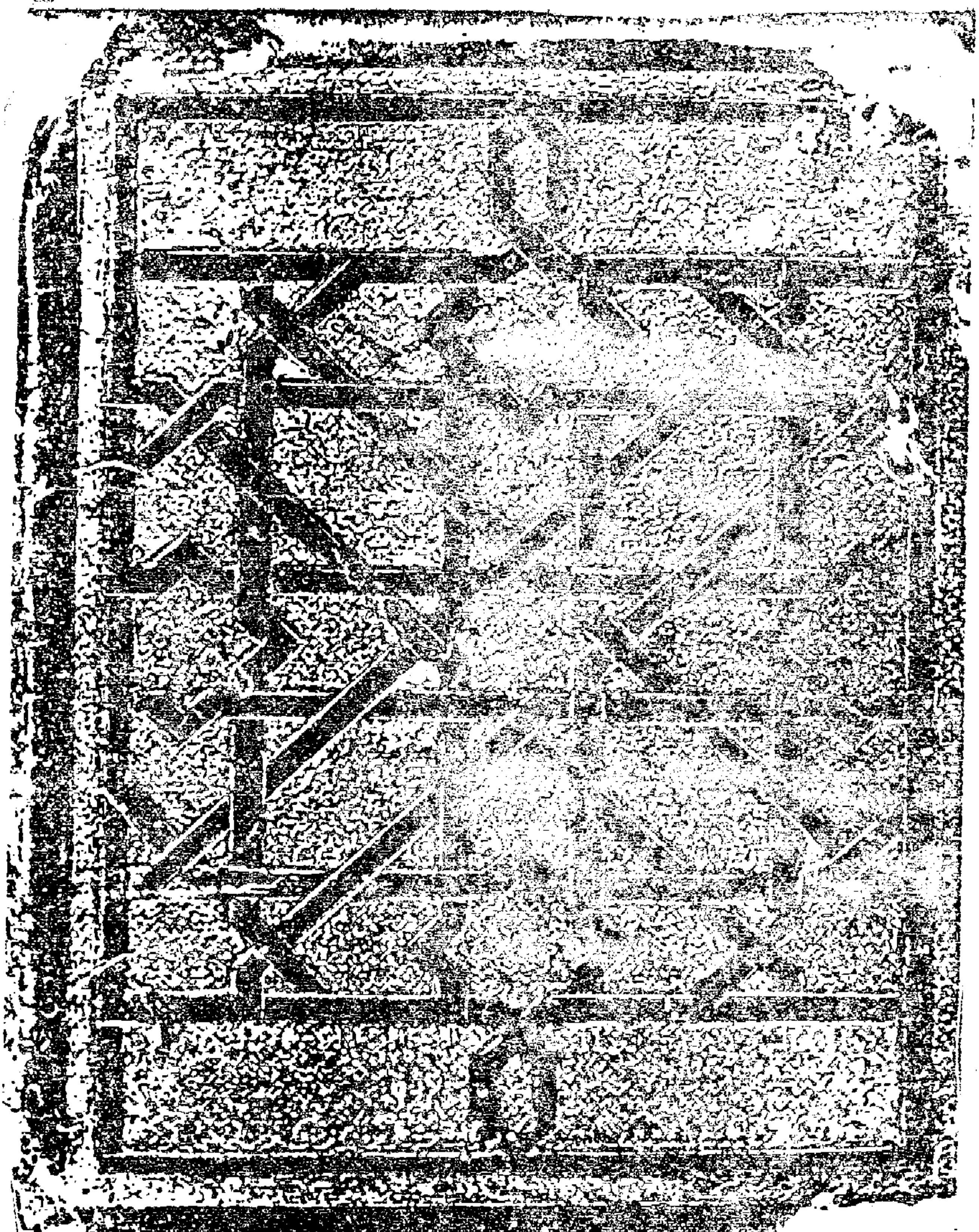
شكل (١٠)

قطعة من نسيج الحرير من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) من مجموعة راينو ٠



شكل (١١)

محبرة من الزجاج من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) في متحف برلين ٠



شكل (١٢)

جلد مصحف من مراكش في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) في مدرسة ابن يوسف بمدينة مراكش .

دراسات لوثائق عثمانية غير منشورة
كـوت الفرنجي
موطىء القدم الاولى في المخطط البريطاني لاحتـلال العـراق

د.مهدي جواد حبيب البستاني
استاذ التاريخ العثماني المساعد بالجامعة المستنصرية

يكشف في هذا البحث ، لأول مرة ، عن جانب مهم وخطير من المخطط البريطاني السري الهادف الى احكام وادامة النفوذ الأنكليزي في منطقـة الخليج العربي ، منذ العقد الأول من القرن التاسع عشر ، وتهيئة المقدمات النظرية والعملية للهيمنة على العـراق اقتصاديا وتوظيـف امكاناتـه الستراتيجية لضمان استمرار المصالح الحيوية البريطانية في المنطقة كمرحلة اولى ، واحتلاله عسكرياً في مرحلة لاحقة . كما يكشف من جانب آخر عن ضعف الدولة العثمانية من النواحي السياسية والعسكرية والستراتيجية ، وعجزه عن حماية حدودها ، والدفاع عن سيادتها ومصالحها المعرضة للخرق والأنتهاك باستمرار من قبل الدول الطامعة المجاورة كروسيا وايـران ، والبعيدة كانكلترة وفرنسا والمانيا ، وحتى من قبل القوى المحلية كالوهابيين والكعبيين والعمانيين والمنتفكيين والبابانيين وغيرهم .

ان اقدام شركة الهند الشرقيـة البريطانيـة وحكومتها في بومباي بالأستيلاء على قطعة أرض عراقية ، ذات موقع ستراتيجي مهم ، واتخاذهـا قاعدة عسكرية بحرية ، في غفلة من الأرادة العثمانية المحلية المركزيـة ، او بتجاهل مقصود منهما ناجم عن شعور بالمنف وحاجـة للمساومـة ، يعد انتهاكاً سافراً لسيادة الدولة العثمانية ، واختراقا خطيرا لأمن العراق الوطني . ومما يثير الدهشة والحيرة معا ، والسخرية كذلـك ، ان الباب

العالي كان اعجز من ان يتخذ موقفاً حازماً بالسيطرة على الموقع المذكور طيلة القرن التاسع عشر ، وحتى بعد افتضاح النوايا البريطانية المبيتة العسكرية والأستعمارية • وهكذا دار جـدل عقيم بـين الأدارة العثمانية والممثلين الدبلوماسيين البريطانيين في استنبول وبغداد والبصرة لغاية احتلال القوات العسكرية البريطانية العراق (١٩١٤ ـ ١٩١٧) ، واستخدامهم للقاعـدة المذكورة كموطىء قدم عسكرية لقوات الأحتلال ، ونقطة ارتباط وادامة طيلة الفترة المذكورة •

وعلى الرغم من اهمية هذه المسألة وخطورتها على أمن العراق ومستقبله، وتأثيرها على مسار الأحداث فيـه ، الا ان الدراسات والمؤلفات الأجنبيـة والعربيـة المكرسة في تاريخ البلد ، وتطورات الأحداث في ربوعه خلال القرن التاسع عشر ، والتي تيسر لي الأطلاع عليها ، لم تذكر شيئاً عنها من قريب او بعيد ، حتى ليخيل للقارىء انه امام مسألة هي اقرب للخيال منها الـى الحقيقة • ولكن يبدو ان هذه القاعدة كانت محاطة بستار كثيف من السرية التامة ، لدرجة انعدمت معها الأشارة اليها حتى في الوثائق البريطانية السرية التي سمح مؤخراً بنشرها •

لذا فان هذا البحث اعتمد اساساً على الوثائق العثمانية السريـة غير المنشورة المحفوظة في ارشيف «الباب العالي» في استنبول بتركيا ، المعروف بأسم «المديرية العامة لأرشيف رئاسة الوزراء» • وتمثل هـذه الوثائـق المراسلات الدائرة بين الصدارة وولاة بغداد ومتصرف ايالة البصرة معشوق باشا حول المسألة المذكورة التي اثيرت عن طريق الصدفـة ـ فيما يبدو ـ اثناء قيام الصدر الأعظم العثماني في «الباب العالي» بالأستفسار من والـي بغداد عن اسباب تردد بعض السفن الحربية البريطانية على ميناء البصرة بين حين وآخر[١] •

ويبدو للقارىء من خلال دراسة هذه الوثائق السرية ان متسلمي البصرة وولاة بغداد كانوا يضمنون تقاريرهم ومذكراتهم المرفوعة الى الصدارة بهذا الخصوص معلومات مبتسرة وغير دقيقة ، بل ومخالفة للحقيقة احياناً ، فيما يتعلق بموجودات القاعدة المذكورة واستخداماتها ، تتسم بالتساهل والتراخي والتهوين من خطورتها،ومحاولة اضفاء الصفة التجارية عليها ، وتجاهل صفتها العسكرية فهي في نظرهم عبارة عن مستودع للألواح الخشبية المستخدمة في احواض السفن ، والسكراب ، والفحم ليس الا . لذلك كانوا يطلقون على هذه القاعدة اسم «كراسته انبارس» ، اي «انبار الكراسته[٢]» .

وكان موقف الصدارة من هذا الموضوع يقترب من موقف المسؤولين المحليين فهو لم يكن حازماً وحاسماً ، بل اتصف بالاتكالية واللامبالاة . ويعود سبب هذه المواقف المتخاذلة لولاة الأمور في دوائر الدولة العثمانية المحلية والمركزية ، وتضامنهم ـ احياناً ـ مع مطالب الانكليز ومصالحهم . الى قناعاتهم الراسخة بتراكم التجربة ، بقوة تأثير السفارة البريطانية في اسطنبول على صانعي القرار السياسي والأداري في «الباب العالي» ، ذلك التأثير الذي اسقط السياسة العثمانية الداخلية والخارجية في دوامة لعبة توازن القوى الدولية الطامعة بممتلكات الرجل المريض .

بدأت العلاقات التجارية البريطانية مع البصرة في سنة ١٦٣٥ ، عندما ارسلت شركة الهند الشرقية احدى سفنها الى ذلك الميناء بحمولة صغيرة ذات صفة تجريبية لسوق البصرة . وبعد عشر سنوات من ذلك التاريخ نقلت الشركة المذكورة مركزها في بندر عباس الى البصرة ، بسبب تصاعد نشاط الهولنديين وملاحقتهم لتجارتها . ولم يكن لشركة الهند تمثيل دائم في البصرة حتى سنة ١٧٢٣ ، حيث تم تأسيس (مقيمية) تابعة لأشراف

الوكالة الانكليزية في بندر عباس . وعند اغلاق الوكالة في بندر عباس سنة ١٧٦٣ ، ارتقت (مقيمة) البصرة الى درجة وكالة ، وعهد اليها الأشراف على تجارة الشركة بالخليج العربي ، وبعد سنة واحدة تحولت هذه الوكالـــة التجارية الى قنصلية تتمتع بالحقوق الدبلوماسية والأمتيازات الأجنبية(٣) .

ثم اخذت تجارة البصرة بالأنكماش ، بسبب تصاعد نشاط اسـطول كعب ، وتعرض المدينة لكارثة الطاعون سنة ١٧٧٣ ، والغزو الفارســي ١٧٧٥ ـ ١٧٧٩ ، فتعطلت الحركة التجارية ، واغلق الانكليز وكالتهـــم وغادروا البصرة ، ومالبثوا ان عادوا اليها بعد انسحاب قوات صادق خان، وفتحوا مركزهم بدرجة (مقيمية) . وكانت اهمية هذه (المقيمية) تنطلق من وظيفتها كقاعدة لنقل البريد البريطاني من الهنـــد الى انكلترة وبالعكس ، واعتراض الرسائل الرسمية للفرنسيين والقاء القبض على وكلائهم ، اضافة لأشرافها على تنظيم التجارة البريطانية وتسهيلها في العـراق . واقتصـــر التمثيل البريطاني في العراق حتى اواخر القرن الثامن عشر على البصرة ، ولكن منذ عام ١٧٨٣ ، اصبح للمقيم في البصرة وكيل اهلي في بغـــداد . وانتقلت المقيمية الى الكوت لمدة سنتين (١٧٩٣ ـ ١٧٩٥) : بسبب خـلاف وقع بين المتسلم والمقيم صاموئيل مانيستي (١٧٨٤ ـ ١٨١٠)(٤) .

وعلى الرغم من الركود الذي اصاب التجارة البريطانيـــة في الخليج العربي في العقدين الأخير من القرن الثامن عشر ، الا ان اهميـة البصـــرة والخليج الستراتيجية بكونهما حلقة مهمة في مواصلات بريطانيا الى الهند ، وتأمينهما الطريق السريع والأكثر أمناً لنقل البريد من والى الهند ، جعلهما من المحاور الأساسية في السياســـة البريطانية فيما وراء البحار ، لاسيما بعد اندلاع الحرب مع فرنسا عام ١٧٩٣ ، والحملة الفرنسية علـى مصـــر (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) . لذا ابدت السلطات البريطانية في الهند اهتماماً متميزاً

بعلاقتها مع ولاية بغداد ومتسلمية (متصرفية) البصرة ، فعينت في عام ١٨٠٢ هارفورد جونز قنصلا لبريطانيا في بغداد وما حولها(٥) .

ومما ساعد على ، سرعة انتشار النفوذ البريطاني في العراق ، منذ مطلع القرن التاسع عشر ، شعور ولاة بغداد المماليك بحاجتهم الماسة الى دعم الأنكليز لهم في صراعهم مع الباب العالي من جهة ، ومع خصومهم المحليين ، وجيرانهم الفرس الطامعين بارض العراق من جهة اخرى . وهكذا ابدى الوالي علي باشا (١٨٠٢ ــ ١٨٠٧) ، على الرغم من خلافه مع هارفورد جونز الذي انتهى بمغادرة الأخير بغداد في ٦ شباط ١٨٠٦ ، صداقته للبريطانيين وتعهد للمقيم الجديد في بغداد ، جون هاين ، بانه «لن يضع ابة عراقيل في وجه الرسائل الرسمية المرسلة عبر الولاية» ، ولن ينفذ فرمان الباب العالي القاضي بمصادرة ممتلكات البريطانيين في الولاية ، كما وعد متسلم البصرة في مارت ١٨٠٧ المقيم مانيستي بالمحافظة على مصالح الأنكليز حتى في حال نشوب الحرب ، بين الدولة العثمانية وبريطانيا(٦) . وكان والي بغداد سليمان باشا الصغير (١٨٠٧ ــ ١٨١٠) .

على علاقة ودية مع الأنكليز ، ففي الوقت الذي كانت فيه العلاقات متوترة بين الباب العالي والحكومة البريطانية تعهد سليمان بحماية المقيم البريطاني ببغداد ووكيله بالبصرة . كما قوي مركز الأنكليز ونفوذهم بالعراق في عهد الوالي عبدالله باشا (١٨١٠ ــ ١٨١٣) ، الذي كان من مرشحي المقيم البريطاني لأرتقاء منصب الولاية بعد وفاة سليمان باشا الكبير(٧) ، ففي بداية حكمه كافأ شركة الهند على دعمها له ، فسمح لها ببناء قاعدة «كوت الفرنجي»(٨) ، وفي سنة ١٨١٢ استبدل لقب «المقيم البريطاني في بغداد» بلقب «الممثل الدبلوماسي البريطاني في تركيا العربية» يدل على اتساع نفوذ بريطانيا في هذه الديار(٩) .

ومن الأدلة المهمة التي كشفت عنها الوثائق البريطانية السرية ، والتي تفضح بجلاء النوايا الأستعمارية المبكرة المبيتة نحو العراق ، ماورد في تقرير جون مالكولم[١٠] الموجه في ١٢ آب ١٨٠٧ الى سكرتير الحاكم البريطاني العام في الهند ادمنستون . ففي مقدمة تقريره اشار مالكولم الى توقعه قرب نشوب الحرب بين الدولتين العثمانية والبريطانية ، ولذلك أكد ان «التقرير الصائب يمكن في الحصول على موطىء قدم ثابت في بلاد بين النهرين ، من اجل منع اي هجوم لقوة اوربية على الهند من ذلك القطاع ... ان كلا من فارس والدولة العثمانية ، يمكن اعتبارهما قوى حاجزة للهند البريطانية ، ... وعليه ، فأن على انكلترة ان تسلك سياسة من شأنها ان تساعد وتدعم تلك الدولتين او أن تسعى الى خلق وتقوية دول اخرى وصولا الى النتيجة» . كما نبه الى أمكانية فصل ولاية بغداد عن الباب العالي ، وتأسيس دولة مستقلة تضمن الحكومة البريطانية سلامتها وذكر ان النقطة الستراتيجية في تلك المنطقة هي القرنة ، موضع التقاء نهر دجلة بالفرات التي يمكن تحويلها الى قاعدة بريطانية تتمركز بها قوة عسكرية دائمية[١١] .

وبعد دراسة هذا التقرير عينت حكومة الهند كلوديوس جيمس ريج قنصلا لها في بغداد (١٨٠٨ ــ ١٨٢٢) . وكان ريج يجيد بعض اللغات الشرقية ، كالعربية والتركية والفارسية ، وبعض اللغات الأوربية ، كما كان تلميذاً وفياً لجون مالكولم في افكاره واساليبه السياسية ونزعته الأستعمارية[١٢] ، وهكذا وبعد عامين من عمله في بغداد افلح في الحصول في عام ١٨١٠ على قطعة ارض ستراتيجية «موطىء قدم» ، تقع على الضفة اليمنى لشط العرب ، في منطقة «ماركيل»[١٣] التي تبعد بمسافة خمسة كيلومترات عن قلعة البصرة اتخذوها بمثابة قاعدة بحرية صغيرة لهم،

واطلقوا عليها اسم «كوت الفرنجي»(١٤) . وكانت هذه القاعـــدة تستخدم لرسو السفن البريطانية التجارية والحربية وتقديم الخدمات لها ، من مواد احتياطية وتجهيزات مدنية وعسكرية ووقود ومؤونة طريق وماشابه ذلك . كما احتوت على مخازن ومستودعات لتجميع البضائع التجارية والمواد الأخرى وتوزيعها داخل العراق وخارجه .

والثابت ان شركة الهند الشرقية البريطانية هي التي تملكت هـــذا الموقع بصفة شخصية ، وأسست عليه منشآت ومخازن ضخمة بصورة سرية ، حتى تتجنب اثارة قلق الادارة العثمانية المحلية وشبهاتها ، وفي غفلة من الأدارة المركزية في الباب العالي .

وقد جرى اكتشاف الباب العالي لهذه القاعدة البحرية عن طريـــق الصدفة ، وذلك عندما نقلت اليه مصادره الأستخبارية . قيام عدد مـــن السفن الحربية البريطانية بدخول مياه شط العرب والتردد على ميناء البصرة بين وقت وآخر ، . بدون علم السلطات العثمانية او طلبها . ففـــي كتاب الصدارة الموجه الى والي بغداد نادر باشا (١٨٤٩ ــ ١٨٥٠) ذكر الصـــدر الأعظم انه استخبر بورود قطعة حربية بريطانية من نوع «بريف» الى البصرة، تحمل على ظهرها مئتي نفر من القوات الهندية ، مكثت هناك لمدة اربعـــة ايام ثم غادرت الى ميناء بوشهر الأيراني . وطلب منه اجـــراء التحقيقات الدقيقة للاجابة عن التساؤلات التالية : «هل نزل بعض الأشخاص من داخل السفينة المذكورة الى البر اثناء توقفها في ميناء البصرة ، وفي حال نزولهـــم هل سمع شيء منهم بخصوص مهمتهم ونواياهم ، وهل يوجد مايدل عـــلى مشاهدتهم في اماكن اخرى من الخليج ، والى اي مكان اتجهوا بعد ذلك؟» .

وبعد قيام نادر باشا باجراء التحقيقات السرية حول الموضوع اجاب الصدارة بمذكرته المؤرخة في ٢٤ شوال ١٢٦٥ هـ/١٢ ايلول ١٨٤٩م بان

الفرقاطة البريطانية «الفستون» قدمت الى البصرة من بوشهر ، منذ اربعة شهور من تاريخ تحرير المذكرة ، لأجل صيانتها في (انبار الكراسته) الموجود بجوار البصرة ، ولأستبدال المهمات القديمة . وبعد مكوثها هناك لمدة عشرين يوما أخذت المهمات والتجهيزات القديمة ، واتصلت بالباخرة البريطانية العاملة في نهر دجلة خلال رحلتها المعتادة من بغداد الى البصرة ثم عادت الى الهند . وأن بعض السفن الحربية العائدة لشركة الهند تتردد على خليج البصرة بمعدل رحلتين الى ثلاث رحلات سنويا ، وتقوم بزيارة ميناء البصرة كذلك . وان الغايه من ورود الفرقاطة «الفستون» هي استبدال المهمات القديمة المتراكمة في الأنبار المذكور بمهمات جديدة[١٥] .

وعند استعراض المعلومات التي تضمنتها هذه المذكرة في الصدارة ابدى الصدر الأعظم تعجبه من وجود «انبار الكراسته» ، واعتبره سابقة خطيرة تتطلب فتح تحقيق عاجل وحسم سريع ، فتقرر مكاتبة والي بغداد مجدداً لتقديم ايضاحاته بشأن عدة استفسارات وتساؤلات خطرت في ذهن الصدر الأعظم بخصوص المحل المسمى «انبار الكراسته» وهل هو مشغول من قبل شركة الهند عن طريق الأستئجار ام التمليك بالشراء ، وعن ماهية المهمات الموصوفة بالقديمة التي يحتويها ، والأسباب الحقيقية الكامنة وراء اتخاذ مثل هذا الانبار هناك ، ومنذ اي وقت بدأ الأنكليز باستخدام هذا الأنبار ، وهل كان تجوال السفن الحربية لشركة الهند في خليج البصرة بين آونة وأخرى عادة أتخذت منذ عهد قريب ، وما هو المعنى الذي يحمله هذا السلوك في تلك الأماكن ؟ وقد رفعت توصية الصدارة التي تتضمن هذه التساؤلات الى السلطان في الثاني من ذي الحجة ١٢٦٥هـ/١٩ تشرين الأول ١٨٤٩م للمصادقة عليها ، فصدرت المصادقة في الخامس منه[١٦] .

وهكذا ، وبعد مرور اربعين عاماً على تأسيس هذه القاعدة تنبه

المسؤولون في الباب العالي الى هـذه المسألة . وادركوا خطورتها بالنسبة للسيادة العثمانية على العراق ، حاضراً ومستقبلا ، فطلبوا من والي بغداد نادر باشا ومتصرف البصرة معشوق باشا موافاتهم بمعلومات مفصلة عن كيفية تسلل الأنكليز الى هذا الموقع ، وكيفية تصفية وجودهم فيه ·

ودارت ، بناء على ذلك ، مراسلات عديدة استغرقت ·· سنوات عديدة بين هذه الأطراف الثلاثة حول المسألة المذكورة وجدت من المفيد الكشف عنها واستعراضها حسب تسلسلها الزمني ، آملا تقديم صورة واضحة عن العقلية الأدارية العثمانية التي كانت تحكم العراق وتعبث بمقدراته ، وكيف فرطت بمصيره ومستقبله فيما بعد في مقدمة المذكرة الجوابية المؤرخة في ٢٩ ربيع الأول ١٢٦٦هـ/١٢ شباط ١٨٥٠ ، المرسلة الى الصدارة اشار والي بغداد نادر باشا الى مذكرته السابقة المتضمنة بعض المعلومات عن تجوال السفن الحربية البريطانية في خليج البصرة وترددها على «انبار الكراسته» في البصرة ، والى تسلمه الأمر العالي «امرنامه» المتضمن اجراء التحقيقات السرية وتقديم الأيضاحات والأجابات الدقيقة عن التساؤلات المذكورة اعلاه·

وبعد قيام نادر باشا بتحقيقات سرية واسعة اجاب الصدارة بأن الانبار المذكور عبارة عن موقع يطلق عليه الآن اسم «كوت الفرنجي» ، يبعد عن البصرة بمقدار مسافة ساعة ، تم تشييده قبل اربعين عاماً من تاريخ هذه المذكرة ، اي بحدود عام ١٨١٠ ، وانه في بداية تاسيسه كان عبارة عن محل صغير داخل بستان واسع تعود ملكيته الى وكيل المقيم البريطاني في البصرة ، ثم قام الوكيل المذكور ببيع البستان فقط على شيوخ المنتفك ، دون ان يشمل البيع موقع الانبار الذي بقي ملكاً له · وبعد مرور مدة قصيرة من الزمن اتخذه الوكيل البريطاني منتجعاً له ولعائلته يقيم فيه في الأيام الشديدة الحرارة ، ولأجل توسيع رقعته ـ من جديد ـ بحجة اتخاذه

منتجعاً لراحة موظفي شركة الهند وعوائلهم المقيمين بالبصرة والوافديـن عليها ، صار يشتري بين فترة واخرى قطعة من الأرض من مالكيها ـ مشايخ المنتفك ـ ويضمها اليه حتى تحول الى منتجع كبير وواسع جداً ·

وزاد على ذلك قوله : «ان السفن القادمة من الهند والحملة بالأمتعة ومختلف انواع البضائع والسلع اخذت تصل اليه اليوم ، وفي ايام الصيف يخرج وكيل قنصل انكلترة المقيم بالبصرة وعائلته الى المحل المذكور للتنزه وللراحة ، وان كل شخص يستطيع دخوله والتجوال فيه ، ولايوجد بداخله اي شيء يتعلق بالمهمات الحربية ، وانه ارسل مكلفاً خاصاً للتحقق من هذا الأمر ، وان عادة تردد سفن شركة الهند على خليج البصرة بدأت منذ تشغيل بواخر «بيت لنج» في نهر دجلة بين بغداد والبصرة ، وان تردد هذه السفن لايحمل لحد الآن اي معنى آخر ، اما المقصود بالمهمات العتيقة فهي الآلات والأدوات والأشياء الخاصة بالسفن والمتراكمة منذ سنوات عديدة فـي الأنبار المذكور»(١٧) ·

وكان والي بغداد قد طلب من متصرف البصرة معشوق باشا التحقق من محتويات هذا الانبار ، ومدى صحة الاخبار المروية عـن تردد السفن الحربية البريطانية عليه · فاجابه المتصرف بان المحل المذكور يعود الـى القنصلية البريطانية ، ونفى ان تكون بداخله اية مـواد او تجهيزات ذات صفة عسكرية مخلة بالسيادة العثمانية · كما ورد للمتصرف أمر مـن اسطنبول يتضمن توجيهات الصدارة اليه بعدم السماح بتكرار مثل هـذا العمل الخطير والتجاوز السافر ، ومراقبة تحركات الأنكليز وتصرفاتهـم ونواياهم بدقة ، والأخبار عن اي عمل من هذا القبيل حال حصوله مستقبلاً·

وفي سياق اجابته للصدارة ذكر معشوق باشا ان الأنكليز شيدوا قبل اربعين عاماً من تاريخ تحرير مذكرته ، وفي عهد والي بغداد المتوفي(١٨) سمحه

الله باشا (كذا) انبارا يبعد مسافة نصف ساعة عن جانب مدينة البصرة الأعلى ، واحاطوه بجدار سميك من مادة الـ «كربيج» ، واطلقوا عليه اسم «كوت الفرنجي» ، وهكذا اصبح محلا خاصاً بهم علاوة على مبنى «الوكالة» الأنكليزية داخل المدينة .

وعلى الرغم من ان معشوق باشا لم يؤكد صحة ماكان يروى عن تحول «كوت الفرنجي» الى «جبه خانه»(١٩) ، اي الى مايشبه القاعدة العسكرية ، الا انه كشف عن ممارسة أخرى خطرة وغير مشروعة كان يقوم بها موظفو شركة الهند ، تتمثل بتهريب البضائع والسلع التجارية من والى العراق ، بوساطة الباخرة البريطانية المستخدمة في النقل النهري بين بغداد والبصرة، والسفن البحرية البريطانية التي تتردد على «كوت الفرنجي» باستمرار لجلب الفحم المستخدم كوقود للباخرة النهرية والسفن البحرية المذكورة ، ونقل البريد من البصرة الى بومباي وبالعكس . فقد ذكر المومأ اليه ان (التكنات) التجارية البريطانية كانت ترد الى البصرة بين آونة واخرى ، وتقوم بتفريغ حمولتها من البضائع التجارية في «كوت الفرنجي» ، وتقوم الباخرة النهرية بنقل هذه البضائع من هناك الى بغداد وبالعكس ، وان اغلب هذه البضائع كانت السفن البريطانية تقوم باخراجها وتحميلها بصورة سرية ، وبدون علم سلطات الكمارك العثمانية ، فتعرضت موارد البلاد المالية الى التناقص ولحقت بها خسائر واضرار فادحة من جراء ذلك النشاط غير المشروع الذي مارسه الأنكليز في المنطقة . وأخيراً طلب معشوق باشا ان تبعث اليه الصدارة بتوجيهاتها بخصوص مايجب اتخاذه من تدابير واجراءات لمنع عمليات التهريب ، ووعد من جانبه بالعمل على منع تكرار حدوث اية حال مشابهه لما تقدم ، وكذلك مراقبة تحركات السفن الأجنبية بكل دقة واهتمام، والأخبار عن ذلك حال وقوعه(٢٠) .

ناقشت الصدارة في ١٣ ذي القعدة ١٢٦٦ هـ/ ٢٠ ايلول ١٨٥٠م منشأ هذه المسألة وكيفية معالجتها في ضوء المعلومات التي تضمنتها مذكرة معشوق باشا الجوابية ، فوجدت ان خطورة المسألة لاتكمن فيما اذا كان الموقع المذكور يحتوي على مهمات حربية او يقتصر على تخزين المواد والأجهزة القديمة الخاصة بالسفن التجارية فحسب ، وانما تكمن في وجود هذا الموقع بالذات ولأي غرض من الأغراض باعتباره يشكل اختراقاً لأمن العراق وانتهاكاً للسيادة العثمانية . وكعادة الأدارة العاجزة القى وكلاء الصدارة اللوم على من سبقهم ، وحملوا ولاة بغداد المماليك مسؤولية ذلك ، فاعتبن ادارتهم بالتسيب والتشتت وعدم التقيد بالمصلحة العامة للدولة .

ويتضح عجز الأدارة العثمانية في طريقة معالجتها لهذه المسألة الخطيرة، والنتائج الأكثر خطورة التي ترتبت على هذه المعالجة . فهي لم تكن قادرة على اتخاذ قرار جريء وحاسم بغلق قاعدة «كوت الفرنجي» وازالتها من الوجود ، او السيطرة عليها والأستفادة منها لتقديم الخدمات والتسهيلات لأسطول البصرة المزمع تعزيزه وتقويته ، وانما توصلت الى قناعة مفادها عدم جدوى اتخاذ قرار برفعها في الحال ، فقررت اتخاذ التدابير والأجراءات التالية ، وأمرت متصرف البصرة بتنفيذها بكل دقة :

١ ـ منع الأنكليز من القيام بأي عمل يؤدي الى توسيع القاعدة وتحصينها ، ومراقبة ذلك بدقة ليلا ونهاراً .

٢ ـ مراقبة المواد والأشياء الداخلة للقاعدة والخارجة منها ، واخبار الصدارة في الحال اذا ما تضمنت امتعة وبضائع تجارية او تجهيزات حربية. والتشاور معه بخصوص مايجب اتخاذه من تدابير مشتركة لرفع العذر

كما طلبت من والي بغداد استدعاء القنصل البريطاني في بغداد الناجم عن عمليات التهريب ، والبحث عن طريقة مناسبة لشراء الانبار المذكور(٢١) .

تنفيذاً لتعليمات الصدارة التي وردت اعلاه ارسل متصرف البصرة معشوق باشا المدعو يونس افندي ، وهو احد ضباط هيئة الأركان الحربية المرافقين للمندوب العثماني في لجنة تحديد الحدود مع ايران درويش باشا ، الى موقع الانبار للأطلاع على هيئته ووضعيته ميدانيا[٢٢] . فقام يونس افندي بزيارة «كوت الفرنجي» في ٢٨ ربيع الأول ١٢٦٧هـ/كانون الثاني ١٨٥١ م ، واطلع على اقسامها ومحتوياتها ، ورسم صورة مجسمة[٢٣] لها تكشف عن ضخامة بنائها وتحدد موقعها بدقة ، كما رسم لها خارطة تخطيطية[٢٤] ايضاً كشف فيها عن احتوائها على تجهيزات عسكرية ومدافع، مما يدل على ان هذا الموقع هو اقرب الى القاعدة البحرية العسكرية منه الى مجمع «انبار» للخشب والسكراب والمواد الأحتياطية ، كما يحاول الأنكليز تصويره في اذهان المسؤولين الأتراك في الباب العالي .. تمويهاً وخداعاً وتضليلا ، بل واستخفافاً بالعقل الأداري التركي .

وقد عزا الأنكليز وجود المدافع في «كوت الفرنجي» الى أنها جلبت من الهند في فترات سابقة لاجل بيعها ، وعند عدم حصول البيع حفظت هناك . اما التجهيزات العسكرية «جبخانه» فأن وجود كميات كبيرة منها مخزونة في الانبار ، يعود لحساب باخرة «بيت لنج» العاملة في نهر دجلة[٢٥] .

اورد معشوق باشا في تقريره المرسل الى الصدارة في ٧ جمادى الاولى ١٢٦٧هـ/١٠ مارت ١٨٥١م معلومات مفصلة نسبياً عن كيفية تملك الأنكليز موقع «كوت الفرنجي» ، فذكر ان الذي قام ببناء الأنبار المذكور هو وكيل القنصل البريطاني بالبصرة مستر تيلر ، الذي اصبح فيما بعد قنصل بريطانيا في بغداد ، واثناء عودته الى انكلترة بعد انتهاء مهام عمله في بغداد، وخلال مروره بالبصرة باع مسكنه داخل المدينة وبستان النخيل العائد له والممتد بجوارها الى خلفه في (وكالة) البصرة المدعو بارسنيج . اما الانبار

فقد باعه بثمن غير معروف على احد التجار الأنكليز المقيمين ببغداد ، ويدعى مستر لنج ، وذلك لعدم ظهور راغب بشرائه لعدم فائدتـــــه للتمليك الشخصي ـ على حد رواية معشوق باشا ٠

واضاف ، ان عائلة لنج تتألف من سبعة او ثمانية(٢٦) اشقاء ، يعمل أكبرهم آمراً بالبحرية البريطانية في لندن ، ويعمل اصغرهلا قائداً للباخرة البريطانية العاملة في نهر دجلة ، وقد تزوج من كريمة تيلر ، ثم انتقـل الى بمباي ٠ واستمر اثنان من اخوته يعملان بالتجارة في بغداد ، ويديران شركة «بيت لنج» (٢٧) ٠ وانتقلت ملكية الانبار اليهما ٠ ومن الجدير بالذكر هنا الأشارة الى ان الساسة البريطانيين انتابتهم مشاعر مفعمـة بالخوف والقلق من مخاطر تزايد النفوذ الروسي في ايران ، وأحتمال أمتداده الـى الخليج العربي والعراق ، مما يهدد خطوط مواصلات بريطانيا الى مستعمراتها بالهنـد ، وما يرتبط بها من مصالح حيويـة ستراتيجية واقتصاديـــة ٠ لذا سارعت شركة الهند الشرقية الى دراسة وتنفيذ مشروع خطير في أواخر العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، يتمثل بايجاد طريـــق للمواصلات سريع وقليل التكاليف وأكثر أمناً عبر نهر الفرات وواديه ٠ فعهدت الـى الضابـــط فرانسيس راودن جسني

القيام باعمال المسح والتحريات والدراسات الميدانية عن هذا الطريــــق (١٨٣٠ ـ ١٨٣٩) وعن المنطقة التي يمر بها من جوانبها كافة ٠ واستخدم جسني في رحلته الاستكشافية باخرتين ، غرقت احداهما قرب (عنه) بسبب عاصفة شديدة (١٨٣٥) ، وكانت تسمى «دجلة» ، واستمرت الثانية فـــي مهمتها ، وكانت تسمى «فرات» حتى نهاية الرحلة في عام ١٨٣٧ ، وتسلم قيادتها احد مساعديه المدعو هنري بلوس لنج

الذي واصل عمليات المسح والتحري في نهـــر دجلـــة وشـــط العـرب (١٨٣٧ ـ ١٨٣٩) ٠

وقام هنري لنج مع اخيه توماس كارلنج

وبعض[٢٨] افراد عائلتهما في عام ١٨٤٠ بتأسيس بيت تجاري في بغداد عرف بـ «بيت لنج» ، اتسع نشاطه التجاري والملاحي خلال فترة قصيرة ، فتم تأسيس شركة عرفت بأسم «شركة لنج للملاحة البخارية في دجلة والفرات»· امتلكت هذه الشركة الباخرة «فرات» وباخرة اخرى جديدة جلبت من الهند تدعى «نيتوكريس» ، كانت تشاهد راسية باستمرار امـــام القنصليـــة البريطانية في بغداد ، ثم استبدلت بباخرة أخرى اسمها «كوميت» · وكانت اعمال المسح ورسم الخرائط وجمع المعلومات الأستخبارية خلال هذه الفترة نشطة ومتواصلة ، باشراف لنج وفيلكس جونـــز وسيلبـــي وكوليذخودد وبيوشر · ولايخفى ان هذه الأعمال كانت تمهيداً لاحتلال العراق عسكرياً في الوقت الذي تراه بريطانيا[٢٩] مناسباً ·

نعود الآن الى مواصلة استعراض ماورد في تقرير معشوق باشا مـــن معلومات بخصوص كيفية انتقال ملكية «كوت الفرنجي» الى الأنكليز ، حيث اشار الى مرور احد الأخوين بالبصرة في طريقه الى ميناء بوشهر ، وبعـــد قضاء مصالحه هناك عاد الى البصرة ، فأرسل اليه احد موظفيـــه للترحيب به واظهار الود نحوه · وفي اليوم التالي اصطحب لنج الوكيل بارسمنج في زيارة مجاملة للمتصرف ، ثم عاد الى بغداد · وبعد يومين ارســـل المتصرف مندوباً خاصاً عنه الى وكيل القنصل ، وخلال مذكرة مختلف المصالح معـــه اشار المندوب الى نية المتصرف في بناء انبار مناسب لحفظ ادوات ومتعلقات مختلف السفن العثمانية والباخرتين المقرر ارسالها الى البصرة ، وغـــرف وقاعات لآمري وضباط القوات البحرية ومراتبها ، ومبنى للحجز الصحي «قرنتنه خانه» · وبمقتضى ميله ومحبته لهم فانه راغـــب في شـــراء الانبار المذكور في حالة اقدام لنج على بيعه ــ كما كان ينوي سابقاً ــ بسعر مناسب

مقارنة بعملية بناء انبار مماثل من قبل المتصرفية وحصول موافقة الصدارة على ذلك . فافاد بارسنج انه سينقل رغبة المتصرف الى لنج ، وسوف يوافقه باجابته حال ورودها .

واستناداً الى رواية بارسنج فان ملكية الانبار لاتعود الى الأخوين الموجودين في بغداد فقط ، وانما تعود اكبر الحصص الى اخيهم الأكبر المقيم بلندن مما يجعل عملية البيع لاتتم الا بمفاتحته والحصول على موافقة ، ودعى انه طلب منهما مراسلة اخيهم حول الموضوع .

وخلال تبادل اطراف الحديث بين الجانبين استفسر بارسنج من المتصرف عن امكانية السماح له ببناء انبار جديد لخزن الأدوات والفحم المستخدم في تشغيل الباخرة العاملة حينذاك في نهر دجلة حالة انتقل ملكية الانبار موضوع البحث للادارة العثمانية . فأجابه المتصرف بعدم وجود حاجة ماسة لذلك ، نظراً لسعة الانبار بهيئته الحالية ، فان بامكانهم ابقاء الفحم والأدوات باماكنها الخاصة بها مقابل بدل ايجار زهيد ، وبذلك يتخلصون من نفقات بناء انبار جديد ، وتنتفي الحاجة للحراس ، اذ في حال بيعه بثمن مناسب ستقوم البحرية العثمانية التي ستشغله بالمحافظة على موجوداتهم فيه . وقد تظاهر بارسنج بالأقتناع بما طرحه المتصرف .

يبدو ان وكيل القنصل الأنكليزي بارسنج اراد ان يكتشف بدبلوماسية حاذقة موقف الأدارة العثمانية من هذه المسألة ، فكان جواب المتصرف يفتقر الى النباهة والذكاء .

وفي ختام تقريره اشار معشوق باشا الى صلاحية «انبار الكراسته» لتمركز قوات البصرة البحرية ، وحفظ معداتها وتجهيزاتها ، واتخاذه مركزاً للحجر الصحي عند اقتضاء الضرورة ، زيادة على ذلك فان تحريره من السيطرة الأجنبية ، وانزال علم انكلترة ، ورفع العلم العثماني بمكانه

ستكون له اثاره الأيجابية بالنسبة للسيادة العثمانية في هذه الأيالة المؤلفة من عدة تجمعات واتحادات عشائرية[٣٠] عربية ٠ وبناء على وجود مالكي الانبار في بغداد (عائلة لنج) طلب معشوق باشا تكليف والي بغداد وجيهي باشا ، في حالة وصوله وتسنمه مهام منصبه الجديد في بغداد ، او تكليف مدير مال الولاية «دفتر دار» بمتابعة مسألة شراء الأنبار المذكــور مــن مالكيــه[٣١] ٠

وبعد مناقشة هذا التقرير في الصدارة في ٨ رجب ١٢٦٧هـ/٩ مايس ١٨٥١م تقرر استحسان الطريقة التي اتبعها المتصرف في معالجة هــذه المسالة ! وطلبت منه مواصلة جهوده بحكمة وروية لانتزاع الانبار من ايادي الأنكليز ، كما طلبت من والي بغداد وجيهي باشا العمل بنفس الأتجاه[٣٢]٠ فصدرت الاوامر اليهما بتاريخ ١٧ رجب ١٢٦٧هـ/١٨ مايس ١٨٥١م ٠ (٣٣)

وفي مذكرة اخرى تحمل تاريخ التقرير السابق نفسه اشار معشوق باشا الى قيام المستر تيلر وكيل القنصل البريطاني بالبصـرة ببناء الانبار المسمى «كوت الفرنجي» لأجل خزن ماتحتاجه السفن الأنكليزية من مهمات ومواد احتياطية اثناء وصولها الى البصرة ، وانتقال ملكيته الى عائلة لنج ، التي ذكر انها مكونة من اربعة اشقاء في حين حدد عددهم بـ ٧ ــ ٨ اشقاء في التقرير المشار اليه اعلاه ، واتصالاته مع الوكيل بارسنج بشأن شـــراء الانبار المذكور ٠ والجديد في هذه المذكرة هو اشارته الى انتشار الكوليرا في العام (١٨٥١) ووفاة بارسنغ من جراء ذلك وعودة لنج الى بغداد ، ومن اجل متابعة هذا الموضوع في بغداد ارسل معشوق باشا نسخة من امــر الصدارة المذكور اعلاه الى الوالي وجيهي باشا مع مذكرة توضيحية عــن تطورات الموضوع[٣٤] ٠

اما الصدارة فانها ناقشت هذه المسالة مجدداً بتاريخ ١٩ شـــوال

١٢٦٧هـ/١٧ آب ١٨٥١م في ضوء مذكرة معشوق باشا الأخيرة ، وقررت اشعار والي بغداد والتأكيد عليه بضرورة العمل بكل جديسة لشراء الانبار بالوسائل الودية(٣٥) ٠

وفي الوقت الذي كان فيه المسؤولون الأتراك في البصرة وبغداد واسطنبول يتبادلون الكتب الرسمية حول كيفية تملك الانكليز موقع «كوت الفرنجي» ، والتدابير التي ينبغي اتخاذها لتسوية هذه المسألة كان بارسنج جاداً ومصمماً على توسيع وتحصين المنشآت الموجودة في الموقع ، بناء على توجيهات مركزية من حكومته في الهند ، فكان مثابراً على جلب الآلات والمواد اللازمة ، وجمعها ، وحفر الأسس المطلوبة للبناء بغاية السرية٠ فتم الأنتهاء من تشييد هذه المنشآت في اواخر مايس ١٨٥١ ٠ وادعى المتصرف معشوق باشا انه علم بهذه التطورات فيما بعد ، فأرسل مندوباً عنه الى الموقع للكشف والمعاينة الميدانية ، فاتضح له ان الأسس المشيدة حديثاً موضوعة لمنشآت اوسع وأمتن من الأنبار القديم ٠

نظراً لما تشكله هذه التطورات من مخاطر ومضار جسيمة على مصلحة الدولة العثمانية زعم المتصرف المذكور في تقريره المرسل الى الصدارة في ٢٩ شعبان ١٢٦٧هـ/٢٩ حزيران ١٨٥١م انه قام في الحال بتعطيل اعمال البناء في الموقع موضوع البحث ، واستدعى الوكيل بارسنج وافهمه ان تشييد مثل هذه المنشآت يستلزم الحصول على موافقة مسبقة للشروع بالعمل ، ويقتضي بدءاً اخباره بالأمر ، كما ان الحصول على موافقة المراجع العليا لبناء مثل هذا السور المرتفع والسميك ، والمنشآت الضخمة الأخرى يتطلب تقديم مبررات مقنعة بما يعزز العلاقات الودية بينهما ، وبكونه بادر الى القيام بهذا العمل من طرف واحد وبدون حصول موافقة المراجع العثمانية، ولما يترتب على ذلك من مسؤولية ، فانه كان لزاماً عليه الأقدام على منع

العمال من مواصلة اعمال البناء ·

اما وكيل القنصل فانه أصبح في وضع محرج للغاية ـ على حد رواية المتصرف ـ فتفوه ببعض كلمات المجاملة ، وبدأ في الظاهر وكأنه أفحم او اسكت ·

واضاف معشوق باشا ، استناداً الى استخباراته ، ان بارسنج كتب تقريراً مفصلا بالموضوع الى القنصل البريطاني في بغداد ، ليطلع بدوره سفيره في اسطنبول · ولكن حصول وفاة بارسنج بسبب اصابته بوباء الكوليرا جعلت متصرف البصرة يعتقد ان المنازعة بين الطرفين قد انتهت الى هذا الحد(٣٦) ·

وفي الباب العالي وجد المسؤولون ان تطور المسألة للحد المبين اعلاه سوف يلحق الضرر بمصلحة الدولة ، لذا تقرر التأكيد بشدة بان لايسمح متصرف البصرة لكائن من كان ان يقوم بمثل هذا العمل في المستقبل !وكان ذلك بتاريخ الاول من ذي الحجة ١٢٦٧هـ/٢٧ تشرين الثاني ١٨٥١م(٣٧)·

والى هنا اسدل الستار على هذه المسألة ولم نعثر على وثيقة أخرى تتحدث او تشير اليها من قريب او بعيد ، مما يدل على ان الدولة العثمانية كانت غير قادرة على حسم الموضوع لصالحها ، وذلك لحاجتها ـ فيما يبدو لمساندة بريطانيا في نزاعها مع ايران ، حيث كانت تدور بينهما مباحثات ومفاوضات طويلة ومضنية من خلال لجنة تحديد الحدود الدولية ، بمشاركة انكلترة وروسيا ، من اجل ترسيم الحدود ووضع حد النزاع بين الدولتين·

---

(١) ارشيف «الباب العالي» في اسطنبول ـ تركيا (المديرية العامة لارشيف رئاسة الوزراء) : ارادة/خارجية ، رقم الوثيقة ٢٨٠٤ ، لف ١٠

(٢) انبار : واحدها «نبر» ، ويجمع على «انابير» جمع الجمع · من معانيه الواردة في القواميس والمعجمات العربية : اكداس الطعام ، بيت التاجر الذي ينعند فيه متاعه ، مواضع معروفة بين الريف والبر ·

ينظر : ابن منظور : لسان العرب (بيروت ، دار صادر) ــ نبر ــ ٥/١٩٠ • محمد مرتضى الزبيدي : تاج العروس ، (بيروت ، ١٩٦٦) ــ نبر ــ ٣/٥٥٣ وفي القواميس التركية : المحل المخصوص لوضع الذخيرة وحفظها وما شابه ، مخزن او مغازة او محل مخصوص لوضع الامتعة وحفظها وماشابه ، المكان المخصص لوضع حمولة السفن ، الطوابق الحاوية على المدافع في السفن الحربية • ينظر : شمس‌الدين سامي : قاموس تركي ، (استانبول ، ١٣١٧ هـ) ، ص٥٦ ، ١٧١ •
كراسته ، او كرستة : كلمة فارسية مستخدمة في اللغة التركية تعني: انواع الأخشاب المستعملة في البناء ، الواح واعمدة الخشب وماشابه، المواد المستعملة في صناعة انواع المعمولات • ينظر شمس الدين سامي المصدر السابق ، ص١١٥٤ •

(٣) جون غوردون لوريمر : دليل الخليج ، القسم التاريخي ، (ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر جـ١ ١٩٦٧) د•زكي صالح : بريطانيا حتى عام ١٩١٤ ، (بغداد ، ١٩٦٨) ، ص٧٩ ــ ٨٢ • د•صالح محمد العابد : موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨ ــ ١٨١٠ (بغداد ، ١٩٧٩) ، ص ٤٥ ــ ٤٧ • د• ابراهيم شريف : الشرق الأوسط (دراسة لأتجاهات سياسية الاستعمار حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق) ،(بغداد ، ١٩٦٥) ، ص٥٧ •

(٤) د•صالح العابد : المصدر السابق ، ص٥٠ ــ ٥٥ •

(٥) د•زكي صالح : المصدر السابق ، ص٨١ •

(٦) د•صالح العابد : المصدر السابق ، ص٢٢٢ ــ ٢٢٣ •

(٧) ستيفن هيمسلي لونكريك : اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة جعفر خياط (بغداد ، ١٩٦٢) ، ص٢٢٧ • د•زكي صالح : المصدر السابق ، ص١٢٨ ــ ١٣١ •

(٨) ارشيف الباب العالي في استنبول :
ارادة/خارجية ، رقم الوثيقة ٣٧٢٧ ، لف ٢ •

(٩) د•زكي صالح : المصدر السابق ، ص١٣٠ ــ ١٣١ •

(١٠) جون مالكولم : سياسي انكليزي من اتباع مدرسة الهند السياسية الأستعمارية ، كان يشغل حينذاك منصب المقيم البرلماني في مقاطعة ميسور بالهند ، يعد من افضل الخبراء والمستشاري في شؤون الخليج العربي ، ومن افضل العاملين على ترسيخ نفوذ ومصالح بريطانيا في المنطقة المذكورة • ينظر : د• عبدالعزيز سليمان نوار: داود باشا والي بغداد ، (القاهرة ، ١٩٦٧) ، ص١٩٥ • حاشية (١) • د• صالح العابد : المصدر السابق ، ص ٢٢٥ ــ ٢٢٦ •

(١١) د٠ صالح : المصدر السابق ، ص٢٢٦ ٠
(١٢) كلوديوس جيمس ريج : رحلة ريج في العراق (١٨٢٠) ، ترجمة بهاء الدين (بغداد ، ١٩٥١) ، ص٣٦ ٠ د٠ عبدالعزيز نوار : المصدر السابق ، ص١٩٨ ـ ٢٠١ ٠ لونكريك : المصدر السابق ، ص٢٥٦ ـ ٢٥٧ ٠
(١٠) ارشيف الباب العالي : ارادة/خارجية ، رقم الوثيقة ٣٣٢٧ ، لف٢، خارطة «كوت الفرنجي» ، رسم يونس افندي بتاريخ ٢٨ ربيع الاول سنة ١٢٦٧ هـ/٣١ كانون الثاني م ٠
(١٤) «كوت» كلمة تطلق على المكان الواقع على شاطىء نهر او ساحل بحر، ويكون هذا المكان صالحا لرسو السفن ٠ وقد ترددت هذه الكلمة عدة مرات في جنوب العراق ومنطقة الخليج العربي ، ومثال ذلك : كوت الهوامش ، كوت الشيخ ، كوت الامارة ٠ اما «الفرنجي» فهي تعني الانكليز او الاوربيين ٠
(١٥) ارشيف الباب العالي : ارادة/خارجية ، رقم ٢٨٠٤ ، لف١ ، (من والي بغداد عبدالكريم نادر باشا الى الصدارة ، ٢٠ شوال ١٢٦٥ هـ/١٢ ايلول ١٨٤٩ م) ٠
(١٦) المصدر السابق : رقم الوثيقه ٢٨٠٤ ، لف١ (مذكرة الصدارة الى السلطان ، ٢ ذي الحجه ١٢٦٥هـ/١٩ تشرين الاول ١٨٤٦م) ٠
١٢ شباط ١٨٥٠ م) ٠
(١٧) المصدر السابق : رقم الوثيقة ٣٠٦٨ ، لف١ (من والي بغداد عبدالكريم نادر باشا الى الصدارة ، ٢٩ ربيع الأول ١٢٦٦هـ/
(١٨) يقصد ـ علي مايبدو ـ عبدالله باشا (١٨١٠ ـ ١٨١٢) ، وهو من الولاة المماليك الذين حكموا العراق قرابة القرن من الزمان (١٧٤٩ ـ ١٨٣١) ٠
(١٩) «جبه خانه» او «جبخانه» مستودع لحفظ البارود وجميع مستلزمات الاسلحة النارية ، والألواح الفولاذية المستخدمة في تغليف السفن الحربية لمقاومة تأثير القنابل الساقطة عليها ٠ ينظر : شمس الدين سامي : المصدر السابق ، ص٤٦٩ ، ٦٨٥ ٠
(٢٠) ارشيف الباب العالي : ارادة/خارجية ، رقم الوثيقة ٣٣٥٤ ، لف١، (من متصرف ايالة البصرة اسماعيل معشوق باشا الى الصدارة ، ١٥ ربيع الأول ١٢٦٦ هـ/٢٩ كانون الثاني ١٨٥٠م) ٠
(٢١) المصدر السابق : رقم الوثيقة ٣٣٥٤ ، لف٢ (مذكرة الصدارة الى السلطان ، في ١٣ ذي القعدة ١٢٦٦ هـ/٢٠ ايلول ١٨٥٠م ٠ ومصادقة السلطان ١٥ ذي القعدة ١٢٦٦هـ/٢٢ ايلول ١٨٥٠م) ٠

(٢٢) المصدر السابق : وثيقة رقم ٣٧٢٧ ، لف١ (من متصرف ايالة البصرة اسماعيل معشوق باشا الى الصدارة ، ٧ جمادى الأولى ١٢٦٧هـ/١٠ مارت ١٨٥١م) •

(٢٣) المصدر السابق : وثيقة رقم ٣٧٢٧ ، لف٣ (صورة تخطيطية مجسمة لكوت الفرنجي رسمها يونس افندي في ٢٨ ربيع الأول ١٢٦٧هـ/٣١ كانون الثاني ١٨٥١م) •

(٢٤) المصدر السابق : وثيقة رقم ٣٧٢٧ ، لف٢ ، (خارطة تخطيطية لموقع كوت الفرنجي رسمها يونس افندي في ٢٨ ربيع الأول ١٢٦٧هـ/٢١ كانون الثاني ١٨٥١م) •

(٢٥) المصدر السابق : وثيقة رقم ٣٧٢٧ ، لف١ •

(٢٦) ذكر معشوق في مذكرة سابقة ان عدد عائلة لنج اربعة اشقاء •

(٢٧) ارشيف الباب العالي : ارادة/خارجية ، رقم الوثيقة ٣٧٢٧ ، لف١•

(٢٨) وهما اخواه الثالث المدعو (ستيفن فنس لنج) والرابع المقيم بلندن• يذكر لونكريك ان احد اخوة لنج فقد اثناء غرق الباخرة «دجلـــة» في نهر الفرات ، وتوفي آخر لأصابته بالمرض • اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ص٢٩٨ ، حاشية (٢) •

(٢٩) لونكريك : المصدر السابق ، ص٢٩٦ ـ ٢٩٨ • د• زكي صالح : المصدر السابق ، ص١٥١ ـ ١٦١ • مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني ، (المطبعة الفنية ، ١٩٦٦) ص٤٣ ـ ٤٨ •د•عبدالعزيز سليمان نوار : المصالح البريطانية في انهار العراق ١٦٠٠ ـ ١٩١٤ ، (القاهرة ، ١٩٦٨) ، ص٣٧ وما بعدها • داود باشا والي بغـداد ، ص١٩١ ـ ٢١٩ • د• ابراهيم شريف : الشرق الأوسـط ، ص٣٥ ومابعدها • ، ص٥٨ ومابعدها •

(٣٠) من اهم هذه الأتحادات هـــي عشائر المنتفك (او المنتفق او المنتفج) وكعب وبني لام وربيعة • تسكن عشائر المنتفك في محافظـة ذي قار في منطقة كانت تسمى قديما «البطائح» ، كانت مغمورة بالمياه ومليئة بالبردي والقصب ، وكانت الادارة العثمانية عاجزة عن السيطرة على هذه الديار ، بل كان شيوخ المنتفك يؤثرون في عزل ولاة البصـــرة وبغداد وتنصيبهم ـ احيانا ـ لاسيما في فترة المماليك التي امتدت فيها سيطرتهم على كافة الاراضي الزراعية في منطقة البصرة • وتتالف المنتفك من اتحاد عشائر بني مالك والأجود وبني سعيد بزعامة اسرة آل شبيب • لمزيد من التفصيلات ينظر : لونكريك : المصدر السابق، ص٧٨ ، ١٩٦ ، ٢٩٢ • د• عبدالجليل الطاهر : العشائر العراقية ،

(بغداد ، ١٩٧٢) ، ص٣٣ ـ ٣٩ ، ٦٠ ومابعدها · عباس العزاوي : عشائر العراق ، (بغداد ، ١٩٥٦) ، ج٤ ص٤ـ ١٦ ·
د· عبدالعزيز نور : داود باشا ، ص٩٢ ـ ١١٢ ·

(٣١) ارشيف الباب العالي : ارادة/خارجية ، وثيقة رقم ٣٧٢٧ لف١ ·

(٣٢) المصدر السابق : ارادة/خارجية ، رقم الوثيقة ٣٧٢٧ لف٣ ؛ (مذكرة الصدارة الى السلطان في ٨ رجب ١٢٦٧ هـ/٩ مايس ١٨٥١م، ومصادقة السلطان في ٩ رجب ١٢٦٧هـ/١٠ مايس ١٨٥١م) ·

(٣٣) المصدر السابق : ارادة/داخلية ، رقم الوثيقة ١٤٣٩٩ (عسكرية لف٢) مذكرة متصرف ايالة البصرة اسماعيل معشوق باشا الى الصدارة ، ٢٩ شعبان ١٢٦٧هـ/٢٩ حزيران ١٨٥١م) ·

(٣٤) نفس الوثيقة السابقة ·

لف٣) ، مذكرة الصدارة الى السلطان في ١٩ شوال ١٢٦٧هـ/١٧ آب

(٣٥) الأرشيف نفسه : ارادة/داخلية ، وثيقة رقم ١٤٣٩٩ (عسكرية ١٨٥١م ، ومصادقة السلطان في ٢٠ شوال ١٢٦٧هـ/١٨ آب١٨٥١م) ·

(٣٦) المصدر السابق : ارادة/خارجية ، رقم الوثيقة ٣٩١٣ ، لف١ (من متصرف ايالة البصرة اسماعيل معشوق باشا الى الصدارة ، ٢٩ شعبان ١٢٦٧ هـ/٢٩ حزيران ١٨٥١م) ·

(٣٧) المصدر السابق : رقم الوثيقة ٣٩١٣ ، لف٢ (مذكرة الصدارة الى السلطان في ٢٩ ذي القعدة ١٢٦٧هـ/٢٥ تشرين الثاني ١٨٥١م ، ومصادقة السلطان عليها في غرة ذي الحجة ١٢٦٧هـ/٢٧ تشرين الثاني ١٨٥١م) ·

تحرير متصرف ايالة البصرة معشوق باشا الى الصدارة

عطوفتلو افندم حضرتلري

[illegible]

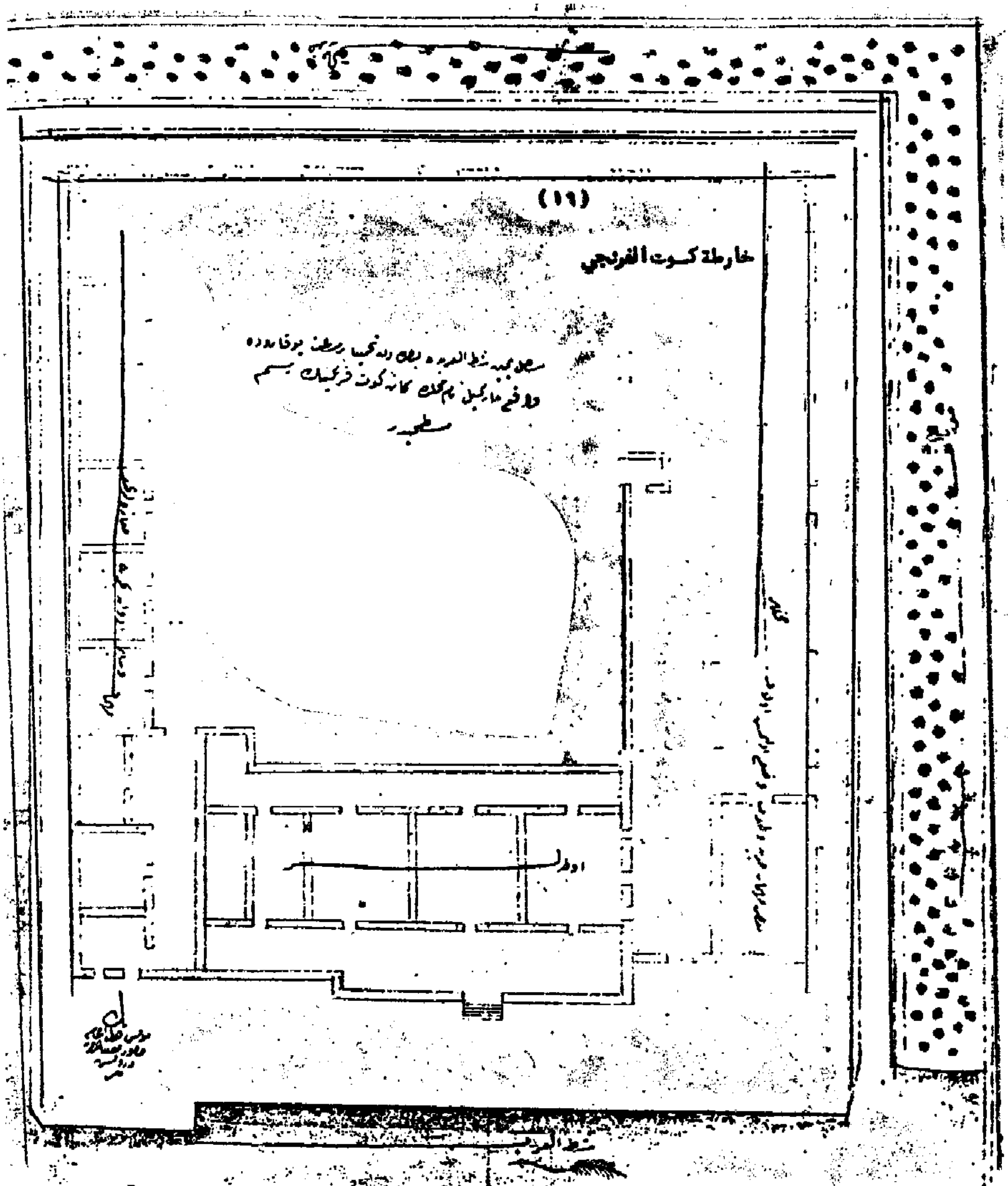
[illegible]

تقرير والي بغداد نادرپاشا الى الصدارة

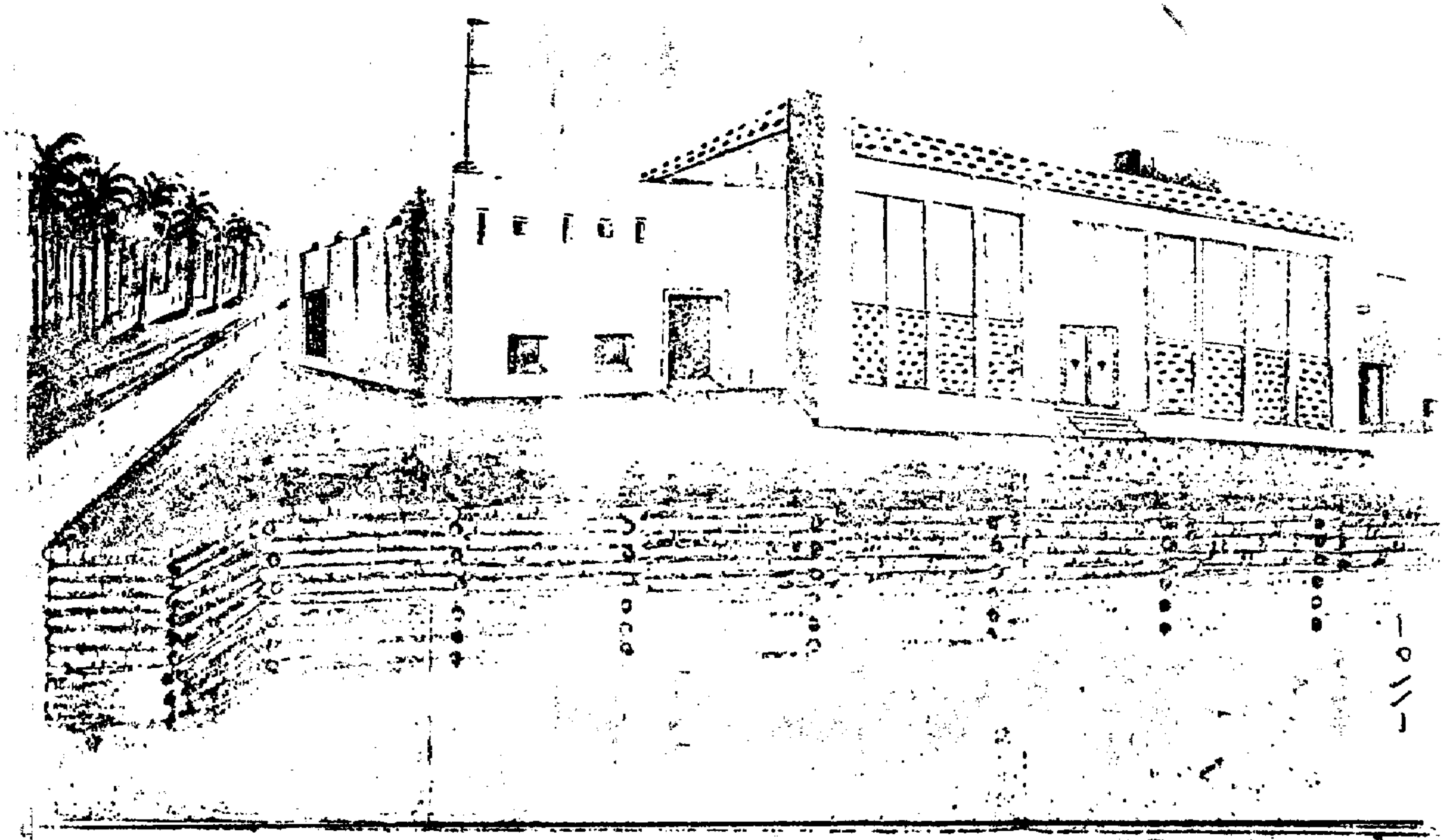
[illegible]

(١٩)

خارطة كـوت الفرنجي



صورة مجسمة لمبنى كوت الفرنجي رسمها يونس افندي



المصادر الارشيفية عن تاريخ الصلات الروسية العربية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

ترجمة : عن الروسية د٠نوري السامرائي[١]

تم العثور مؤخراً في الارشيف التاريخي المركزي الرسمي بمدينة لينيغراد وثائق ظلت مجهولة حتى الآن تتعلق بتاريخ العلاقات الروسية بالاقطار العربية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ٠ تتألف هذه الوثائق الجديدة من خمس وعشرين مجموعة في مائة وعشرين ملفاً تضم حوالي ستة آلاف وثيقة باللغات الروسية والانكليزية والفرنسية ٠ ويمكن تقسيم هذه الوثائق كما يلي :

١ ـ القسم العام ويضم الوثائق من رقم ١ الى ١٠ ٠

٢ ـ قسم الجزائر ويضم الوثائق من رقم ١١ الى ١٢ ٠

٣ ـ قسم مصر ويضم الوثائق من رقم ١٣ الى ٦٦ ٠

١ ـ تم اكتشاف هذه الوثائق من قبل باحثي ارشيف لينينغراد في سنة ١٩٥٧ وتم تصنيفها الى هذه الابواب ٠

٢ ـ يوجد في القسم العام من وثائق ارشيف لينغراد بعض الوثائق التي لا علاقة لها بأي بلد عربي بصورة مستقلة ٠ ولكنها تحتوي على اخبار العلاقات العامة بين هذه الاقطار من جهة وروسيا من جهة أخرى ٠ فهناك وثائق حول تدريس اللغة العربية في جامعة قازان ١٨٣٣ ـ ١٨٣٦ ، ١٨٤٥ ٠

(١) اصل المقال منشور في «نشرة معهد شعوب اسيا التابع لاكاديمية العلوم السوفيتية» ، العدد ٥٨ (المجموعة العربية) ، موسكو ، ١٩٦٢٠

٤ ـ قسم العراق ويضم الوثائق من رقم ٦٧ الى ٦٨

٥ ـ قسم لبنان ويضم الوثائق من رقم ٦٩ الى ٧١

٦ ـ قسم مراكش ويضم الوثائق من رقم ٧٢ الى ٧٤

٧ ـ قسم فلسطين ويضم الوثائق من رقم ٧٥ الى ٨٠

٨ ـ قسم سوريا ويضم الوثائق من رقم ٨١ الى ١٢٠

وتقع الوثائق المتعلقة بعلاقات روسيا بالاقطار العربية في المشرق والمغرب في المجموعة (٢٠) من ملف التجارة والصناعة والمجموعة (٢٢) من ملف الديوان المركزي لوزارة المالية والمجموعة (٢٣) وزارة الصناعة والتجارة • والمجموعة (٩٥) ـ تقارير التجارة البحرية وتجارة الموانيء والمجموعة (١٠٧) ـ الشركات الروسية للملاحة والتجارة والمجموعة (٢٠) ـ تقارير جمعية مهندسي الطرق والمجموعة (٣٧٩) ـ دائرة التسليف في وزارة الممتلكات الحكومية والمجموعة (٤٧٢) ـ رسائل ديوان وزارة القصر الامبراطوري ، والمجموعة (٥٦٠) ـ الرسائل العامة لوزارة المالية والمجموعة (٦٧٨) ـ ملف مولجانوف ـ الاسكندر ايفا نوفج ممثل ادارة الشركة الروسية للملاحة والتجارة •

والمجموعة (٧٣٣) ـ قسم التعليم العام ، والمجموعة (٧٨٩) ـ الفنون والمجموعة (٧٩٦) ـ ديوان الكنائس والمجموعة (٧٩٧) ـ ديوان رابطة اتحاد الكنائس والمجموعة (٨٢١) ـ قسم شؤون رجال الدين الأجانب والمجموعة (٨٣٢) ـ دائرة شؤون مطرانية موسكو والمجموعة (٨٠٤) مخطوطات الكنائس والمجموعة (١١٤٩) ـ المجلس القانوني الحكومي والمجموعة (١١٥٢) ـ المجلس الأقتصادي الحكومي ومجموعة (١١٥٣) ـ المجلس

(٣) ان الرجوع الى هذه الوثائق يمكن أن يتم حسب هذه التقسيمات كما هي عليه الآن في الارشيف التاريخي في مدينة لينينغراد •

الحكومي للصناعة والتجارة والمجموعة (١١٥٨) ـ هيئة الأستشارات المالية الحكومية والمجموعة (١٢٦٣) اللجان الوزارية والمجموعة (١٢٧٦) ـ مجلس الوزراء والمجموعة (١٢٧٨) ـ مجلس الدوما والمجموعة (١٤٠٥) ـ وزارة العـدل ·

ويمكن تقسيم المجموعات المذكورة الى ثلاثة اقسام ·

١ ـ العلاقات الأقتصادية والتجارية بين روسيا وأقطار المشرق العربي·

٢ ـ العلاقات السياسية بين روسيا والاقطار العربية في المشرق والمغرب ·

٣ ـ العلاقات الثقافية والعلمية بين روسيا والاقطار العربية في المشـرق ·

ومن خلال نظرة سريعة على مواد القسم الاول تتضـسح سعة العلاقات الأقتصادية بين روسيا ومصر · فحسبما تشير وثائق مجموعة وزارة المالية ، فان البواخر التي كانت تحمل البضائع المصرية بدأت تصل موانـىء بحـر البلطيق منذ العام ١٨٢٥ ـ ١٨٢٦[٤] · كما توجد في هذا الصنف من تقارير وزارة المالية لسنة ١٨٣١ في حلف التجارة الخارجية حول تخفيض الضرائب على البضاعة التي يستوردها التجار الروس من مصر الى موانىء بحر البلطيق يقترح فيها أن يكون لها تخفيض خاص[٥] · وتبين الوثائق كيف أن الحكومة الروسية حاولت اقامة علاقات تجارية مباشرة مع مصر عبر موانىء البحر الاسود دون توسط طرف ثالث ·

كما تشير تقارير وزارة المالية التي تعود الى الاعوام ١٨٧٦ ، ١٨٨٩ و١٩٠٢ المحفوظة ضمن مجموعة المجلس الأقتصادي واللجنة المالية الحكومية الى أن القيصرية منحت السفن التجارية الروسية التي تمر عبر قناة السويس تسهيلات استهدفت منها رفع حجم العلاقات التجارية بين روسيا ومصر · وفضلا عن ذلك توجد في هذا الارشيف «ملاحظات تاريخيـة عـــن بعض التسهيلات باعادة النظر في ضرائب السويس»[٦] · وتضم هذه المجموعات

العديد من تقارير القناصل الروس حول الملاحة والعلاقات التجارية بين روسيا ومصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والتي تشير الى عمق العلاقات الاقتصادية الروسية المصرية في تلك الفترة[٧]. وحسبما يبدو من وثائق مجموعة ملف قسم التجارة والصناعة للفترة ١٨٩٩ - ١٩٠٢ فأن البواخر كانت تنقل القطن والجوت المصري الى الموانىء الروسية على سواحل البحر الاسود لتقوم بعد ذلك بنقل الأخشاب والنفط والحديد والورق الروسي الى مصر[٨]. وان احدى الوكالات الروسية للملاحة والتجارة كانت تعمل في ميناء بور سعيد[٩]. ان توسع حجم العلاقات التجارية بين مصر وروسيا حتى مطلع القرن العشرين جعل من الضروري عقد اتفاقية تجارية بين روسيا ومصر[١٠]. فان المكتبات الكثيرة التي تغطي الفترة الواقعة بين عامي ١٩٠٢ و١٩١٦ والمحفوظة في مجموعة الديوان المركزي وزارة المالية في ملف الصناعة والتجارة، تشير الى محادثات جرت بهذا الصدد فضلا عن الوثائق المحفوظة في مجموعة مجلس الوزراء. ومن الجدير بالذكر أن بعضاً من تلك الوثائق تحتوي على قوائم واحصائيات كثيرة بأسماء المنتجات المستوردة من مصر. وقد تم افتتاح وكالة لشركة الملاحة والتجارة الروسية في كل من القاهرة والاسكندرية[١١]. ويوجد في هذه المجموعات أيضاً تقارير الوكالات التجارية الروسية وبضمنها الوكالة التجارية الموجودة في الاسكندرية للسنين ١٩١٠، ١٩١١. وفي سنة١٩٠٩ فتحت شركة الملاحة والتجارة الروسيا مكتباً لها في كل من حيفا والاسكندرية[١٢]. وتضم مجموعة التجارة البحرية وتجارة الموانىء التي تعود لغاية ١٩١١ وثائق تتعلق بالتجارة بين روسيا والدولة العثمانية واليونان ومصر وجمهوريات امريكا الجنوبية والبرازيل والارجنتين والاورغواي[١٣]. وفي سنة ١٩١٢ قدم الى الحكومة الروسية تقرير حول

الوضع السياسي والاقتصادي في مصر محفوظ في مجموعة وزارة التجارة والصناعة ، ويشير التقرير بصورة خاصة الى امكانية توسيع حجم العلاقات التجارية الروسية المصرية[14] ، ولهذا السبب فقد تم افتتاح معرض للمنتجات اليدوية الروسية في بور سعيد سنة ١٩١٣[15] ٠ وتحفظ الوثائق المتعلقة بهذا المعرض في الارشيف الخاص بمجموعة الشركات الروسية للتجارة والملاحة ، كما تحفظ في هذه المجموعة بعض الرسائل حول التجارة الروسية المصرية والتي بعث بها وكيل الشركة الروسية للملاحة والتجارة في بيروت وقد أشار الوكيل في رسائله الى امكانية توسيع حجم العلاقات الروسية المصرية وأهمية اقامة المعارض التجارية الروسية في الاقطار العربية[16] ٠ وبدأت المحادثات بين بتروغراد والقاهرة حول انواع البضائع الروسية التي يمكن تصديرها الى مصر[17] ٠ وعندما تم افتتاح المعرض التجاري الروسي في بور سعيد في سنة ١٩١٣ تم بناء مخزن للبضاعة الروسية هنالك[18] ٠ وتشير الوثائق التي تعود الى تلك السنة الى مشروع مقترح لأقامة خط للملاحة البحرية مصر ـ البحر الأحمر[19] ٠ وفي سنة ١٩١٥ اعلنت الشركة الروسية للتجارة عن رغبتها في افتتاح معرض للبضاعة المصرية في موسكو ٠ وكان الهدف من هذا المعرض هو تعريف الاوساط الصناعية الروسية بأنواع البضائع الواسعة الأنتشار في مصر ٠ وتحتوي وثائق الارشيف معلومات تتعلق بالهدف من وراء تنظيم هذا المعرض[20] ٠ كما توجد في الارشيف مشاريع حول تنظيم اللجنة الخاصة بتطوير البضاعة الروسية في القاهرة ونشاطها[21] ٠ وتوجد في النشرة الأحصائية التي اصدرتها هذه اللجنة سنة ١٩١٦ في القاهرة معلومات حول تطوير العلاقات التجارية بين روسيا من جهة ومصر والسودان من جهة أخرى[22] ٠ وكانت هذه النشرة تصدر باللغتين الروسية والفرنسية ٠ ومن خلال الوثائق

الموجودة في الأرشيف يمكن تشخيص العلاقات الأقتصاديـــة بين روســيا وسوريا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ٠

ويظهر من رسائل القنصلية الروسية المحفوظة في ملف وزارة التجارة والصناعة بأن الموانىء السورية والروسية كانت ترتبط بعلاقات منتظمة عن طريق خطوط الملاحة البحرية[٢٣] ٠ وكانت القنصلية الروسية في سوريا ترفق مع الرسائل التي تبعث بها جداول زمنية بمواعيد وصول البواخـــر الروسية الى الموانىء السورية منذ سنة ١٨٨٨ حتى سنة ١٨٩٣[٢٤] ٠ كما تحتوي تلك المجموعة على تقارير مستفيضة رفعها القناصل الروس توضح مجرى العلاقات التجارية الروسية السورية في فترة النصف الثاني مـــن القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين[٢٥] ٠ وغالباً ماترفق هذه التقارير بجداول احصائية حول حجم البضائع وانواعها ٠ وهناك ثلاثة تقاريـــر مهمة رفعها وكيل شركة التجارة والملاحة الروسية في بيروت ـ حول منظور التعامل الأقتصادي السوري الروسي وحول تنظيم معرض خاص للبضاعة الروسية في سوريا[٢٦] ٠ وقد كتبت هذه التقارير في سنة ١٩١٣ وتحفظ في مجموعة وثائق «مولجانوف» ممثل ادارة الشركة الروسية للملاحـــة والتجارة البحريـــة ٠

وتكشف رسائل القنصل الروسي العام في بيروت عـن نمو العلاقات الأقتصادية بين روسيا ولبنان وتطورها عشية الحـــرب العالمية الاولى ٠ وتحتوي هذه الرسائل التي تعود الى الفترة الواقعة بين عامين ١٩١٠و١٩١٤ على معلومات احصائية واسعة عن حجم العلاقات التجارية والأقتصاديـــة القائمة بين روسيا ولبنان في تلك الفترة وكذلك وعن أهمية ميناء بـــيروت التجارية ٠ وتحفظ هذه الوثائق في مجموعة وزارة الصناعـة والتجارة ٠ كما تتحدث رسائل القناصل الروسية في بيروت بصورة خاصة عن المعرض

العائم للبضائع الروسية الذي أقيم في بيروت ، وعن مجموعة من العقود واصفقات التجارية التي ابرمتها الشركات الروسية التجارية . وقد افتتح مع العرض مخزن خاص للبضائع الروسية والذي كان يقوم ببيع نماذج منها(٢٧) . ومن خلال وثائق الارشيف يمكن الوقوف ايضا على العلاقات الأقتصادية بين روسيا وفلسطين . وتوجد ضمن مجموعة ادارة الشركة الروسية للملاحة والتجارة اعداد من جريدة Hazewi التي كانت تصدر في القدس ، وهي تتحدث في عددها الصادر يوم ٢٥ كانون الثاني عام ١٩١٠ عن النجاح الكبير الذي حققه المعرض العائم الذي اقيم في فلسطين . وقد اشارت الجريدة في مقالها الى تفوق البضاعة الروسية على منتجات الشركات الأجنبية الأخرى(٢٨) . وتحتوي وثائق هذه المجموعة على تقارير وكلاء الشركات الروسية في حيفا لسنة ١٩١٢(٢٩) . وفي سنة ١٩١٣ وضع وكيل الشركة الروسية للتجارة والملاحة في بيروت تقريراً يطالب فيه زيادة حجم العلاقات التجارية بين روسيا وفلسطين ورغبته في اقامة معرض روسي تجاري في فلسطين(٣٠) . وان وثائق الارشيف تشير الى وجود علاقات اقتصادية بين روسيا والعراق في مطلع القرن العشرين . وتوجد ضمن مجموعة وزارة التجارة والصناعة تقارير عن الوضع الأقتصادي في العراق ، ولاسيما عن وضع السوق في بغداد بداية القرن العشرين(٣١).

وفي عام ١٩١٣ اكد القنصل الروسي في البصرة في تقاريره على ضرورة فتح خط ملاحي منتظم لنقل البضائع والمسافرين بين روسيا والعراق(٣٢) . وتحفظ هذه الرسائل في مجموعة ادارة الشركات الروسية للتجارة والملاحة.

وتتضمن المجموعة الثانية من وثائق ارشيف مدينة «لينينغراد» معلومات اساسية عن تاريخ العلاقات الدولية ـ الدبلوماسية والقنصلية ـ التي تربط بين روسيا واقطار المشرق والمغرب العربي منذ نهاية القرن

التاسع عشر وبداية القرن العشرين · ويكشف قسم من وثائق مجموعة المجلس الأقتصادي الحكومي ووزارة العدل عن نشاطات القنصلية الروسية العامة في مصر(٣٣) · وقد اسهمت الحكومة الروسية بصورة خاصة في اللجنة التي كلفت بوضع نظام جديد لسجلات الاراضي والاقطان في مصر(٣٤). ويوجد بين مجموعة الدائرة القانونية التابعة للمجلس الحكومي «ملف تأسيس قنصلية دائمية في الجزائر» · وعلى الرغم من التسلط الفرنسي وجدت علاقات قنصلية بين الجزائر وروسيا ، وفي عام ١٨٨٤ أقيمت هناك قنصلية روسية ثابتة(٣٥) · ومن أجل الاطلاع على وضع التعليم العام في الجزائر ارسل ممثل عن وزارة التعليم الشعبي الروسي في سنة ١٩١٣ والذي يحفظ تقريره الآن ضمن مجموعة وزارة الثقافة العامة ·(٣٦) · وتوجد في مجموعة مجلس الوزراء ومجلس الدوما للسنين ١٩١٠ ــ ١٩١٣ ثلاثة ملفات عن وضع الممثلية الروسية في مراكش · فمنذ العام ١٩١٢ اي قبل فرض الحماية الفرنسية على مراكش ، اسست العلاقات القنصلية بين الاخيرة وروسيا ، فلغاية عام ١٩٠٠ كانت تعمل قنصلية روسية عامة في مراكش رفعت الى درجة ممثلية منذ ذلك التاريخ(٣٧) · ولكن بعد فرض الحماية الفرنسية على مراكش حولت الممثلية الروسية من جديد الى قنصلية عامة(٣٨) ، وفي عام ١٩١٣ تم تأسيس الوكالة الدبلوماسية الروسية في مراكش(٣٩) · ان دراسة المجموعة الثالثة من الوثائق تعطي امكانية متابعة تطور الصلات العلمية ــ الثقافية النشيطة بين روسيا من جهة ومصر وسوريا ولبنان وفلسطين من جهة أخرى في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين · ويخص جانب كبير من الوثائق المذكورة العلاقات الثقافية الروسية ــ المصرية(٤٠) · وهي (الوثائق) تنظم بالدرجة الاساسية المراسلات الخاصة بمجموعة مخطوطات «روادز»(٤١) · و «كاستيلون»(٤٢)

و «دروفيت»[٤٣] • ويرحله أ•س• نورروف في مصر(٤٤) • ومايتعلق بدعوة الوفد الرسـمي بمناسبة افتتاح قناة السويس[٤٥] • ونشاطات الاطباء الروس في مصر [٤٦] • وجمع الآثار المصرية القديمة [٤٧] • ومايخص الكتب التي ارسلت من مصر كهدايا الى روسيا[٤٨] وعن مجموعة الاثار المصريـة والمعروضة حالياً والعائدة للمستشرق الروسي«فلاديمير جولنييشديف»[٤٩]• وهناك بعض الوثائق التي تحتوي على معلومات قيمة حول تنظيم قسم خاص بالكتب الروسية من مكتبة الجامعة المصرية[٥٠] •

ويحتوي ارشيف لينينغراد على معلومات حول ايفاد العالم الروسـي المعروف أ•و• موفلينسكي للأشتراك في حفل افتتاح قناة السويس عـام ١٨٦٩[٥١] • وتحتوي وثائق المجلس الأقتصادي الحكومة على معلومات حول ارسال الطبيب الروسي «ايفاد» الى مصر في سنة ١٨٨٥ للمساهمة في حملة مكافحة وباء الكوليرا • وقد قام في مصر بعدة دراسات علمية كما اوصـى بطبع تقريره • كما مثل روسيا في اللجنة الصـحية الدوليـة فـي الاسكندرية[٥٢] • وتشير بعض الوثائق التي تعود تواريخها الى عامي ١٩١٣ و١٩١٤ الى المساعدات الطبية التي قدمتها روسيا الى مصر عشية الحـرب العالمية الاولى • فكما يبدو من احدى تلك الوثائق كان يوجد طبيب روسي في الحجر الصحي بمنطقة القناة في عام ١٩١٤[٥٣] •

ولوثائق جمعية سانـت بطرسبورغ المدرسية اهميتها فيما يخص العلاقات العلمية الروسية ـ المصرية • ومما ورد في هذه الوثائق هـو أن الشخصية المصرية المعروفة يعقوب ارتين باشا أهدى جامعـة بطرسبورغ صندوقين من الكتب المصرية في عام ١٨٨٧[٥٤] • وفضلا عن ذلك تشـير وثائق مديرية الثقافة العامة الى أن الحكومة المصرية اهدت من جديد الحكومة الروسية في عام ١٨٩٤ مجموعة من التوابيت والآثار الأخرى التي تم العثور

عليها في منطقة طيبة . وقد تم توزيع محتويات هذه المجموعة على متاحف الجامعات الروسية وغيرها من المؤسسات الفنية والتعليمية(٥٥) . وفي عام ١٨٩٨ حصل متحف الفنون الجميلة في موسكو بمساعدة متحف الجيزة المصري على مجموعة من الآثار الفنية والأثنوغرافية المصرية(٥٦) . ويوجد عدد لابأس به من الوثائق الخاصة بمجموعة «جولنييشيف» المعروفة عالمياً وهي تحفظ ضمن وثائق مجلس الوزراء وديوان وزارة القصر الأمبراطوري ووزارة الثقافة العامة وغيرها .

ومن خلال ماورد في هذه الوثائق يمكن متابعة تفاصيل جلب المجموعة الأثرية للمختص الروسي المعروف في المصريات «جو لنييشيف» من مصر إلى روسيا وذلك بمبادرة من الجمعية الاركيولوجية الروسية عشية الحرب العالمية الاولى(٥٧) .

وللوثائق الموجودة في «ملف تزويد مكتبة الجامعة الأهلية المصرية بمطبوعات الجمعيات العلمية الروسية» ، أهمية خاصة لالقاء الضوء على تاريخ الصلات العلمية الروسية ـ المصرية في بداية القرن العشرين . وكما تبين الوثائق فقد ناقشت الاوساط العلمية الروسية عام ١٩٠٩ موضوع تزويد مكتبة الجامعة المصرية بمؤلفات العلماء الروس ، ولاسيما يتعلق منها بآسيا الوسطى(٥٨) .

ويحفظ في الارشيف تقرير مهم للممثل الروسي الذي ارسل الى القاهرة والقسطنطينية يتحدث عن العلاقات المتبادلة بين الاوساط الدينية في مختلف الاقطار العربية مع حركة الجامعة الاسلامية(٥٩) . والى حد كبير تطورت العلاقات الروسية العربية في القرن التاسع عشر عن طريق الجمعية الفلسطينية الارثدوكسية الروسية الامر الذي ادى الى أن تخص وثائق كثيرة في ارشيف لينينغراد الصلات الدينية لروسيا بالاقطار العربية بما

فيها مصر(٦٠) . وتكشف لنا هذه الوثائق أيضاً العلاقات الثقافية بين روسيا وكل من سوريا ولبنان وفلسطين في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين(٦١) . وتأتي في مقدمتها الوثائق الخاصة بمجموعة روسو(٦٢) و«حجر تدمر» للازاريق(٦٣) ، و«رحلة في المدينة المقدسة ـ القدس ـ للعربي ايبروف راهب راتشين في ١٧٠٤ ـ ١٧٠٥»(٦٤) .

وحول مخطوط فضل الله ابو خلق «رحلة الى سوريا وفلسطين والاردن في ١٨٩١ ـ ١٨٩٢»(٦٥) .

وهناك جزء مهم من وثائق ارشيف لينينفراد يكشف عن العلاقات الدينية بين روسيا ولبنان وفلسطين(٦٦) . ان دراسة هذه الوثائق ليس من واجبات المؤلف ، ولكن تتضمن بعض هذه الوثائق مادة مهمة حول العلاقات الثقافية بين روسيا والاقطار العربية خاصة فيما يخص المدارس والمتاحف والآثار القديمة والمخطوطات . وكما يبدو من وثائق ارشيف لينينفراد فن في روسيا بدأ الاهتمام بتعليم اللغة العربية ودراستها منذ زمن بعيد . ويتجلى هذا واضحاً من خلال الوثائق الموجودة في «ملف تدريس اللغة العربية ضمن اللغات الشرقية الأخرى من مدرسة قازان الثانوية الاولى» وكذلك من خلال القرارات المتعلقة بتدريس اللغات الشرقية وعبر الخطط التدريسية وغيرها . فأن اللغة العربية لم تدرس في معهد لازاريف بموسكو حسب بل انها كانت تدرس في المقاطعات كذلك ، ولاسيما في قازان(٦٧) . فأن ثانوية قازان الاولى كانت واحدة من المراكز الاساسية لتدريس اللغة العربية في عموم روسيا خلال القرن التاسع عشر ، ومن المعروف ايضاً انه كان يوجد قسم خاص بالمخطوطات العربية في جامعة قازان منذ اواخر النصف الاول من القرن التاسع عشر .

ان الوثائق المكتشفة حديثا والتي تخص تاريـــخ عـــلاقات روسيا الأقتصاديه والسياسيه الخارجية والثقافية ـ العلمية بقطـار العربيـــه تستمتع بأهميه علمية كبيرة ، خاصة وان كل هده المواد تقريبا لــم تكــن معروفه حتى الآونة الاخيرة(٦٨) ٠

ان وثائق ارشيف لينينغراد دليل مهم على وجود علاقات روسية ـ عربيـــة قديمة ـ تقليديه ، طيبة وودية ٠

---

(١) تم اكتشاف هده الوثائق من قبل باحثي ارشيف لينينغراد في سنة ١٩٥٧ وتم تصنيفها الى هده الابواب ٠

(٢) يوجد في القسم العام من وثائق ارشيف لينغراد بعض الوثائـــق التي لاعلاقه لها بأي بلد عربي مستقله ٠ ولكنها تحتوي على اخبار العلاقات العامه بين هده الاقطار من جهة وروسيا من جهه أخـــرى ٠ فهناك وثائق حول تدريس اللغة العربية في جامعه قازان ١٨٣٣ ـ ١٨٣٦ ، ١٨٤٥ ٠

(٤) الارشيف التاريخي المركزي في لينينغراد ، مجموعة ٥٦٠ ، ملف رقم٤ وثيقة ٣٢٣ قسم ٨ سنة ١٨٢٥ ـ

(٥) نفس المصدر وثيقة ٦٠٠ ورقة ١ ـ ٢ سنة ١٨٣١ ٠

(٦) الارشيف التاريخي المركزي ـ لنينيغراد ، خزانة ٥٢ ٣٨٤ ورقة ١ـ٨ سنة ١٨٧٦ ٠

(٧) الارشيف المركزي التاريخي ـ لينينغراد ، خزانة ٢١ ملف ٥ وثيقة ٣٠ ورقة ١ـ٢٥ ١٨٨٩ ـ ٨٩٤ ٠

(٨) الارشيف المركزي التاريخي ـ لينينغراد ، خزانة ٢٣ ملف ٢٤ وثيقة ١٤٠٦ ورقة ١ـ٨١ سنة ١٨٩٤ ـ ١٩٠٨ ٠

(٩) الارشيف المركزي التاريخي ـ لينينغراد خزانة ١٠٧ ملف ١ قسم ٣١٦١ ورقة ١ـ٢٤ سنة ١٩٠١ ٠

(١٠) الارشيف المركزي التاريخي ـ لينينغراد خزانة ٢٢ ملف ٣ وثيقة ١١٢ ورقة ١ـ٢٢٦ سنة ١٩٠٢ ـ ١٩١٦ ٠

(١١) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٦٧٨ ملف ١ وثيقة ١٤٣٧ ورقة ١ ـ ١٠ ١٩٠٩ ٠

(١٢) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ١٢٧٦ ملف ٥ وثيقة ٣٥٢ ورقة ١ ـ ١٧ ١٦٠٩ .

(١٣) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٩٥ ملف ٨ وثيقة ١٠٧٩ ورقة ١ ـ ١٠ سنة ١٩١١ .

(١٤) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٢٣ ملف ١١ وثيقة ١٤٣ ورقة ١ ـ ٣٤ سنة ١٩١١ .

(١٥) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ١٠٧ ملف ١ وثيقة ٢١٠٠ ورقة ١ ـ ٤١ سنة ١٩١١ ـ ١٩١٢ .

(١٦) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٦٧٨ ملف ١ وثيقة ١٤٣٦ ورقة ١ ـ ٨٨ سنة ١٩١٢ .

(١٧) نفس المصدر وثيقة ١٤٣٩ ورقة ١ ـ ٣ سنة ١٩١٣ .

(١٨) الارشيف التاريخي المركزي خزانة ٢٣ ملف ٤٤ وثيقة ٢٦٠ ورقة ١ ـ ٥٤ سنة ١٩١٢ ـ ١٩١٤ .

(١٩) الارشيف التاريخي المركزي خزانة ٦٧٨ ملف ١ وثيقة ١٤٤٠ ورقة ١ ـ ٣ ١٩١٣ .

(٢٠) نفس المصدر وثيقة ١٤٤١ ورقة ١ ـ ٢٦ سنة ١٩١٥ .

(٢١) الارشيف التاريخي المركزي خزانة ٢٢ ملف ٢١ وثيقة ١٩٤ ورقة ١ ـ ١٨ سنة ١٩١٥ .

(٢٢) نفس المصدر وثيقة ٤٨٢ ورقة ١ ـ ٢٦ سنة ١٩١٤ .

(٢٣) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٢٠ ملف ٧ وثيقة ٧٥ ورقة ١ ٢٤ سنة ١٨٨٧ .

(٢٤) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ١٢٦٣ ملف ٧٥٢ ، سنة ١٨٩١ .

(٢٥) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٢٠ ملف ٥ وثيقة ٣٠ ورقة ١ ـ ٢٥ سنة ١٨٨٩ ـ ١٨٩٤ .

(٢٦) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٦٧٨ ملف ١ وثيقة ٤٤٣٦ ورقة ١ ـ ٣٨ سنة ١٩١٣ .

(٢٧) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٢٣ ملف ١١ وثيقة ٤٨ ورقة ١ ـ ١٣١ سنة ١٩١٠ ـ ١٩١٤ .

(٢٨) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٦٧٨ ملف ١ وثيقة ١٤٤٦ سنة ١٩١٠ .

(٢٩) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ١٠٧ ملف ١ وثيقة ٣٤٤٦ ورقة ١ ـ ٢٣ سنة ١٩١٢ .

(٣٠) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٦٧٨ ملف ١ وثيقة ١٤٣٦ ورقة ١ ـ ١٨ سنة ١٩١١ .

(٣١) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٢٢ ملف ٢ وثيقة ١٠٨ ورقة ١ ـ ٦٦ سنة ١٩٠١ .

(٣٢) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٦٧٨ ملف ١ وثيقة ١٢٢٩ ورقة ١ ـ ٢ سنة ١٩١٣ .

(٣٣) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ١١٥٢ وثيقة ٢٦٥ ورقة ١ ـ ٢٧ سنة ١٨٦٥ .

(٣٤) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ١٤٠٥ ملف ٥٣١ وثيقة ٤٩٢ ورقة ١ ـ ٤ سنة ١٩٠٨ .

(٣٥) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ١١٤٩ وثيقة ١٣ ورقة ١ ـ ١٣ سنة ١٨٨٤ .

(٣٦) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٧٣٣ ملف ٢٢٧ وثيقة ١٨٥ ورقة ١ ـ ١٦ سنة ١٩١٣ .

(٣٧) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ١٢٧٨ ملف ٢ وثيقة ١٠٧٩ ورقة ١ ـ ٥٢ سنة ١٩٠٩ ـ ١٩١٠ .

(٣٨) الارشيف التاريخي المركزي ـ لنينغراد مجموعة ١٢٧٦ ملف ٩ وثيقة ٥٩٥ ورقة ١ ـ ١٧ سنة ١٩١٣ .

(٣٩) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ١٢٧٨ ملف ٦ وثيقة ٧٦٧ ورقة ١ ـ ٤٩ سنة ١٩١٣ .

(٤٠) انظر ـ الكسند ـ كاسيف ـ من تاريخ العلاقات الحضارية بين مصر وروسيا ـ نشرات مختصرة ـ معهد شعوب اسيا وافريقيا «المجموعة العربية» × × موسكو ١٩٥٨ .

(٤١) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٧٣٣ ملف ١٢ وثيقة ٢٤٢ ورقة ١ ـ ١٠ سنة ١٨٢١ .

(٤٢) نفس المصدر وثيقة ٢٩٤ ورقة ١ ـ ٩ سنة ١٨٢٥ ـ ١٨٢٦ . وثيقة ٩٨ ورقة ١ سنة ١٨٢٧ .

(٤٣) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٧٣٣ ملف ١٥ وثيقة ٩٨ ورقة ١ سنة ١٨٢٧ .

(٤٤) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٧٨٩ ملف ١ وثيقة ٣٦ ورقة ١ ـ ٣ سنة ١٨٤١ .

(٤٥) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينينغراد خزانة ٧٣٣ ملف ١٤٢ وثيقة ٤٤٦ ورقة ١ ـ ١٢ سنة ١٨٦٩ .

(٤٦) الارشيف التاريخي المركزي ــ لينينغراد خزانة ١١٠١ وثيقة ٢٥ ورقه ١ ــ ٨ سنه ١٨٨٥ ٠

(٤٧) الارشيف التاريخي المركزي ــ لينينغراد خزانه ٧١١ ملف ١٤٢ وثيقه ١١٠٢ ورقه ١ ــ ١١ سنه ١٨٦٤ ٠

(٤٨) الارشيف التاريخي المركزي ــ لينينغراد خزانه ١١٢٤ ملف ٤ وثيقه ١٧١١ ورقه ١ ــ ٤٦ سنه ١٦٠٨ ٠

---

(٥٠) الارشيف التاريخي المركزي ــ لينينغراد خزانه ٧١١ ملف ١٢٥ وثيقه ١١٠ ورقه ١ ــ ١١ سنه ١٩٠٦ ٠

(٥١) الارشيف التاريخي المركزي ــ لينينغراد خزانه ٧٢٦ ملف ١٤٢ وثيقه ٤١٦ ورقه ١ ــ ١٤ سنه ١٨٦٩ ٠

(٥٢) الارشيف التاريخي المركزي ــ لينينغراد خزانة ١١٥٢ ملف ٢٥ ورقه ١ ــ ٨ سنة ١٨٨٥ ٠

(٥٣) الارشيف التاريخي المركزي ــ لينينغراد خزانة ١٢٧١ وثيقة ٧٥ ورقه ١٣٥ ــ ١٣٦ سنة ١٩١٤ ٠

(٥٤) الارشيف التاريخي المركزي ــ لينينغراد خزانة ٧٣٣ ملف ١٢٢ وثيقه ٥١ ورقة ٢٠ ــ ٤٩ سنة ١٨٨٧ ٠

(٥٥) الارشيف التاريخي المركزي ــ لينينغراد خزانة ٧٣٣ ملف ١٤٢ وثيقة ١٢٨٧ ورقة ١ ــ ١١ سنة ١٨٩٤ ٠

(٥٦) الارشيف التاريخي المركزي ــ لينينغراد خزانة ٧٣٣ ملف ١٢٢ وثيقه ١٤٣٦ ورقة ٧٢ ــ ٨٥ سنة ١٨٩٨ ٠

(٥٧) الارشيف التاريخي المركزي ــ لينينغراد خزانة ١٢٧٦ ملف ٤ وثيقة ٦٨٩ ورقة ١ ــ ٤٩ سنة ١٩٠٨ ٠

(٥٨) الارشيف التاريخي المركزي ــ لينينغراد خزانة ٧٣٣ ملف ١٤٥ وثيقة ٣٢٩ ورقة ١ ــ ١٣ سنة ١٩٠٩ ٠

(٥٩) الارشيف التاريخي المركزي ــ لينينغراد خزانة ٨٢١ ملف ١٣٣ وثيقة ٦٢٩ ورقة ١ ــ ١٥٤ ٠

(٦٠) الارشيف التاريخي المركزي ــ لينينغراد خزانة ٧٦٩ ملف ١٢٩ وثيقة ٥٢٦ ٠

(٦١) انظر ــ الكسنة كارسيف ــ العلاقات الحضارية بين روسيا وسوريا ــ نشرات ــ تختصرته ــ معهد شرق اسيا وافريقيا ــ المجموعة العربية موسكو ١٩٥٩ ص١٠٦ ــ ١١٢ ٠

(٦٢) الارشيف التاريخي المركزي ــ لينيغراد خزانة ٧٣٣ ملف ٨٧

وثيقة ١ سنة ١٨١٨ ـ ١٨١٩ .

(٦٣) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينيغراد خزانة ٧٣٣ ملف ٣ ع٤ وثيقة ٣٩٠ سنة ١٩٠٤ .

(٦٤) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينيغراد خزانة ٨٣٤ ملف ٤ وثيقة ٩٣٢ ورقة ١ ـ ٤٠ سنة ١٨٨٣ .

(٦٥) نفس العدد وثيقة ٩٣٤ ورقة ١ ـ ١٨٦١ ـ ١٨٩٢ .

(٦٦) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينيغراد خزانة ٧٩٧ ملف ٨٧ وثيقة ٢٣٧ .

(٦٧) الارشيف التاريخي المركزي ـ لينيغراد خزانة ٧٣٣ ملف ٤١ وثيقة ١ ١٢٩ سنة ١٨٣٣ ـ ١٨٣٦ .

(٦٨) ولم يتم حتى الوقت الحاضر ـ الانتهاء في ترتيب كتلوكات ـ الوثائق التي اعلنا عنها .

الوطن العربي في العصور القديمة : عناصر حضارية مشتركـة

دكتور فاروق ناصر الراوي
استاذ مساعد
كلية الآداب ـ قسم الاثار

تمهيـــد :

لاشك في أن مقومات اية حضارة تشمل كل ما حققه الانسان فـــي مجال العلوم والتكنولوجيا وفي الاعمال الفنية والادارية والاجتماعيـــة ، يضاف الى ذلك ان التقدم الحضاري ورقيه يمكن ان يقاس على اســاس درجة انتشار المعرفة بين السكان ومستوى التعليم وبخاصة بين عامـــة الناس وعلى اساس المهارة التي اكتسبها الفنيون في الاعمال ذات الطابـع المنتج • ان التقدم الحضاري لاي مجتمع يمكن ان ينعكس على ملابس الناس وازيائهم ، وتنظيم حياتهم اليومية وثقافتهم الصحية وتداولهم وتعاملهم مع المنجزات العلمية والتكنولوجية وفي مايقدمونه من خدمات عامة وبخاصـــة مايتعلق منها بالانتاج الزراعي والصناعي وطرق الـــري • وبتعبير أدق يمكن ان نقول بأن الحضارة هي نتاجات الناس ومعارفهـــم واذكارهـــم ومشاعرهم بالاضافة الى مايحققه المجتمع من تطور في التكنولوجيا والخدمات العامة ومستوى التعليم وتنظيم الحياة الاجتماعية ومؤسساتها •

واذا ماعرفنا بانه بات من البديهيات ان ماتشهده الحضارة هـــذا اليوم من تقدم كبير وازدياد ملحوظ في الانجازات العلمية قد اقيم عـــلى تراث ومنجزات سابقة فجري بنا نحن اصحاب اغنى الحضارات واعرقهـا ان نعمل على اظهار هذا المجد في صورة مجسمة تراها الاعين وتتحسسهـــا

الايدي .

على اننا يجب ان ننوه هنا ان اقدم ماوصلنا من آثار ووثائق لاتمثل البداية ابداً ، بل تصور مرحلة متأخرة نوعاً ما فجذور الحضارة تمتد الى عصور ما قبل التاريخ ... ومعارف هذه الفترة مهما كانت ضئيلة وغير كاملة من وجهة نظرنا ولكنها في الوقت نفسه قابلة للكمال شأنها في ذلك شأن الحضارة في يومنا هذا ، فبالرغم من كونها راقية وذات خصائص اعمق بكثير الا انها غير كاملة وقابلة للكمال ايضاً ، آخذين بنظر الاعتبار انه منذ مطلع الالف الثالث ق.م. ، اي منذ بداية العصور التاريخية صارت معلوماتنا تزداد عن المجتمع القديم تدريجياً . واذا ما تقدمنا خطوة اخرى نحو العصور التاريخية ، نجد كثرة ملموسة في النصوص المسمارية التي تسلط الاضواء على مختلف اوجه النشاط الانساني في العصور القديمة . وبزيادة التدوين في الالف الثاني ق.م وانتشاره بشكل اوسع من السابق ، تصبح معلوماتنا غزيرة عن جوانب عديدة من اوجه الحضارة في الوطن العربي القديم .

ولكن يجب ان لايفوتنا التأكيد هنا على انه من البديهي ان اناساً في قطر ما قد تفوقوا على مواطنيهم في نفس القطر ، وان قطراً ما استطاع التفوق على اقطار اخرى وان اهله برعوا في خصائص حضارية لم يتوصل الآخرون اليها . وكان العراقيون اول من ابتكر العديد من المقومات الحضارية ولهم قصب السبق في العديد من المعارف والعلوم التي انارت فجرهم الحضاري وامتدت وانتشرت الى ارجاء بعيدة من العالم القديم .

عصور قبل التاريخ :

ان حضارة الامة تستمد اصالتها من جذورها البعيدة الممتدة عميقاً في تربة هذه الارض المعطاء ، وهي جذور قديمة قدم الانسان نفسه . ان

البحث عن اصول الحضارة وجذورها في الوطن العربي موضوع طويل ومتشعب ، ولكن في استطاعتنا ان نوجز وبشيء من التركيز ما شهدته هذه الارض من بذل وعطاء انساني متواصل . ففي اعماق هذه الارض المعطاء يعثر على متحجرات يرقى زمن البعض منها الى (١٫٧٥٠٫٠٠٠) سنة مضت حيث عثر في تل العبيدية في فلسطين بالقرب من الساحل الجنوبي لبحيرة طبرية على متحجرات عظيمة وعلى بعض الالات الحجرية البدائية التي تشبه ما وجد من آلات في مواقع مايعرف بمصطلح «الانسان القرودي» في اولدفاي بتنجانيقا وفي ليبيا والحبشة ، علماً بان تاريخ هذه المخلوقات قد تحدد بواسطة الساعة الذرية او مايعرف بارغون - بوتاسيوم . وفي كهف عدلون وجدت مخلفات يرقى زمنها الى حوالي (٦٠٠٫٠٠٠) سنة مضت ايضا . وفي الاردن ، اسفل جسر بنات يعقوب وفي العراق عند اطراف حوض سد صدام عثر على مايشابه ذلك . ووجد في الترنفين في الجزائر كسر عظمية لفكين متشابهين لفكوك انسان بكين الذي يرقى زمنه الى (٢٥٠٫٠٠٠) سنة مضت . وفي العراق عثر على آلات من هذه الفترة .. وعثر ايضاً على مخلفات مايعرف بانسان النياندرتال في كل من جبل الكرمل ومغارتي الصخول والطابون في فلسطين وفي ترففين وسيدي عبدالرحمن في الجزائر وفي كهف شايندار جبار برادوست بالقرب من راوندوز عثر على هياكل عظمية كاملة لانسان النياندرتال الذي يرقى زمنه الى حوالي (٦٠) الف سنة مضت . وربما ستكشف لنا التنقيبات القادمة عن نماذج لبشرا قدم من هؤلاء ..

ولعله من المفيد ان نذكر بان اول الهياكل للانسان الحديث (أو العاقل) قد عثر عليها في الطبقات العليا من جبل الكرمل وفي مغارتي الصخول والطابون ... اما خلال العصر الحجري القديم الاعلى الذي يقدر

بحوالي (٢٥٫٠٠٠) سنة مضت فقد وجدت مخلفات اثرية كثيرة في العراق وفلسطين والجزائر وتونس وغيرها . وفي حدود (١٢٫٠٠٠–٩٫٠٠٠ ق.م) سادت ثقافات هذا العصر في معظم الاقطار العربية المذكورة آنفاً وبخاصة في مواقع شدر بالقرب من جمجمال ومواقع ملفعات على الخازر ، بين الموصل واربيل ، وفي اريحا بفلسطين وقفصة في تونس وهوا فطيح في ليبيا اضافة الى مواقع اخرى في الجزائر وغيرها من الاقطار العربية .

اما الادوار اللاحقة في الوطن العربي فقد سادت وعمت معظم ارجاء الوطن العربي . ومن اشهر المنجزات واكثرها اثارة للدهشة هي التحصينات التي عثر عليها في اريحا والتي تتمثل في سور المدينة وبرجها والخندق الخارجي المحيط بالسور . وشهد العصر الحجري الحديث أدوار حضارية في مواقع اخرى عديدة منها البداري في مصر وخلف وحبدية الكبيرة والصغيرة وتل سريبط وغيرها في سوريا .. ومواقع متعددة في ليبيا وشمال افريقيا عموماً ... اما في العراق فيمكن تعداد الادوار الحضارية هذه بالادوار التي شهدتها مواقع زاوي جمي وجرمو في كركوك وحسونه في الموصل وسامراء في محافظة صلاح الدين وحضارة خالف والصوان والعبيد والوركاء وحميدة نصه . ويمتد تاريخ المواقع السالفة الذكر مابين (٩٫٠٠٠ و ٣٫٥٠٠ ق.م) .

وقبل الدخول في تفاصيل الفترة اللاحقة لابد من الاشارة الى وحدة المقومات الحضارية للوطن العربي وبخاصة تلك المقومات التي ظهرت في العراق وسوريا وفلسطين ومصر والخليج العربي .. آخذين بنظر الاعتبار ماجئنا على ذكره اعلاه حول تميز بعض الناس وبعض الاقطار في هذا المجال او ذاك فبعد ظهور الفخار في العراق لم يلبث ان ظهر في سوريا وفلسطين ومصر بفترة وجيزة .. ومثال آخر هو عصر «الثورة الزراعية»

الذي بدأ في العراق وانتشر في بقاء واسعة من الوطن العربي وبخاصة في مصر وسوريا والخليج العربي وينطبق الشيء نفسه على استخدام دولاب الفخار الذي ابتكر في العراق قبل غيره من الاقطار العربيـــة ، الا اننا سرعان ماتجد السوري والمصري وابن الخليج يستخدمه مـــع اضافــــة التحسينات أو تكييفه لحاجة المنطقة . وفي مجال العمارة والفكر الدينـــي والفن ثمة نماذج اثرية كثيرة يمكن الاستدلال بها عـلى هـــذه الوحــدة الحضارية .. ولعل ما عمل في وحدة هذه الخصائص الحضارية وســـرعة تناقل وتبادل الخبرات هو ما يتميز بــــه هذا الوطن من طبيعة جغرافية مكنت الشعب من سرعة الاتصالات وتبادل مثل تلك الابتكارات . على ان العصور اللاحقة شهدت تعاظم مثل هذه الوحدة وتبلور البعض منها وصولا الى سمات مدينة تميز بها الوطن العربي عن غيره من الاوطان وكان سباقاً في العديد من المجالات العلمية والاجتماعية والاقتصادية والادارية والفنية . وسنتناول البعض من هذه السمات لاحقاً .

الكتابة وعصر فجر التاريخ :

ومع اختراع الكتابة نصل الى الفترة التي يسميها المتخصصون بالاثار والتاريخ «بالعصور التأريخية» حيث تبلورت عندها عناصر حضارية عديدة في مجال العمارة والفن والادارة والجيش وابتكار انظمة الحكم . وبظهور الكتابة ندخل عصر التدوين وتوثيق جوانب من حياة الانسان اليوميـــة . وقد مرت الكتابة بسلسلة من الاطوار جرت عليها تحسينات مـــن قبل الاجيال اللاحقة . وفي هذا المجال نذكر بان الكتابة التي كانت صورية في طورها الاول ومن ثم رمزية فمقطعية او بقيت كما هي عليه صورية بالنسبة لمصر ، هي من اهم المظاهر الحضارية التي تشهد بوحدة الحضارة العربية وتمييزها على غيرها من الامم في هذا المضمار .. فالكتابة ظهرت في جنوبي

العراق في حدود ٣٥٠٠ ق٠م وانتشرت الى شماله بعد وقت قصير ومنه الى سوريا والى مصر ٠ وقد ظهرت الكتابة في مصر بعد اقل من قرنين من تاريخ اختراعها في العراق واخذت أمم كثيرة هذا الابتكار عن العراق ومصر ومنهم العيلاميون في جنوب غرب ايران الذين لم يكتبوا بالخط المسماري فحسب بل تبنوا اللغة الاكدية في كتاباتهم وتركوا لغتهم الاصلية مثلهم مثل الغزاة الكوتيين والحثيين والكشيين والخوريين والاورارتيين والفرس وغيرهم من الذين مروا ببلاد وادي الرافدين ٠

وعلى اية حال فان اختراع الكتابة جاء كنتيجة للحاجة الملحة لحفظ سجلات الواردات الكبيرة التي كانت تصب في المراكز الحضارية في العراق وسوريا ومصر وغيرها من الاقطار العربية التي تميزت في رقي حضاراتها وما ابتكرته من الآت وادوات ومنسوجات وما كانت تجود به ارضهم المعطاء من محاصيل وفيرة ومتنوعة ٠

ومن المفيد ذكر ، ان العديد من العلماء يعتقدون بان الكتابة المسمارية التي ابتكرت في العراق هي اساس كل الخطوط في العالم وانه لا مجال للشك في ان الكتابة المسمارية واللغة الاكدية اصبحت في حدود القرن الخامس عشر ق٠م اللغة الدبلوماسية للمخاطبة لعدد من دول قاصية ودانية عن بلاد وادي الرافدين ٠

الدولة ونظام الحكم :

وما يقال عن الخط واللغة يقال ايضاً في مجال ظهور دويلات المدن وتطور ذلك الى دول موحدة وجيوش منظمة تحت قيادة ملوك عظماء بكل معنى الكلمة ٠ فلقد شعر البعض من هؤلاء الملوك بما نشعر به الآن حول اهمية وحدة الوطن والامة فحاول العديد منهم تحقيق ذلك ومن اشهرهم في هذا المجال سرجون الاكدي (٢٣٧١ ـ ٢٣١٦ ق٠م) وحفيده نرامسين

(٢٢٩١ ـ ٢٢٥٥ ق٠م) وحمورابي (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ ق٠م) وسنحاريب (٧٠٤ ـ ٦٨١ ق٠م) وخلفائه وبخاصة الملك العظيم اشور بانيبال (٦٧٢ ـ ٦٢٦ ق٠م) ، وماقام به الملوك المصريون والسوريون يصب في نفس الاتجاه فسرعان ما انتشرت مثل هذه الانظمة الاداوية العالية الى الاقطار العربيـة الاخرى ومنها الى جيران الوطن العربي وعمت العالم بعد ذلك بفترات بعيدة وبخاصة تلك الانظمة الخاصة بترتيب الجيوش وتوزيع القطعات وادارتها ورفدها باساليب متطورة ومتعددة للقتال ٠

التعليـم :

يدين العالم بالفضل الى سكان بلاد وادي الرافدين لابتكارهم نظام دور السجلات والارشيفات والمدارس مثلما يدين للمصريين باعتبارهم اول من صنع الكتاب ٠ وتجدر الاشارة هنا ايضاً الى ان اللغة والكتابة هـي التي مكنت البشرية من نقل المعارف والعلوم والآداب والفنون وحفظهـا للاجيال اللاحقة ٠ كما ينبغي التأكيد على ان عام اللغة ليس من احـداث العلوم كما يعتقد البعض بل ربما اقدمها فبالرغم من ان عامة الناس هـم الذين اوجدوا اللغة فان علماء اللغة او «المعلمون» ، هم الذيـن وضعوا القواعد وطوروها ، وكان قصب السبق في تصنيف المقدرات اللغوية ونحوها وحفظ مقدراتها يعود للعراقيين حيث عثر على الكثير مـن «كتب» تعليم التهجية وكتب القواعد التي هي عبارة عن تصريفات نحوية ووصولا الى تاليف مايمكن تسميته بالمعاجـم اللغويـة Lexical - Texts

كما ان موضوعات هذه المعاجم تفيد ايضا في تتبع جوانب مختلفـة مـن معارف القوم وعلومهم بخصوص الكثير من الموضوعات ٠ وبعض هذه يتطرق الى ذكـر الانهار أو الثمار او الحيونات او الاحجار وغير ذلك في صـورة تقرب كثيراً من طريقة التاليف الموسوعية التـي تعـرف ايضاً بدائـرة

ونجدر الاشارة في هذا المجال ايضاً الى انه بالرغم من التباين في اللهجات او اللغات التي تكلم بها الناس الذين سكنوا بعض أجزاء الوطن العربي الا ان وحدة اللغة كانت هدف من الاهداف القديمة التي تحلى بها من عاش ابان الالف الثالثة ق٠م في سوريا والعراق وربما حتى في الجزيرة ٠ فنحن متأكدون من ان سكان ابلا (تل مرديخ) في سوريا قد تكلموا وكتبوا بالاكدية ٠ وخير مثال يذكر هو ما حدث في مطلع الالف الثاني ق٠م وذلك عند هجرة الامويين من بلاد سوريا واستقرارهم في العراق ، فالظاهر انهم تنحوا عن لغتهم او لهجتهم وتبنوا اللهجة البابلية الاكدية كتابة وتكلماً ، ففي فترة قصيرة نرى ان اسماءهم «السامية ـ الغربية» قد تبدلت الى اسماء اكدية ٠ ومادمنا نتحدث عن اللغة والكتابة فلا بأس اذن من ذكر ماذهب اليه بعض العلماء الاوربيين انفسهم عن ان لغاتهم القديمة شأنها شأن لغتهم الحديثة قد اغنيت ببعض المفردات البابلية والمصرية القديمة فعلى سبيل المثال ما اورده العالم جورج سارتون والاستاذ هنري ساكز وغيرهم :

مفردات باللغة الاكدية	في اللغات الاوربية وبخاصة الانجليزية	المعنى بالعربية
kasu	Cassia	القثاء
kamunu	Cumin	كمون
kurkanu	Crcus	كركم
gassu	Gypsum	جص
naptu	Naphtha	نفط
azupiranu	Saffron	زعفران
murru	Myrrh	مر
guhlu	Alcohd	كحول

قلـي	Alkali	qalatu
قـرن	Cornu	qarnu
من (وحدة وزن)	Mina	mana
شيقل	Shekel	siqlu
كـرز	Cherry	karasu
مشمش	Armeniaca	armanu

وفي ختام حديثنا عن اللغة والكتابة لابد مـن الاشارة أيضاً الى ان العالم بأسره يدين لهذه الامة العريقة باختراع اول ابجدية في التاريـخ • سواء كانت مقاطع أبجدية مصرية او اوغاريتية (رأس شمرا في سوريا) او حروف ابجدية فنيقية او بنطية او آرامية او عربية المسند ، مثلما يدين العالم باول اختراع للاوراق البردية على يد المصريين •

الاداب :

ومما ينبغي التسليم به ان النتاج الادبي لهذه الامة يأتي في مقدمـة المظاهر الحضارية التي تسلحت بها هذه الامة لما لهذه الاداب مـن سـمة عالمية وذلك لمعالجتها أروع المثل في الحياة الانسانية • ان اهم مايميز هذا النتاج الادبي كونه اقدم الآداب في العالم • ومما عزز هذه الميزة هو ان هذا النتاج الفكري العالي قد جاءنا بهيئته الاصلية دون تحوير • واذا ما اردنا الحديث عن اثر هذا الادب على الاداب الاخرى فمن المعـروف أن الادب العراقي القديم ترك أثراً واضحاً في اداب الامم القديمة وانه أنتشر الى أرجاء واسعة من العالم القديم • فاثر ملحمة كلكامش واضح على الادب الحثي والخوري واليوناني والهندي وايراني وغيرهم • ومن القطع الادبية الفريدة التي نذكرها قصة فقير نفر، التي وجدت نسخة منها في سلطان تبه في تركيا والقطعة الادبية الرائعة المعروفة بقصة أدبا التـي عثر عليها في تل العمارنة في مصر • وجدير بالذكر ان الحثيين كثيراً ماقاموا بنقل العديد

من المقومات الحضارية وبضمنها الادب الى اليونان وغيره من بلـدان اوربا بحيث يستطيع الباحث ان يشخص العديد من مقاطع ملحمة كلكامش في الادب اليوناني وبخاصة في الالياذة والاوسة ٠٠ ويستطيع الباحث ايضـاً ان يشخص بعض التأثيرات الكنعانية والاموية والسورية والتاثيرات المصرية بشكل واضح ليس على الاداب القديمة فحسب بل في استمرار اثرها فـي النواحي الروحية لحضارتنا حتى الوقت الحاضر ٠

المعتقدات الدينيـة :

ونتنقل الآن لالقاء بعض الضوء على المعتقدات والافكار الدينية التـي هي دون ادنى شك من نتاج انسان وطننا العربي ذلك لان للديانة اثـر كبير في حياة الفرد والمجتمع وهو من اهم العوامل الروحية المؤثرة في سير وتطور حضارة الوطن العربي فاثر الدين على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفنية واضح في معظم المراكز الحضاريـة العربية ٠ امـا السمات المشتركة او الوحدة الحضارية لهذا النتاج الروحي للامة فيمكن ان نتلمسه من خلال العديد من الامثلة وبخاصة تلـك الافكار والطقوس الخاصة بعبادة اله الخصب تموز الذي عرف باسم بعـل عند الكنعانيين السوريين واوسيرس عند المصريين وظهوره بنفس الاسـم في معتقـدات العبرانيين ٠ والبحوث في هذا المجال كثيرة وبخاصة بحوث استاذي وزميلي الدكتور فاضل عبدالواحد علي ٠ وفي هذا المجال ايضاً تجدر الاشارة الى كتاب الاستاذ جيمس فريزر (The Goloen Bough) «الغصن الذهبي» الذي ترجم جزء منه الاستاذ جبرا ابراهيم جبرا وكتاب استاذي البروفسور ساكز «عظمة بابل» (The Greatness that was Babylon) .

اما انتشار مثل هذه المعتقدات الى الحثيين والخوريين ومنهم الى اليونان حيث انها تركت اثراً واضحاً في قصة ادونيس وفروديت فواضح ٠

ويذكر في هذا المجال ايضاً انتشار فكرة الطوفان وقصة خروج آدم من الجنة وقصة مولد سرجون المشابهة لقصة مولد النبي موسى وقصة النبي ايوب .. اضف الى ذلك فكرة التفريد وفكرة التثليث وافكار اخرى خاصة بالصراع بين الخير والشر والتي وصلت الى الكثير من الامم ومنها الهندية والايرانية . ولعله من المفيد ايضاً ذكر بعض الافكار الأخرى ذات العلاقة بالطبيعة وتقديس بعض المظاهر الطبيعية المتمثلة بالشمس والقمر والنجوم والبرق والرعد والمطر وغير ذلك من المظاهر الطبيعية ، وتشبيه الآلهة على هيئة بشر واعطائها صفات وطبائع البشر ، فهي تأكل وتشرب وتتزوج ولها ذرية ولها مجلس تتبادل فيه الرأي كما انها تدخل في صراعات بعضها مع البعض الآخر على غرار ما يفعل البشر تماماً .

التنظيمات الاجتماعية والقوانين :

واذا ما انتقلنا في حديثنا الى التنظيمات الاجتماعية والقوانين فان العديد من الباحثين قد تحدثوا عن قصب السبق لبلاد وادي الرافدين في هذا المجال . وخاصة تلك التنظيمات المتعلقة بالزواج والطلاق والتبني واعتماد «الديمقراطية» ، او على اقل تقدير شكل من اشكالها التي لم يصل اليه الاوربيون او غيرهم من الاقوام الا بعد السومريين والاكديين والكنعانيين والمصريين بعشرات القرون . وفي هذا الخصوص يمكن ان نكتفي بالمثال المعروف حول مجالس الشيوخ ومجالس المحاربين في دولة المدينة السومرية . ان مثل تلك الانظمة خلقت بالضرورة قادة متفانين ومتميزين عن غيرهم بالكثير من العطاءات . اما في مجالس التشريعات القانونية فيمكن ان نشير الى اقدم ما وصلنا منها من العراق حوالي (٢٤٠٠ ق.م) وهي اصلاحات اور واتمكينا ومن ثم تشريعات اور نمو (٢١١٣ ـ ٢٠٩٥ ق.م) وقانون ليت ـ عشتار (١٩٣٤ ـ ١٩٢٣ ق.م)

وقوانين مملكة اشنونا التي ظهرت بعد ذلك بقليل ، وقوانين حمورابي الشهيرة (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ ق٠م) ٠ التي حاول الغزاة العيلاميون تحريفها ٠ ثم القوانين الاشورية الوسطية والحديثة وبعض التشريعات البابلية الحديثة ٠ ان كل تلك القوانين اثرت بشكل مباشر في انظمة وقوانين الاقوام الاخرى كالحيثيين والخوريين والاقوام الفارسية والاغريق والرومان وغيرهم ٠ ولايزال اثر العديد من هذه التشريعات قائم الى يومنا هذا ٠ وقد تطرقنا الى تفاصيل هذا الموضوع في بحث لنا نشر في مجلة سومر

المعارف والعلوم :

ومن الامثلة الاخرى التي ترينا الوحدة الحضارية لهذه الامة المجيدة هو ما ساد الاقطار العربية ابان العصور التاريخية من تقدم في مجال المعارف والعلوم وانتشارها وتاثيرها على العديد من البلدان والامم ٠ ففي مجال التدوين التاريخي الذي كثيراً ما نسبت الاسبقية فيه الى اليونان وابنها هيرودوتس ، الا ان الدراسات المسمارية اماطت اللثام عن كون العراقيين هم السباقين في هذا المضمار وخاصة ما يتعلق بقوائم سني حكم الملوك وحولياتهم وصولا الى كتابة مايعرف«بكتب الاخبار»

ومن المعارف المهمة ضبط مشاريع الري واقامة السدود وشق القنوات ، والتعدين ومزج المعادن للحصول على معادن افضل بالاضافة الى صناعات محلية متعددة ومنها صناعة الزجاج وصولا الى الحد الذي مكن البعض من البابليين محاكاة احجار اللازورد الاصلية وارسالها الى الملوك الحثيين كهدايا ولسنين طويلة دون ان يكتشف احد ذلك الا بعد وقت طويل ٠ وان دل هذا على شيء فانما يدل على المكانة العالية التي وصلها العراقيون في علم الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية ٠

اما بخصوص علم الرياضيات فمن المعروف انـــه كـان العراقيون والمصريون اول من وضع اسس هذا العلم ٠ وبات من المؤكد ان الكثير من المبادىء الرياضية التي كانت تعزى الى رياضي اليونان مثل فيثاغورس واقليدس وغيرهم ، كان قد سبقهم اليها العراقيون والمصريون بالـف عام أو يزيد ٠٠ ويدين العالم باسره للعراقيين في تثبيت المرتبـــة العدديـــة واستخدم النظام الستيني الذي بقيت آثاره الى يومنا هذا في تقسيم الساعة والدوائر وحساب درجاتها بالاضافة الى تقسيم الايـام الى ساعات وكثير من اسماء الاشهر وانظمة القياس والاوزان ٠ ومثلما يدين العالم للبابليين يدين للمصريين ايضاً باستعمال النظام العشري وكتابة الكسور والمعادلات المختلفة ٠٠ ولقد ظل الكثير من الكتاب الاغريق يعتبرون المصريين اساتذتهم في الرياضيات شأنهم شأن اولئك الذين تتلمذوا على ايدي البابليين فـــي مجال علوم الفلك والتنجيم ٠٠ ويجب ان لايفوتنا هنا التأكيد على توصـل العراقيين في العهد البابلي المتاخر الى ابتكار مرتبة الصفر وعملوا بـــه والذي كتب بهذه العلامة Chrnicles اما علم الهندسة الذي يعتقد بانـــه نشأ في مصر والجبر الذي نشأ في بلاد وادي الرافدين فتأثيرها على العالم القديم واضح وجلي فلم يصل الكثير من الغربيين الى المرحلة التـي وصلها المصريون والبابليون الا بعد الاف من السنين ٠ اضـف الى ذلـك كلـــه كتابة الارقام ٠

ان تقدم الحضارة العربية في مجال الرياضيات مكنهم من الخوض في مضمار علوم اخرى كعلم الفلك حيث وصلتنا ارصاد دقيقة عن الكواكب والنجوم والمذنبات ٠ وان السبق في هذا المجال هـــو للعراقيين بالتاكيد الذين اشتهروا به منذ الالف الثانية ق٠م وربما قبل ذلك وتطور عـــلى ايديهم في الفترات اللاحقة ٠ اما تاثير هـــذا العلم عـلى الامم والبلـــدان

فلا زال شاخصا في مايعرف بالابراج ورصد الظواهر الطبيعية ودورتهـــا وبخاصة مايتعلق بالخسوف والكسوف ·

العمارة والفنون :

اما في مجال العمارة والفنون فوحدة الحضارة العربية في هذا المجال واضحة ايضاً · فبالنسبة لابنية بلاد وادي الرافدين وماري (تل الحريري) فهي متشابهة ، وابنية آشور وكوزنة (تل خلف) والزقورة والهرم المدرج والاعمدة والاقواس ومواد البناء وفنون النحت والحفر والزخرفـــة · اما تأثير هذه النتاجات على عمارة وفنون الامـــم والبلدان فواضـــح بالنسبة للحثين والخوريين والاورارتيين وايرانيين وبلاد اليونان والرومان وغيرهم ولا مجال هنا للحديث بالتفصيل ·

خاتمـــة :

من كل ما تقدم نستطيع ان نقول وبكل ثقة بانه لاتوجد أمة من الامم ذات حضارة اصيلة كأصالة حضارة الامة العربية ، حضارة متواصـــلة قدمها قدم الانسان نفسه · فاية امة في العالم تمتلك مثل هذه الجـــذور الحضاريـــة ؟

ان تحدي بعض الامم ، وبخاصة الامم الحاقـــدة والحاســـدة لامتنا العربية اتخذت شكلا تخريبياً من اجل الحد من دور بعض الناس المتميزين في قطر ما أو احد مـــن دور قطر متميز على غيره من الاقطار ، ولذلـــك فان ما اصاب العراق ومصر من تخريب على يد تلك الامم الحاقدة شـــاهد على آثامهم ·· اما اعتداءاتهم المتكررة فكانت تستهدف قبل كل شيء المراكز الحضارية والفكرية · فتخريب اكد ومن ثم اور والوركاء ونفر وسبار وفي الفترة الاخيرة من العهد البابلي الحديث والمتأخر نينوى وبابل والحضـــر والحيرة في نهاية العهود القديمة شاهد على جرائم تلك الاقوام الحاقدة ·

وبدلا من ان تعترف بعض الامم المجاورة بالجميل الذي قدمته لها الامة العربية في عصورها القديمة والعربية الاسلامية عندما اخذت كثيراً من المفاهيم والمنجزات والمظاهر الحضارية من بلاد وادي الرافدين والاقطار العربية الاخرى ، لكنها تمادت في غيها وذهبت تحاول تخريب المراكـز الحضارية في الاقطار العربية بشتى الوسائل • ان الشواهد التاريخية على هذا النهج العدواني التخريبي واضحة كل الوضوح خلال الحقب التاريخية المختلفة ، لكن الوطن العربي وفي مقدمته العـراق سيبقى ينبوعا لاينضب للعطاء ولاغناء البشرية من اجل خيرها وسعادتها •

ـ (قدم ملخص هذا البحث بعنوان «التحدي الحضاري للامة ؟ فـي الندوة الفكرية الثانية في فكر الرفيق القائد صدام حسين ، فرع الرشيد ، ٥/٥/١٩٨٤») ـ

المراجـــع

(١) د • فاضل عبدالواحد علي ، عشتار ومأساة تموز بغداد ١٩٧٣ •

(٢) د • فاضل عبدالواحد علي ، الطوفان في المراجع المسمارية ، جامعـة بغداد ١٩٧٥ •

(٣) د • فاضل عبدالواحد علي ، صبر ايوب بين النصوص المسماريـة والتوراة ، مجلة كلية الاداب ، عدد ٢٣ سنة ١٩٧٨ •

(٤) د • فاضل عبدالواحد علي ، «جنة عدن والفردوس المفقود» ، مجلة كلية الاداب ، ٢٣ ، ١٩٧٨ •

(٥) د • فاروق ناصر الراوي ، «الوثائـق المسماريـة» : شواهد عـلى انتصاراتنا في عيلام ، مجلة بين النهرين ٣٤ ـ ٥٠ سنة ١٩٨١ •

(٦) د • فاروق ناصر الراوي ، «معارك النصـر : سـجلاتها في الكتابات المسمارية» ، المؤتمر العلمي الاول لجمعية المؤرخين والاثاريين فـي العراق بغداد ١٩٨١ •

(٧) د • فاروق ناصر الراوي ، «الرياضيات : احد اهم المظاهر الحضارية في العراق القديم «الندوة العلمية الوطنية» للمؤسسة العامة للآثار والتراث بغداد ١٩٨٣ •

(٨) د٠فاروق ناصر الراوي ، «الاعتداء والإيذاء» سومر ، ٢٨ ٠

(٩) مجموعه من الاساتذة والباحثين ، العراق في التاريخ ، وزارة الاعلام، بغداد ، ١٩٨٣ ٠

(١٠) مجموعه من الاساتذة والباحثين ، الصراع العراقي الفارسي ، وزارة الاعلام ، بغداد ١٩٨٣ ٠

(١١) جورج سارتون ، تاريخ العلم ، ترجمة مجموعـــة مـــن الباحثين العرب ، مصر ١٩٥٧ ٠

(١٢) ابو الوفاء البوزجاني ، علم الحساب العربي – حساب اليد ، تحقيق د٠احمد سعيدان ، الاردن ، عمان ١٩٧١ ٠

(١٣) طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، بغداد ، ١٩٧٣ ٠

(١٤) طه باقر ، مقدمة في ادب العراق القديم ، بغداد ، ١٩٧٦ ٠

(١٥) جيمس فريزر ، ادونيس او تموز ، دراسة في الاساطير والاديان الشرقيه القديمة ، ترجمـة جبرا ابراهيم جبرا ، المؤسسه العربيـة للدراسات والنشر ١٩٧٩ ٠

(١٦) وليم ن٠اولبريت ، آثار فلسطين، ترجمة زكي اسكندر و د٠ محمد عبدالقادر محمد ، مصر ١٩٧١ ٠

(١٧) مارتن ليفي ، الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية في وادي الرافدين، ترجمة د٠جليل كمال واخرون ، وزارة الاعلام ، بغداد ، ١٩٨٠ ٠

(١٨)

(18) A.K. Grayson, Assyrian and Babylonian chronicles, U.S.A. , 1975.

19 — S.N. Kramer, The Sumerians, U.S.A. , 1967 .

20 — D. Neugebauer, The Exact Sciences in Antiquity, U.S.A. , 1962 .

21 — Dond j .Oates, The Rise Civitization, London, 1976 .

22 — J. Raux, Ancient Iraq, Penguin, 1964

24 — H.W.F. Saggs, Everyday life in Babylonia and Assyria, london, 1968 .

23 — H.W.F. Saggs, The Creatness that was Babylon, London , 1968 .

25 — D.J. Wiseman, Peoples of Old Test ament Times, London , 1973 .

الدول الكبرى واستقلال اليونان
١٨٢١ - ١٨٣٢

الدكتور هاشم صالح التكريتي
كلية الاداب - جامعة بغداد

كانت السيطرة العثمانية على اليونان تعيق تطور الزراعة والصناعة الحرفية والتجارة الداخلية في اليونان ، ولهذا فقد كان الموسرون يفضلون استثمار رؤوس أموالهم في الوساطة التجارية بين الشرق والغرب · وقد اتسعت الملاحة اليونانية بشكل كبير بعد عقد معاهدة كجك كينارجة ، لان هذه المعاهدة ضمنت حرية الملاحة التجارية خلال المضايف وأصبح رعايا الدولة العثمانية المسيحيون بموجبها يتمتعون بحماية روسيا · وهكذا شهدت التجارة اليونانية توسعاً لم يسبق له مثيل وظهرت المراكز التجارية اليونانية في جميع الموانىء الكبرى الواقعة على البحرين المتوسط والاسود·

وكان اليونانيون ينقسمون الى فئتين الأولى أقلية موسرة تتمتع بكل مباهج الحياة ويشغل المنتمون اليها في جهاز الدولة العثماني أعلى الوظائف حتى أن الحكومة العثمانية كانت تعين أفراداً من هذه الفئة حكاماً لأقاليمها المسيحية في البلقان · لقد كان نفوذ هذه الأقلية التي تعرف بالفناريين (نسبة الى حي الفنار في اسطنبول) من السعة بحيث «ان تركيا المسيحية كانت في منتصف القرن الثامن عشر في ايدي اليونانيين»(١) · أما الفئة الثانية فهي الأغلبية الساحقة من اليونانين الذين كانوا يعيشون في فقر شديد وجهل مطبق وظروف حياتية قاسية ، ويتعرضون لمظالم الأتراك والحكام من اليونانيين على السواء ·

لقد أدى اتساع التجارة في اليونان الى تكون وتنامي البرجوازية

اليونانية التي أصبحت تعاني من الحكم العثماني ولهذا فقد أخذت تسعى الى التخلص منه • وكان ذلك أساساً لظهور اتجاهات فكرية تحررية مختلفة • ففي الوقت الذي كان فيه بعض المتنورين اليونانيين يدعون الى انشاء جمهورية في اليونان بعد تحريرها من السلطة العثمانية كان الفناريون يسعون الى انشاء امبراطورية واسعة تضم الشعوب الاخرى في شبه جزيرة البلقان • اما الفلاحون اليونانيون الذين كانوا يتعرضون للاستغلال ويعيشون حياة صعبة فقد شنوا طوال القرن الثامن عشر كفاحاً مسلحاً ضد السيطرة العثمانية فكانت فصائل الانصار التي يطلق عليها اسم «كايفتي» تواصل حربها ضد العثمانيين ، الى جانب الانتفاضات التي كانت تقوم في المدن بين آونة واخرى(٢) •

تكونت في بداية القرن التاسع عشر جملة من الظروف ساعدت على اتساع النضال القومي في اليونان • فقد تفاقم الصراع الداخلي في الدولة العثمانية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وضعفت سلطة الحكومة المركزية العثمانية مما أدى الى قيام حركات انفصالية قام بها عدد من الباشوات المحليين ، ثم جاءت الحرب الروسية ـ العثمانية ١٨٠٦ ـ ١٨١٢ والنجاحات التي حققتها حركة التحرر في (صربيا) فعمقت تفاقم الأزمة الداخلية في الدولة العثمانية ، وازادت من ضعفها واظهرت استعداد روسيا ، لمساعدة الشعوب البلقانية الساعية الى التحرر من سيطرة الدولة العثمانية ، تحقيقاً لتوسيع وترسيخ نفوذها في البلقان •

وهكذا تأسست في أيلول ١٨١٤ في مدينة أوديسا الروسية ، التي كان يعيش فيها عدد كبير من التجار اليونانيين جمعية سرية اطلق عليها اسم : «فيليكي اشيريا» (جمعية الاصدقاء) وليس «هيتريا» كما اعتاد الباحثون على تسميتها(٣) ، تألفت في البداية من التجار اليونانيين القاطنين

في روسيا ثم وسعت نشاطها ليشمل اليونان نفسها واقاليم الدولة العثمانيه المختلفة في اوربا واسيا والجاليات اليونانية في أقطار اوربا الغربية - وفي عام ١٨١٨ نقلت الجمعية مركزها الى اسطنبول وبدأت تقيم اتصالات ليس مع اليونانين فحسب ، بل مع السلاف والرومانيين ايضاً وحددت هدفها بتحرير اليونانين وشعوب البلقان الاخرى من السيطرة العثمانية ، وبذلك تكون «اول جمعية ثورية في البلقان نشرت نشاطها في جميع الاراضي اليونانيه وبين الجاليات في الخارج»(٤) . وفي عام ١٨٢٠ أصبح الكسندر ابسيلانتي وهو ابن كوسبودار (حاكم) ولاكيا السابق ويعمل ضابطاً في الجيش الروسي زعيماً للجمعية التي اخذت تتوسع بسرعة حتى أصبح عدد اعضائها في عام ١٨٢٠ يتراوح مابين ٨٠ ألف و٢٠٠ ألف عضو(٥) .

شجعت الانتفاضات التي قامت في اسبانيا والبرتغال والدويلات الايطالية الوطنيين اليونانيين وحفزتهم على العمل ، فقررت جمعية «فيليكي ابتيريا» القيام بالثورة ، وعلى هذا الأساس عبر الكسندر ابسيلانتي في اذار عام ١٨٢١ نهر بروت الى ملدافيا على رأس فصيل عسكري صغير هادفاً دفع الشعوب البلقانية الى الثورة على العثمانيين ، غير انه فشل في الحصول على اسناد الفلاحين في امارتي الدانوب لانه رفض الغاء امتيازات النبلاء(٦) كما فشل في الحصول على تعاون أمير صربيا مياوش ابرينوفتشن في عندما اقترح عليه في بداية عام ١٨٢١ عقد حلف دفاعي وهجومي ، وفشل ايضاً في التعاون مع تيودور فلاديمير سكو الذي نجح في تنظيم انتفاضة كبيرة في ولاكيا ، كما أن آماله التي علقها على الاسنان الروسي لم يكن لها اساس . فقد بادر الكسندر الاول بمجرد سماعه بغزو ابسلايتني للراقيا الى احالته عن وظيفته في الجيش الروسي ورفض مناشدته بالعون ، بل

وسمح للعثمانيين بان يرسلوا جيشا الى مارافيا لاعادة النظام اليها وقد تمكن هذا الجيش من القضاء على قوات ابسيلانتي الذي اضطر الى اللجوء الى النمسا فقضى السنوات السبع التالية في احد سجونها[٧] ، الى ان أطلق سراحه في عام ١٨٢٧ بتدخل من روسيا ، ثم توفي في السنة التالية ٠

كانت حملة ابسيلانتي الفاشلة محفزاً للثورة في اليونان نفسها اذ لم تلبث ان اشتعلت في بداية نيسان انتفاضة واسعة في المورة بدأها الثوار بالقيام بمذبحة عامة ضد الاتراك هناك[٨] ٠ وردت السلطات العثمانية على ذلك باتخاذ اجراءات صارمة ضد اليونانيين ، فأعدمت عدداً من الفناريين البرزين ممن تعاون مع «جمعية الاصدقاء» وتعرض الموكب الذي نظم بمناسبة عيد الفصح في نيسان ١٨٢١ لهجوم من جانب الانكشارية واعدم البطريرك اليوناني في اسطنبول ٠ غير ان هذه الاجراءات لم تؤد الا الى اتساع الانتفاضة في اليونان ، فشملت بعض الجزر اليونانية في بحر ايجه واحرز الثوار عدداً من الانتصارات على قوات المكرمة ؛ ولم تلبث فصائلهم ان استولت على عدد من المدن والمواقع المهمة وفي مقدمتها اثينا وقلعة تربيوليتسا المهمة ، وقام الثوار في اثناء ذلك بمذابح شنيعة ضد الاتراك ذهبت ضحيتها اعداد غفيرة من الرجال والنساء والاطفال[٩] ٠ وقد بلغ عدد الذين ذبحهم اليونانيون من الاتراك المقيمين في شريبوليتا فقط بعد ان استولوا عليها مايزيد على ثمانية الاف شخص[١٠] ٠ وفي كانون الاول من عام ١٨٢١ عقد الثوار مجلساً تمثيلياً اعلن استقلال اليونان واقر في ١٣ كانون الثاني عام ١٨٢٢ دستوراً نص على سيادة الشعب والمساواة امام القانون ، وأناط ادارة البلاد بمجلس تشريعي ينتخب سنوياً ويتألف من نواب يمثلون الاقاليم المختلفة ، وبمجلس تنفيذي يمثل السلطة التنفيذية العليا ويتألف من خمسة اشخاص ويتمتع بصلاحيات واسعة ـ

وجرى تعيين أعضاء المجلس التنفيذي الخمسة واختير لرئاسته ماوروكور داتوس المعروف بميله الى بريطانيا(١١) .

كان لابد لأحداث اليونان ان تجذب انتباه الدول الاوربية الكبـــرى التي كان لكل منها مخططاتها الخاصة في اليونان وفي البلقان عموماً ، ولهذا فمن الطبيعي ان تسعى كل من هذه الدول الى استغلال الانتفاضة اليونانية لتحقيق مخططاتها . وأول هذه الدول كانت روسيا التي انتهجت في هذه الفترة سياسة مزدوجة ، وقد انعكست هـــذه الازدواجية حتى في الجهاز الذي كان يسير الدبلوماسية الروسية ، ونعني بـه وزارة الخارجية حيث كان يقف على رأس شخصان لاشخص واحد كما هو المألوف ، متساويان في الحقوق والصلاحيات ، هما ، الكونت نسلرودية ، والكونت كابودستريا اليوناني . وكان كل من هذين السياسيين يعكس جانبـاً مـــن توجيهات القيصر الكسندر الاول ، فنسلروديه كان محافظاً يسعى الى دعم الحلـف المقدس ويعمل على تحقيق اهدافه ، بينما كان كابود مستريا وطنياً يونانياً ينفذ رغبات القيصر في توسيع النفوذ الروس في البلقان وكان يوحي للقيصر بان تحرير اليونان بمساعدة روسيا من شأنه ان يعزز النفوذ الروس فـــي البلقان ويحاول اقناعه بأن الدفاع عن الارثوزكس الخاضعين للدولـــــة العثمانية «يوفر تغطية ايدولوجية للحقيقة التي تربك القيصر ونعني حماية الثوار اليونانيين ضد عاهلهم الشرعي السلطان»(١٢) .

ولكن الامور لم تجر على النحو الذي كان يريده كابودستريا ، ففـــي مؤتمر الحلف المقدس الذي عقد في تروباو في ٢٠ تشرين الاول عام ١٨٢٠ وانتهى في لايباغ في ١٢ ايار عـــام ١٨٢١ استطاع مترنيخ ان يبعد تأثير كابودستريا عن القيصر فقد استغل الانتفاضات الثورية التي اشتملت في عام ١٨٢٠ في اسبانيا ونابولي وبيدمونت والتي انعقد المؤتمر للنظر فيها،

وكذلك قيام احد افواج الجيش الروسي بتظاهرة ثورية ، لاقناع القيصر بان روسيا نفسها بدأت تشهد احداثاً ثورية مشابهة لما يجري في اسبانيا ونابولي فاستطاع بهذه الطريقة ان يدفعه الى المشاركة في ادانة الثوار اليونانيين . والواقع أن اخبار الثورة اليونانية التي وصلت الى الكسندر الاول وهو في لايباخ احرجته كثيراً ، ففي الوقت الذي كان فيه القيصر يناقش مع زملائه الاخرين في المؤتمر وسائل اخماد لهيب الثورة في اسبانيا والدويلات الايطالية يقوم جنرال في الجيش الروسي هو ابسلانتي باشعال الثورة على قرب مباشر من حدود الدولة الروسية . ولهذا فقد سارع الكسندر الاول الى ادانة الهبة الثورية الجديدة وسهل للدولة العثمانية عملية اخمادها كما اشرنا فكان ذلك نصراً واضحاً لمترنيخ الذي صرح قائلا: «نحن نجر الامبروطور الكسندر وراءنا ...»(١٣) .

ومع ذلك فقد تبين بعد فترة قصيرة ان هذا الموقف يتعارض مع «صالح الحكومة الروسية لانه كان يؤدي الى تقويض سمعة روسيا في نظر الشعوب البلقانية فضلا عن أن التدابير التي اتخذتها الحكومة العثمانية ضد الملاحة التجارية اليونانية ادت الى الاضرار بالتجارة الروسية في البحر الاسود كما ان ارسال الدولة العثمانية قواتها الى أمارتي الدانوب يعد خرقاً للاتفاقيات والمعاهدات المعقودة بين الحكومتين الروسية والعثمانية . وقد كان لذلك كله اثره في تغيير موقف الحكومة الروسية التي بادرت فطلبت من ستروغونوف ـ سفيرها في اسطنبول ان يقدم الى الحكومة العثمانية انذاراً يطلب فيه «سحب القوات العثمانية من امارتي الدانوب واعادة حرية الملاحة عبر المضايق وايقاف ملاحقة السكان الارتوذكس الذين ليست لهم علاقة بالانتفاضة» ويشير فيه الى أن رفض الحكومة العثمانية لذلك يضعها «في علاقات عدائية مكشوفة مع كل العالم المسيحي» و «يضفي

الشرعية على حماية اليونان وستبري روسيا لهم (هـــذه) الحماية(١٤) ، وفرض ستروغونوف بقطع العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين اذا اقتضى الامـر ٠

قدم ستروغونوف الانذار المذكور في تموز عام ١٨٢١ ولكن الحكومة العثمانية رفضته وعدته وعدتـه تدخـــلا في شؤون الدولـــة العثمانية وممتلكاتها (١٥) ٠ عند ذلك اعلن ستروغونوف عـن قطـــع العلاقات بين الدولتين في ٢٧ تموز عام ١٨٢١(١٦) ٠ وهكذا توتر الجـو بين الجانبين وكادت الحرب ان تقع بينهما ٠ وكانت روسيا تأمل في الحصول على اسناد الدول الأوربية لمخططاتها ولهذا فقد اقترحت على تلك الدول الدخول فـي مفاوضات للتوصل الى اتفاق في حالة رفض الحكومة العثمانيـة الانـــذار الروسي وقيام الحرب بين روسيا والدولة العثمانية وطلبت مـن سفرائها في الدول الاوربية ان يسألوا حكوماتها عن رأيها فيما يتعلق بمصير الدولة العثمانية وعن الأساليب التي تعتقد ان من الممكن بواسطتها عقـد اتفاقية بينها بهذا الشأن(١٧) ٠ غير ان هذا الاقتراح لـــم يصادف القبول لـــدى الحكومات الأوربية ٠ بل أن مترننج فعل كل ما في وسعه لكـــي يمسك بالقيصر عن اعلان الحرب على الدولة العثمانية وسانده في ذلك حلفاؤه في الحلف المقدس واخذوا جميعاً يسعون لاقناع القيصر بان الحـــرب ضـــد السلطان ستؤدي الى اتساع الحركة الثورية في الاقطار الاوربية الاخرى ٠ حتى بريطانيا ، التي كانت تعارض الحلف المقدس ، كان لديها من الاسباب ماجعلها تنضم في هذه القضية الى دول هذا الحلف ، ذلك ان تدخل روسيا في الشؤون اليونانية عسكرياً كان سيؤدي ، من وجهة النظر البريطانية ،٠ الى خرق التوازن الاوربي ، وفي حالة قيام الحرب بين روسيا والدولـــة العثمانية فان الاحداث ستقع على مقربة من الطرق المؤدية الى الامبراطورية

البريطانية في الشرق . كذلك فان اليونان ، التي قامت فيها الثورة ، تقع بالقرب من الجزر الايونية التي تحتلها بريطانيا الامر الذي يهدد بحدوث تعقيدات لايمكن التنبؤ بنتائجها بالنسبة للسلطة البريطانية في هذه الجزر لاسيما وان ا وزير الروسي كابودستريا الذي ، هو اصلا من هذه الجزر ، لم يكن راضياً عن الادارة البريطانية لها ويعتقد بأن الحكم البريطاني لهذه الجزر يقضي على كل امكانية لتقدمها وازدهارها . ولهذا كله انضم كاسلري الى الدول الاوربية الاخرى في مساعيها لابعاد القيصر الروسي عن اليونانيين ومنعه من اعلان الحرب على الدولة العثمانية فكتب في ٢١ تموز ١٨٢١ الى السفير البريطاني في بطرسبورغ طالباً منه ان يخبر القيصر بان «اليونانيين يمثلون روح الغضب المنظم التي تجري الدعوة لها في اوربا بشكل منتظم والتي تظهر على شكل انفجار في كل مكان تضعف فيه لأي سبب يد السلطة الحاكمة»(١٨) ، واعلن في جوابه على الاقتراح الروسي المشار اليه اعلاه «بان الوزارة الانجليزية ترغب في ان ترى الباب العالي متفوقاً ... فتلغى بهذه الطريقة البسيطة التعقيدات التي قامت في الشرق»(١٩) .

وهكذا فبدلا من ان تستجيب الحكومات الاوربية للاقتراح الروسي ، فتتقدم كل منها بمطاليبها تجاه الدولة العثمانية كما كان القيصر يأمل ، أرسل ممثلو بريطانيا والنمسا وفرنسا وروسيا والدبلوماسيون في اسطنبول الى اليونان ، رسالة يذكر فيها «بأن أي انتفاضة ضد العاهل الشرعي تدينها مبادىء الانجيل المقدس ومبادىء السياسة النظيفة على السواء»(٢٠) .

وهكذا وجد الكسندر الأول نفسه وحيداً في هذه القضية فدفعه ذلك مع اسباب أخرى في مقدمتها الوضع المالي الصعب الذي كانت روسيا

تعاني منه ، وعدم استعداد الجيش الروسي لحرب طويلة ، والخلافات في وجهات النظر بين مختلف عناصر الفئة الحاكمة ؛ الى العدول عن محاربة الدولة العثمانية والابتعاد عن اليونانين والعودة الى الالتزام بالبيان الذي وقعته كل من روسيا والنمسا وبروسيا في ١٢ أيار ١٨٢١ والذي اكد مبادىء الحلف المقدس(٢١) . ولم يعد من الملائم في ظل مثل هذه الظروف الابقاء على كابودستريا الذي كان يلح على مناصرة اليونانيين بقوة السلاح لو اقتضى الامر بحجة ان ذلك من شأنه ان يعزز النفوذ الروس في البلقان وفي الشرق الادنى عامة ، ولهذا فقد أبعد عن الشؤون اليونانية ومنح اجازة مفتوحة ثم سافر الى سويسرا .

وكانت القوات النمساوية قد قامت قبل ذلك باخماد الثورة في كل من نابولي وبيدمونت بتفويض من مؤتمر لايباخ الا أن بريطانيا وفرنسا احتجتا على تدخل دول الحلف المقدس في شؤون الاقطار الاوربية الاخرى . والواقع ان تحولا باتجاه الابتعاد عن الحلف المقدس اخذ يلاحظ في السياسة البريطانية منذ السنة الاخيرة لعهد كاسلري(٢٢) . وقد برز هذا التحول وأصبح اتجاهاً سائداً في السياسة الخارجية البريطانية في عهد جورج كاننغ الذي اصبح وزيراً للخارجية في ايلول عام ١٨٢٢ بعد انتحار كاسلري في أب من السنة ذاتها . وعلى الرغم مما ان هذا التحول ارتبط باسم كاننغ ، الا انه كان في الواقع امراً حتمته الظروف الداخلية في بريطانيا انذاك ، فلقد تعاظمت حركة المطالبة بالاصلاح البريطاني في انكلترا فاصبحت تنذر بالثورة . ولما كان كاننغ يمينياً ومناهضاً للاصلاح البرلماني فقد اراد ان يحد من حركة المطالبة بالاصلاح ويتفادى الثورة في الوقت نفسه فوضع لذلك برنامجاً اعتقد ان تنفيذه بنجاح سيؤدىء الى ان تحصل البرجوازية الانجليزية ، التي كانت على رأس الحركة ، على

امكانات واسعة وتنفتح امامها آفاق الاثراء والنهوض الاقتصادي ، الامر الذي سيفضي الى تخفيف حدة الحركة المطالبة بالاصلاح البرلماني ، ولتحقق هذا المنهاج كان ينبغي انتهاج سياسة لاتقوم على مناهضة حركات التحرر الوطني والقومي في اوربا وامريكا اللاتينية وقمعها كما يريد الحلف المقدس ، بل ينبغي استغلال هذه الحركات لان انتصارها سيؤدي الى قيام دول جديدة ستكون بحاجة الى المنتجات الصناعية والاموال لتقديم المساعدة . مما سيجعلها تتجه بادئ الأمر الى بريطانيا ، الدولة الصناعية المتقدمة المؤهلة اكثر من سواها لتقديم العون والمساعدة .

ولهذا فان كاننغ لم ينظر الى اليونانيين على انهم «الوجه البلقاني» للكاربوناريين كما كان يفعل سلفه ، بل كان يعتقد بامكانية التفاهم مع قادتهم عن طريق الاستجابة للظواهر الجديدة وتكييف هذه الظواهر بما يتفق ومصالح بريطانيا(٢٣) .

وهكذا فعندما انعقد مؤتمر فيرونا في ٢٠ تشرين الاول عام ١٨٢٢ كانت بريطانيا قد قررت انتهاج سياسة جديدة وقد اختارت الحكومة البريطانية الروق ولنكتون ليكون منووباً عنها في المؤتمر ، وزودته بتعليمات قاطعة تقضي بعدم توريط بريطانيا في اي قرار أو توصية تحتم عليها ان تساعد بشكل مباشر او غير مباشر التدخل الذي كانت الدول الكبرى تعد له ضد اسبانيا كما تقضي بالعمل على اعاقة روسيا عن ان تهب منفردة ضد الدولة العثمانية وعدم الاشتراك تحت اي ظرف في اي اعلان تصدره الدول الاخرى ويجري الحديث فيه عن حق اسبانيا في امتلاك مستعمرات امريكا الجنوبية ورفض اعتبار ثوار امريكا اللاتينية عصاة للملك الاسباني فردنياند السابع(٢٤) .

ومع ان المؤتمر فوض فرنسا التدخل عسكرياً ضد الثورة الاسبانية

وقامت فرنسا بالمفصل في السنة التالية ، رغم معارضة بريطانيا بالتدخل واعادت نفرديناند السابع سلطاته المطلقة التي جردته الثورة منها ، الا ان ذلك كان آخر نصر يحققه الحلف المقدس ، فلقد دخل كاننغ في صـــراع دبلوماسي مكشوف ضد دول الحلف الرئيسة وركز نشاطه بالدرجة الاولى ضد روسيا لانها كانت اقوى هذه الدول ، لاسيما وان هناك خلافات كبيرة وتعارضا في المصالح بينها وبين بريطانيا في مناطق كثيرة من العالم فـــي مقدمتها البلقان والشرق الاقصى ولهذا كان لابـد ان يظهـر بين الدولتين خلاف شديد في الموقف من الانتفاضة اليونانية التي طرحت عــلى بساط البحث وتحولت الى بؤرة اصطدمت فيها بشدة مصالــح الدول بأجمعها . فمع ان القيصر الروسي طرح ، اثناء مناقشة المسألة اليونانية في مؤتمــر فيرونا ، شروطاً رأتها الدول الاخرى ملائمـــة لاعادة العلاقات بين روسيا والدولة العثمانية وهي : تهدئة الامور في اليونان بمشاركة وضمان الدول الكبرى الخمس وسحب القوات العثمانية مـن امارتـــي الدانوب واعادة الاستقلال الذاتي الذي كانتا تتمتعان به قبل ربيع ١٨٢١ وحريـــة مرور السفن التجارية خلال المضايق (٢٥) ، الا ان تطورات القضية اليونانية من جهة ورفض الحكومة العثمانية لهذه الشروط الروسية من جهة اخرى جعل روسيا تغير من موقفها .

لقد حلت خلال المدة ١٨٢١ ـ ١٨٢٢ مرحلة حرجة بالنسبة للانتفاضة اليونانية فقد نجحت القوات العثمانية في توجيه ضربات شديدة للثوار كما ان غياب كابودستريا وتخلي الكسندر الاول عنهم قد ادى الى تجريدهـــم من الدعم المادي والمعنوي الذي كانت توفره لهم روسيا .

لكن الثوار اليونانين حصلوا على الاسناد المطلوب ، من بريطانيا . فالمصالح البريطانية بالشرق الادنى كانت تتطلب «كبح التوسع الروســي

وحماية البحر المتوسط ومواصلاته مع الشرقين الادنى والاوسط من عدوان القوة البحرية الروسية والمحافظة على امن منطقة واسعة قابلـــة للتغلغل الاقتصادي البريطاني»(٢٦) ولذا قرر كاننغ الذي حـــول اتجاه السياسة الانجليزية على النحو الذي رأينا ، استغلال الاحداث اليونانية لتحقيق هذه المصالح وترسيخ النفوذ الانجليزي في اليونان وذلك بتنفيذ منهاجه السابق والقاضي باسناد الحركات التحررية في اوربا وخارجها ، وبهذا فقد تلقف المبادرة التي افلتت من يد القيصـر الروسي في حمايـــة الثوار اليونانين وتوفير الدعم الدبلوماسي لهم ، فأصدر في ٢٥ أذار ١٨٢٣ بياناً جـاء فيه ان بريطانيا تعتبر اليونانيين والاتراك من الان فصاعداً جهتين متحاربتين • ومع ان كاننغ حاول التقليل من اهمية هذه الخطورة مصوراً اياها على انها مجرد اجراء لحماية التجارة البريطانية التي اصبحت تعاني من انعدام الامن في شرق البحر المتوسط بسبب الاحداث اليونانية(٢٧) ، الا ان البيان احدث اثراً صاعقاً على دول الحلف المقدس ، ذلك انه كان يعني في التطبق العملي، ان بريطانيا ترى ان اليونانيين ، الذين يرى فيهم الحلـــف المقدس عصاة وخارجين على القانون ، جهة شرعية وأن ، ثورتهم عمـــل مشـروع ، وان بريطانيا ستعترف باي منطقة يحررها الثوار من سلطة الدولـة العثمانية دولة مستقلة • والواقع ان كاننغ احسن اختيار نوعية الضربة التي وجهها الى الحلف المقدس فلقد اختار اضعف المواضع فيه وتعني الخلافات القائمة بين روسيا والنمسا في الموقف من الدولة العثمانية ، ففي الوقـــت الـذي كانت فيه السياسة العثمانية في البلقان تستفز روسيا وتضغط على السلاف والارثوذكس الذين تريد المكرمة الروسية ان تستقلهم لتحقيق اهدافها في المنطقة ، كانت هذه السياسة موضع رضا واضح مـن جانـــب الساسـة النمساويين وعلى رأسهم مترنيخ •

لقد عزز موقف كاننغ هذا من سمعة بريطانيا في نظر الرأي العام الاوربي الذي كان يساند الانتفاضة اليونانية بدرجة لم تحظ بها انتفاضة اوربية او غير اوربية اخرى آنذاك ، حتى ان شخصيات أوربية مشهورة مثل بايرون في بريطانيا وبوشكين في روسيا كرسوا جل نشاطهم لدعم الثورة اليونانية بل وتطوع بعظهم للحرب الى جانب الثوار وفقد حياته نتيجة لذلك . كذلك ادت خطوة كاننغ هذه الى ترسيخ مواقع بريطانيا في اليونان ولاسيما بعد ان حصل اليونانيون من الانجليز عام ١٨٢٤ على قرضين ماليين فارتفعت سمعة بريطانيا في نظرهم لدرجة جعلتهم يكتبون في صيف ١٨٢٥ عريضة الى الحكومة البريطانية يطلبون فيها وضع اليونان تحت حمايتها[٢٨] الا ان الحكومة البريطانية رفضت هذا الاقتراح وفضلت اتخاذ موقف حيادي في النزاع بين اليونانيين والسلطة العثمانية غير انها حاولت ان تنفرد بالتوسط لحله على اساس حل توفيقي يقبله الباب العالي.

ولم يكن الكسندر الاول يرغب ان يحتكر الانجليز النفوذ في اليونان ولهذا فانه عاد مرة اخرى الى الاهتمام بالقضية اليونانية فاقترح على الدول في مذكرة خاصة ارسلها في كانون الثاني ١٨٢٤ ان تقوم في الاراضي اليونانية ثلاث امارات مستقلة ذاتياً واحدة في شرق اليونان والاخرى في غربها والثالثة في جنوبها وان يجري تعزيز الاستقلال الذاتي الذي تتمتع به جزر بحر ايجة على ان يحتفظ الباب العالي بالسلطة العليا على الامارات اليونانية ويتقاضى جزية سنوية[٢٩] .

قامت الصحف الفرنسية والانجليزية بنشر محتوى هذا الاقتراح الروسي ، وبهذه الطريقة تعرف عليه العثمانيون واليونانيون فأثار لدى الجانبيين استياءاً ظاهراً ، فاصبح اليونانيون عليه لدى الحكومة البريطانية، وكانت نقمة العثمانيين على روسيا بسببه كبيرة الى درجة لم تخفف منها

مبادرة روسيا الى تعين مبعوث دبلوماسي لها في العاصمة العثمانية . وقد وفر استنكار جهتي النزاع للاقتراح الروسي الحجة لكانتنغ لكي يرفض المشاركة في مؤتمر سفراء الدول في لطرسبورغ (١٨٢٤ ـ ١٨٢٥) ، كما ساعده على رفض الاسهام في الخطوة الدبلوماسية الجماعية التي اقترحت روسيا على الدول في ان عام ١٨٢٤ القيام بها في اسطنبول للضغط على الحكومة العثمانية بهدف انهاء القتال في اليونان بعد ان كن قد وافق على مذكرة كانون الثاني ، لان موافقته تلك كانت لاسباب تكتيكية حيث ان هدفه منها «كسب الوقت بالتظاهر بان بريطانيا العظمى تعمل بنفس الاتجاه الذي تعمل فيه روسيا»(٣٠) .

أخذ وضع الثوار اليونانين في هذه الاثناء يزداد حرجاً وساءت احوال الثورة بعد ان استنجد السلطان العثماني بوالي مصر محمد علي واستجاب هذا فارسل ابنه ابراهيم باشا على رأس جيش للمساعدة في اخماد الثورة. وقد أحرز ابراهيم باشا عدداً من الانتصارات اللامعة واسترد الكثير من المناطق التي استولى عليها الثوار ، فقوي بذلك موقف الدولة العثمانية وتعزز صمودها في وجه ضغوط الدول الاوربية . لكن انتصارات ابراهيم باشا زادت من الناحية الاخرى من تعاطف الرأي العام الاوربي مع الثوار ومن ضغطه على الحكومات الاوربية لكي تتدخل الى جانبهم ، ويبدو ان الكسندر الاول قرر استغلال ذلك للانفراد بانتهاج سياسة نشيطة في القضية اليونانية فقد قرر في نهاية عام ١٨٢٤ بعد ان وصل صبره الى اقصى مداه بسبب عدم رغبة بريطانيا في التعاون للضغط على الاتراك ... ان يتخلى عن كل محاولات التوصل الى اتفاق مع الحكومة البريطانية»(٣١) واستفسر من دبلوماسييه البارزين عن سبل حل المسألة الشرقية فجاءه جواب سفيريه في لندن وباريس يشير الى حتمية الحرب ضد الدولة

العثمانية • ولكن هذه الاجابة وصلت الى بطرسبورغ بعد وفاة الكسندر الاول في تشرين الثاني ١٨٢٥ فعرضت على القيصر الجديد نيقولا الاول(٣٢).

ويبدو ان موقف روسيا هذا كان جديا الى درجة اقتنع كاننغ معها بان الوسائل القديمة لم تعد مجدية للامساك بروسيا عن محاربة الدولة العثمانية بل يتحتم اللجوء الى طرق جديدة • فقد كان كاننغ مقتفياً بان روسيا اذا شنت الحرب فانها سوف «تبتلع اليونان في اللقمة الاولى وتركيا في (اللقمة) التالية» • وبما انه وصل الان الى الاعتقاد «بعدم وجود طريقة لمنع روسيا من التدخل» فقد «اعتزم تفادي العواقب الوخيمة عن طريق العمل معها ••• للضغط على تركيا بهدف ايقاف القتال ووضع تسوية ما مع اليونان»(٣٣) • وهكذا قرر كاننغ التقارب مع روسيا الحكومة الروسية ، والتعاون معها بهدف اعاقتها عن القيام بأي عمل منفرد واستغلال هذا التعاون للتخفيف من غلوائها ، وللسيطرة على تطورات الامور في البلقان ، ولهذا نجده يجدد محادثاته مع السفير الروسي في لندن ويدعو الى التعاون بين الدولتين في القضية اليونانية(٣٤) •

جاء توجه كاننغ الجديد متوافقاً مع هدى نيقولا الاول الذي كان يختلف كثيرا في صفاته الشخصية وثقافته(٣٥) ونظرته الى الكثير من الامور التي تتعلق بالسياسة الخارجية • لقد كانت المسألة الشرقية واحدة من القضايا الاساسية التي اولى القيصر الجديد عنايته لها ، لكن معلوماته عن الدولة العثمانية لم تكن كامنة لتجعله يتجنب الوضوع في اخطار كبيرة في التعامل معها(٣٦) •

حاول نقيولا الاول بمجرد ان استقرت سلطته بعد قضائه على انتفاضة الديسمبريين ، أن يتقرب من بريطانيا وفرنسا لان ذلك كان بالنسبة له على مايبدو ضرورياً للقضاء على الانطباع الذي كان مترنيخ

يحاول ان ينشره في اوربا حول ان التفسير الذي حصل في العرش الروسي كان ملائماً للنمسا وله شخصيا لانه جاء منسجماً مع توجيهاتـه ، كما ان التقارب مع بريطانيا وهي الدولة القوية ليبعد روسيا عن العزلة ويزيـد من امكاناتها في المناورة على المسرح الدولي ويضع النمسا في موقف حـرج طالما انها لاتستطيع بمفردها ان تقدم دعماً عسكرياً للدولـة العثمانية . وبالاضافة الى كل ذلك اعتقد نيقولا الاول بان التقارب مع بريطانيا ربما سيمكن روسيا من جعل بريطانيا تقلل من دعمها للدولة العثمانية .

وهكذا التقت رغبة كاننغ مـع رغبة نيقولا الاول في التقارب ، وان كانت دوافع كل منهما مختلفة عن دوافع الآخر ، وتجسيداً لهـذا التقارب أرسل كاننغ الدوق ولنكتون ـ بطل واترلو الذي يكن له القيصر احتراماً خاصاً في بعثة خاصة الى بطرسبورغ غرضها الرسمي نقل التهنئة الى القيصر بمناسبة تسنمه العرش وهدفها الحقيقي بحث المصاعب القائمة بين روسيا والدولة العثمانية وتلافي قيام الحرب بينما التواصل مع روسيا الى تفاهم مشترك حول القضية اليونانية .

وبما ان العمل المشترك مع بريطانيا كان يستهوي القيصر الروسـي كما ذكرنا فقد قرر ان يتفق فكرة الضغط المشترك على الحكومة العثمانية التي عرضها عليه ولنكتون ، الا انه لم يكشف للمندوب البريطانـي عـن موقفه هذا بل اكتفى بعبارات غامضة من قبيل ان مايعرضه الدوق هـو شيء جديد عليه وانه سيفكر بالامر وما الى ذلك . لقد كان هدف نيقولا الاول من ذلك هو ان يستغل الظروف ويظهر قوته للدولة العثمانية فيحقق على حسابها مكسباً يعزز موقفه في مفاوضاته مع بريطانيا وبالفعل فقد قدم الى الحكومة العثمانية في ١٧ آذار ١٨٢٦ انذاراً طلب تهانيه ان تعيد فـي مدة لاتتجاوز ستة اسابيع مؤسسات الحكم الذاتي التي كانت قائمة في

امارتي الدانوب قبل ١٨٢١ فقضى عليها محمود الثاني وان تعيد الى صربيا جميع الامتيازات التي اقرتها لها معاهدة بخارست ١٨١٢(٣٧) ·

لقد اطلع الدوق ولنكتون على نص الانذار الروسي قبل ارساله الى الحكومة العثمانية وأبدى حوله ملاحظات اخذ بها الجانب الروسي ، ولكن حاول ان يؤجل ارساله محتجاً بضرورة التشاور مع حكومته وعندما رأى ان ذلك متعذراً وافق عليه ووعد بان تتعاون البعثة الدبلوماسية بلاد البريطانية في اسطنبول في تحقيق الاهداف التي يتوخاها وكان مدفوعاً في موقفه هذا بخشية من اندلاع الحرب بين روسيا والدولة العثمانية فيما لو اتخذ موقفاً مغايراً(٣٨) ·

تمخضت محادثات ولنكتون في بطرسبورغ عن التوقيع في ٤ نيسان ١٨٢٦ على بروتكول كان على روسيا بموجبه ان تبذل كل جهودها لانجاح الوساطة البريطانية الهادفة الى تهدئة اليونانيين ، كما تضمن شروطاً لتسوية القضية اليونانية كان على اليونانيين بموجبها ان يحكموا من قبل سلطان ينتخبونها بأنفسهم على ان يكون للباب العالي مشاركة معلومة في تعيينها وعلى ان توقع اليونان للحكومة العثمانية جزية يحدد مقدارها من قبل الجانبين · وأن يشتري اليونانيون الممتلكات التركية في اليونان وفي حالة فشل هذه الوساطة فانها ستكون اساساً للمصلحة التي يمكن ان تقوم بها الدولتان ـ بريطانيا وروسيا بأشتراك مع بعضها او كلا على انفراد(٣٩) · وقد كان هذا البند الاخير مهماً جداً بالنسبة الى روسيا لأنه أعطاها حق التدخل في الشؤون اليونانية منفردة ·

ومع ان هذا البروتوكول لم يستجب لما كان يطلبه اليونانيون ، ونعني استقلالهم التام عن الدولة العثمانية الا انهم قبلوه بسبب الوضع الحرج الذي كانت تمر به الثورة اليونانية التي كانت تتراجع انذاك أمام

القوات المصرية والعثمانية مما دفع قادة الثورة الى التخلي عن مطلب الاستقلال التام والقبول بحل وسط يعطي الحكومة العثمانية دوراً معلوماً في اليونان ٠

اثار بروتوكول بطرسبورغ قلقاً شديداً لدى مترنيخ ، ذلك انه أدى الى ان تطرح مرة اخرى على بساط البحث المسألة اليونانية التي ظن المستشار النمساوي انها انتهت منذ ان نجح في دفع الكسندر الاول الى التخلي عنها على النحو الذي رأيناه ، لما ان البروتوكول كان يعني ان روسيا التي عقد الحلف المقدس بمبادرة منها هي نفسها التي تدوس على مبادئه وتشترك مع «حامي العصاة» كاننغ في اسناد «العصاة» اليونانيين ٠ وجاءت التطورات الاخرى لتزيد من قلق الحكومة النمساوية فقد أخافت الشائعات التي انتشرت حول الاتفاق الذي تم بين بريطانيا وروسيا الباب العالي وجعلته يعجل بقبول الانذار الروسي الذي سبقت الاشارة اليه ويوقع مع الحكومة الروسية في ٧ تشرين الاول ١٨٢٦ على ميثاق (آق كرمان) الذي اكد جميع ما تضمنته المعاهدات السابقة بين روسيا والدولة العثمانية ووسع من حقوق وامتيازات روسيا[٤٠] ٠ ومن الجهة الاخرى قضى السلطان محمود الثاني في حزيران ١٨٢٦ على الجيش الانكشاري في وقت لم يكن الجيش الجديد الذي كان يتوقع تأسيسه قد انجز تشكيله بعد ، الأمر الذي اضعف الدولة العثمانية وجعلها عاجزة عن مقاومة تطاولات روسيا وبريطانيا ٠ وهكذا تجاوزت التطورات مترنيخ الذي «فقد تماماً المقدرة على السيطرة على سير العلاقات الدولية في اوربا واصبحت النمسا بعيدة عن الاتجاهات الاساسية للنشاط الدبلوماسي» على حد تعبير الباحثة الامريكية باربارا ايلافتش[٤١] ٠ وقد انعكس ذلك في رفض الحكومة النمساوية الدخول في مفاوضات لعقد اتفاقية حول المسألة الشرقية ودفعها لبروسيا

لأن تحذو حذوها عندما اعلمتهما الحكومتان البريطانية والروسية بمحتوى بروتوكول بطرسبورغ(٤٢) .

اما كاننغ فعلى الرغم من انه أبدى في الظاهر رضاه بروتوكول بطرسبورغ الذي تمخضت عنه بعثة ولنكتون الا انه اعتبر البروتوكول نصراً لروسيا فبدلا من ان تخفيف بريطانيا من غلواء روسيا وتمنعها من محاربة الدولة العثمانية استطاع نيقولا الاول ان يجر بريطانيا الى نزاعه مع الدول العثمانية . فاذا ماقامت الحرب ، واحتمال قيامها كبير جداً ، لأن السلطان لن يوافق على ماجاء في البروتوكول تحت أي ظرف الا اذا أجبر على ذلك بقوة السلاح ، فان احتمال دخول بريطانيا فيها سيكون كبيراً . ولهذا اخذت الحكومة البريطانية تسعى وهي تبذل محاولاتها لتلافي الحرب ، لان تضع العقبات امام روسيا وتعيقها عن العمل لصالح اليونانيين وهي تريد بذلك ان تضرب عصفورين بحجر واحد ! تبعد بريطانيا عن الحرب المحتملة من جهة وتحد من النفوذ الروسي في اليونان من الجهة الاخرى .

وهكذا نجد بريطانيا تحرض شاه ايران ضد روسيا وكان هذا التحريض أحد الاسباب التي ادت الى قيام الحرب بين ايران وروسيا في تموز ١٨٢٦. وفي هذا السياق يأتي ايضاً تلقف كاننغ لرغبة فرنسان في المشاركة في بروتوكول بطرسبورغ وتشجيعه لها على ذلك بل انه سافر الى باريس لهذا الغرض .

في هذه الاثناء كان وضع الثوار اليونانيين يسير من سيء الى أسوء واصبح وضع الثورة حرجاً اذ أستطاع ابراهيم باشا ان يحقق انتصارات حاسمة على الثوار ، وتمكن من احتلال اثينا في ٢٩ نيسان عام ١٨٢٦ . وقد ترتبت على ذلك نتيجتان كان لهما اثر واضح عن تطورات الاحداث

فيما بعد ، اولهما تناسي اليونانيين للخلافات الداخلية فيما بينهم وانتخابهم لكابودستريا في ١٤ نيسان ١٩٢٧ رئيساً للدولة اليونانية المنتظرة ولمـدة سبع سنوات(٤٣) هذا قد عاد في هذه الاثناء الى بطرسبورغ واجري محادثات مع نيقولا الاول حصل بنتيجتها على الاستقالة من الخدمة الروسيا رسميا واتفق الاثنان خلالها على العمل بموجب الاسس التـي تضمنها بروتوكول بطرسبورغ . اما النتيجة الثانية فهي حركة التضامن الواسعة والشاملـة التي شملت الرأي العام الاوربي الذي اثارته التهويلات الدعائية المبالـغ فيها حول الاعمال «الوحشية» التي أرتكبها ابراهيم باشا في اليونان .

لقد دفعت هذه الاحداث الى جانـــب الموقف الصلب الذي اتخذتـه الحكومة العثمانية بفضل النجاحات التـــي تحققت في اليونان ، روسيا الى الاسراع بالعمل فطلبت من الحكومة البريطانيـة في حزيران ١٨٢٧ المباشرة بتنفيذ بروتوكول ٤ نيسان . وجاء رد كاننغ يؤكد على استعداده للتعاون في تنفيذ البرتوكول ولكن حذر من ايصال القضية الى الصدام المسلح مشيراً الى ان «الحكومة البريطانية لاتعد رفض الباب العالـي الاصغاء للاقتراحات الخاصة بالتسوية مع اليونان اساساً عادلا للحرب»(٤٤) . ولكن كاننغ وهو السياسي الواقعي ادرك ضرورة القيام بعمل ما لتهدئة روسيا من جهـــة ولارضاء اليونانيين من جهة ثانية ولهذا فانه وافق عـــلى ان تهدد الدول الكبرى مجتمعه ، الحكومة العثمانية وذلك لقطع العلاقات الدبلوماسية معها وارسال قناصل لها الى اليونان واعتـــراف باستقلال المـــورة والجـزر واخذت توحي للدول الاخرى بانها ستنفرد بالقيام بعمل حاسم ضد الدوله العثمانية محاولة بذلك اثارة الخوف لدى حكومات تلك الدول ، ودفعهـ الى الانضمام الى روسيا في اتخاذ اجراءات اكثر تاثيرا على الدولة العثمانية .
وعلى هذا الاساس كتب تسيلروديه الى ليفيين ـ السفير الروسي في لندن

في كانون الثاني ١٨٢٧ يقول بسان الحجة الوحيدة القادرة على اجبار الحكومات الاخرى على اتخاذ تدابير حاسمة ضد الدولة العثمانية هي «الخوف من ان تجري تهدئة اليونان في نهاية الامر عن طريق انفراد روسيا بالعمل ان تخيرها (حكومة الدول الكبرى) بين السماح لنا بان نصبح سادة الوضع المطلقين وبين الانضمام الينا لكي نوجه قضية السلام هذه معناه استخدام احسن الوسائل التي تؤمن مساعدتهم في تنفيذ بروتوكول ٤ نيسان[٤٦] .

وقد كان لذلك اثره بالفعل ، فاقترحت الحكومة الفرنسية على الحكومتين البريطانية والروسية عقد معاهدة تحالف · وقد صادق هذا الاقتراح هوى في نفس الحكومتين لان كلا منهما كانت تامل في مجابهة نفوذ الاخرى في اليونان بمساعدة فرنسا · اما فرنسا فقد دفعتها الى هذه الخطوة اسباب خاصة تتعلق بالوضع الداخلي ، فالمعارضة الداخلية كانت تتسع فيها والاوساط البرجوازية المناهضة لنظام الحكم المستبد كانت تطالب بتنشيط السياسة الخارجية وتامين الاسواق الخارجية للبضائع الفرنسية ، وقد اشتدت هذه المطالبة بالارتباط مع الازمة الصناعية في التي بدأت في عام ١٨٢٦ · وبالاضافة الى ذلك كانت العلاقات الجيدة التي اقامتها الحكومة الفرنسية مع محمد علي تشير استياء الرأي العام الفرنسي ولاسيما بعد الاخفاقات التي مني بها اليونانيون على يد ابراهيم باشا · لقد دفعت هذه الاسباب مجتمعة الحكومة الفرنسية الى العمل على تنشيط سياستها في القضية اليونانية · وبما انها لاتمتلك مايكفي من القوة والامكانات لتقيم لنفسها نفوذاً خاصاً بها في اليونان لمجابهة سطوة بريطانيا وروسيا ، فقد قررت الانضمام الى هاتين الدولتين في محاولة لتحقيق اهدافها عن هذا الطريق · وقد صادف الاقتراح الفرنسي قبولا لدى

كاننغ الذي اصبح اكثر تساهلا تجاه فرنسا بعد عقد بروتوكول بطرسبورغ الذي أمن له اسناد روسيا لوساطة بريطانيا في القضية اليونانية ، كما انه اراد ان يستخدم فرنسا وسيلة لاعاقة روسيا عن القيام بدور نشيط في البلقان او اتخاذ اجراء حاسم ضد الدولة العثمانية . وهكذا بدأت في باريس في تشرين الثاني ١٨٢٦ محادثات مطولة نقلت بعد ذلك الى لندن زاد من طولها اصابة رئيس الوزراء البريطاني ليفربول بالشلل وتولي جورج كاننغ رئاسة الوزارة في نيسان ١٨٢٧ ، وانتهت بتوقيع الدول الثلاث بريطانيا وفرنسا وروسيا في ٦ تموز ١٨٢٧ على معاهدة جديدة اقرت اشتراكها في العمل على تسوية المسألة اليونانية وفق البنود الواردة في بروتوكول بطرسبورغ ولكنها تضمنت تدابير عملية لتنفيذ هذه البنود واحتوت مادة سرية اشير فيها الى انه في حالة رفض الحكومة العثمانية لوساطة الدول الثلاث فان هذه الدول ستخبرها بقرارها القاضي بافتتاح قنصليات لها في المدن اليونانية المهمة واجبار الجانبين المتحاربين بقوة السلاح على عقد الهدنة في البحرية على الاقل ان يجري افهام الباب العالي بان هذه الاجراءات الاكراهية لاتهدف الى اثارة حالة حرب بين الدول الثلاث والدولة العثمانية ، وعلى ان ترسل الدول الثلاث تعليمات مطابقة لما ورد في هذه المادة الى قادة اساطيلها في بحار الشرق الادنى(٤٧) . وهكذا فشلت روسيا في دفع بريطانيا وفرنسا الى الموافقة على الحرب التي كانت تريدها ضد الدولة العثمانية ولكنها اصرت على ان تتضمن التعليمات التي سترسل الى قادة الاساطيل الطلب اليهم بان يمنعوا بالقوة نقل السلاح والذخيرة من مصر أو تركيا الى اليونان في حالة رفض الجانب العثماني عقد الهدنة مع الثوار اليونانيين(٤٨) .

بعد اسبوع واحد من توقيع هذه المعاهدة قامت جريدة «التايمس»

بنشرها كاملة بما في ذلك مادتها السرية . وفي حماة الاتهامات المتبادلة بين كاننغ والسفير الفرنسي في لندن بولتباك حيث كان كل منهما يحمل الاخر مسؤولية عدم المحافظة على سرية الاتفاقية توفي كاننغ في ٨ آب ١٨٢٧ . وقد اثر ذلك لبعض الوقت على نشاط الدبلوماسية البريطانية فوزير الخارجية اللورد دادلي كان رجلا متهيباً بطبعه يتجنب المبادرات ورئيس الوزراء الجديد اللورد كوريتش من الذين يؤمنون بالحلول الوسط وكان معروفاً بان بقاءه في المنصب مؤقتاً ، وبالفعل فلم تكن تمضي خمسة اشهر على وفاة كاننغ حتى تولى رئاسة الوزارة الدوق ولنكتون .

على اية حال قام ممثلو بريطانيا وفرنسا وروسيا الدبلوماسيون في استنبول في آب ١٨٢٧ بتسليم الباب العالي مذكرة مشتركة يخبرونه فيها بالمعاهدة التي وقعتها الدول الثلاث ويقترحون التوسط لتسوية المشكلة اليونانية على اساس الشروط الواردة في تلك الاتفاقية . وفي الوقت نفسه اعلم اليونانيون بالامر فقبلوا به ورفضت الحكومة العثمانية مذكرة الدول واعلن السلطان محمود الثاني «بانه لن يسمح ابداً بان تتدخل دول اجنبية في العلاقات بينه وبين رعاياه»(٤٩) . عند ذلك اعلنت الدول الثلاث على لسان ممثليها الدبلوماسيين في اسطنبول بانها ستضطر الى القيام بالاجراءات التي نصت عليها المعاهدة ، وبالفعل قامت اساطيلها في بداية ايلول بمحاصرة المورة وعدداً من الجزر اليونانية لقطع الامدادات القادمة بطريق البحر الى القوات اليونانية هناك . وطبيعي ان مثل هذا الحصار لايمكن ان يكون فعالا الا باستخدام القوة وبالفعل فقد حدث الاصطدام بين الجانبين وقامت عمارات بحرية بريطانية وفرنسية وروسية مشتركة بتحطيم الاسطولين المصري والعثماني في خليج نافارينو في ٢٠ تشرين الاول ١٨٢٧ .

غير ان معركة نافارينو لم تؤد الى تخلي الدولة العثمانية عن موقفها لان العثمانيين كانوا يعلمون بان بريطانيا وفرنسا لاترغبان في محاربتهم وان روسيا وحدها هي التي تعمل باتجاه الحرب ۰ والواقع ان المسؤولين البريطانيين لم يتركوا مناسبة الا وانتهزوها لافهام الحكومة العثمانية ان ماحدث في نافارينو كان حادثاً مؤسفاً لاينبغي ان يتكرر فقد استدعى وزير الخارجية البريطاني اللورد دادلي في ۱۰ تشرين الثاني وبمجرد وصول خبر المعركة الى لندن السفير الروسي في لندن (ليفين) وعبر له باسم الحكومتين الانجليزية والفرنسية وبحضور بولنياك ـ السفير الفرنسي في لندن عن امله في ان لايؤثر هذا «الحادث غير المتوقع» ويقصد معركة نافارينو على علاقات الدول مع الباب العالي ، واكد ان على الدول ان لاتعد نفسها باى حال من الاحوال في حالة حرب مع الدولة العثمانية ، كما ان خطاب العرش الذي القي بمناسبة افتتاح الدورة البرلمانية الجديدة في ۲۹ كانون الثاني ۱۸۲۸ بعد تولي ولنكتون رئاسة الوزارة في بداية ذلك الشهر اعتبر المعركة «حادثاً مؤلماً» وعبر عن الامل في ان لاتعقبه «اعمال عدائية لاحقة » ۰

لقد كانت ذلك تأكيداً لوجهة نظر العثمانيين القائلة بان الحرب اذا قامت فانها ستكون مع روسيا فقط الامر الذي شجع الحكومة العثمانية وجعلها تتشدد في موقفها ، فبدلا من ان تذعن لما طلب منها نجدها تطالب بان تعتذر لها الدول الثلاث عما حدث في نافارينو وتعوضها عن الخسائر التي لحقت بها بسبب المعركة(٥١) ، ولم تقدم اي تنازل لليونانيين سوى استعدادها للعفو عنهم وتوخي العدل في ادارة بلادهم في المستقبل بشرط ان ينهو ثورتهم ويعودوا الى طاعة السلطان(٥٢) ۰

وهكذا وصلت الامور الى طريق مسدود وبدأ الوضع يتدهور واخذت الأمور تسير باتجاه الازمة سيما وأن روسيا قررت العودة الى خطتها بالعمل

المنفرد وتحقيق اهدافها عن طريق الحرب التي ارادت من ورائها تأمين حرية التجارة الروسية عبر المضايق وتعزيز النفوذ الروسي في البلقان وفيما وراء القفقاس . ومما شجع نيقولا الاول على قرار الحرب ، التنسيق الذي كان قائماً بين بريطانيا وروسيا في الشؤون البلقانية الامر الذي جعله يعتقد بان بريطانيا لن تعيق العمل الروسي باي حال ، كما ان السلطان اعطاه الحجة المناسبة للمضي في هذا الاتجاه . فعلى الرغم من ان محمد علي كان مستعداً للتخلي عن السلطان حيث عرض ، حتى قبل معركة نافارنيو ، ان ينسحب من المورة اذا قامت بريطانيا في مقابل ذلك بمساعدته على الاحتفاظ بالحجاز والاستيلاء على بلاد الشام(٥٣) ، - الا ان محمود الثاني مصرا على موقفه بل وعمد في ٣١ تشرين الثاني ١٨٢٧ الغاء ميثاق اق‌كرمان كما اصدر في كانون الاول من العام ذاته بياناً دعا فيه المسلمين الى الجهاد ضد روسيا التي‌قال عنها انها العدو الاكبر للدولة العثمانية(٥٤). وفي شباط عام ١٨٢٨ أغلق المضايق عملياً امام السفن الاجنبية . وكان مما شجعه على ذلك تاكده من ان بريطانيا وفرنسا لن تشتركا في الحرب ضده فقد ابقت الدولتان بعد قطع علاقاتهما مع الدولة العثمانية على قنصلهما في سميرنا (ازمير) كذلك ظل التجار الانكليز والفرنسيون يمارسون نشاطهم في مختلف انحاء الامبراطورية العثمانية يضاف الى ذلك ان السفير الفرنسي اكد في رسالة خاصة بعث بها الى أحد المقيمين الفرنسيين جرى نشرها بعد وقت قليل من كتابتها بان العلاقات مع الدولة العثمانية لن تلبث ان تعود قريباً هذا في الوقت الذي كان فيه الانجليز والفرنسيون الموجودون في اليونان يؤكدون علناً بان الحرب مع الدولة العثمانية لن تقوم (٥٤) . ومما شجع السلطان على التشدد ايضاً موقف النمسا المؤيد للدولة العثمانية ، ذلك ان الحكومة النمساوية رأت في

معركة نافانيو كارثة يمكن ان تؤدي الى القضاء على الدولة العثمانية والى توسيع النفوذ الروسي في البلقان ، كما زاد احتمال قيام الحرب من قلق مترنخ لان روسيا في تلك الحالة ستكون قادرة على محاصرة اسطنبول من البحر ومهاجمتها من البر في آن واحد • وقد كان قلق النمسا من ذلك كبيراً لدرجة اراد الامبراطور النمساوي تعبئة مائة الف مقاتل لاستخدامهم في مساعدة الدولة العثمانية اذا اقتضى الامر(٥٦) •

وهكذا اصبح طريق الحل السلمي للازمة مسدوداً وبدات الامور تسير باتجاه الحرب بسرعة متزايدة فقد قطعت الدول الثلاث علاقاتها الدبلوماسية مع الحكومة العثمانية وغادر سفراؤها اسطنبول في بداية كانون الاول ١٨٢٧ ، ولكنها اي الدول واصلت المحادثات التي كانت تجري في مؤتمر لندن الذي كان عبارة عن اجتماعات دورية يعقدها وزير الخارجية البريطاني مع السفيرين الروسي والفرنسي استمرت طيلة الفترة من ١٨٢٧ حتى ١٨٣٢ ونوقشت خلالها قضيتان اساسيتان كانتا المبادىء التي سيقوم عليها الحكم في اليونان وحدود الدولة اليونانية المقبلة اي المناطق التي ينبغي ان تشملها • والواقع ان القضية الاولى لم تثر خلافات جوهرية بين الاطراف المشتركة في المحادثات فالجميع كانوا متفقين على انه ينبغي ان تقوم في اليونان سلطة قوية وان يكون الحكم ملكياً وراثياً • لكن القضية الثانية اثارت في المؤتمر خلافات شديدة ولاسيما بين بريطانيا وروسيا ففي الوقت الذي كانت فيه بريطانيا ترى ان المطار البليوبونيز والجزر المتاخمة لها الحكم الذاتي يؤلف ضمانه للمحافظة على السلام في المنطقة كانت روسيا تصر على ان تدخل في الدولة اليونانية المقبلة بعض المناطق التي شملت الانتفاضة في البر القاري وترفض ان تقتصر اليونان المستقلة على البليوبونيز(٥٧) • وفي الوقت ذاته الذي واصلت فيه الحكومة

الروسية محادثاتها في لندن مع بريطانيا وفرنسا مضت في اعمالها المنفردة في اليونان فاصدرت الى قائد الاسطول الروسي في البحر المتوسط الاميرال هيدن في اذار ١٨٢٨ امراً بابداء كل مساعدة ممكنة بالسلاح والتجهيزات الى الثوار اليونانيين وقامت من جانبها بمساعدتهم بالاموال ايضاً(٥٨) . وكانت في شباط عام ١٨٢٨ قد وقعت معاهدة تركمان جاي التي انهت الحرب القائمة بينها وبين ايران الامر الذي مكنها من التفرغ للحرب الجديدة التي تزعم شنها على الدولة العثمانية ٠٠ وهكذا اعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية في ٢٦ نيسان عام ١٨٢٨ وعبرت قواتها في ايار من السنة ذاتها نهر بروث فاحتلت امارتي الدانوب في الوقت الذي دخل فيه الاسطول الروسي الى الدردنيل ٠

لقد اعدت الحكومة الروسية لهذه الحرب في الجانب الدبلوماسي اعدادا جيدا فالدبلوماسية الروسية لم تترك مناسبة الا وانتهزتها للتأكيد على انها لاتريد من وراء الضغط على الدولة العثمانية اية مكاسب اقليمية او نفوذ سياسي ، بل ذهبت الى اكثر من ذلك عندما تعهدت بذلك رسمياً في ميثاق بطرسبورغ ١٨٢٦ ، وقد مكنها ذلك الأمر من الظهور بمظهر من يضحي بمصالحه من أجل اليونانيين ومن اخفاء نواياها الحقيقية في توسيع النفوذ الروسي في البلقان ٠ اما في الجانب العسكري فقد جرت الامور في البداية على الضد من ذلك تماماً ذلك ان الجيش الروسي ظل لفترة طويلة عاجزاً عن تحقيق نصر على العثمانيين في جبهة البلقان حتى بدأ في بعض الاحيان كما لو ان الفشل التام سيكون نصيب الروس هناك ٠ وكان ذلك مثار ارتياح الدول الاخرى التي لم تكن تريد ان تصل الامور الى حد الحرب ضد الدولة العثمانية ٠ وكان مترنيخ انشط الجميع فبادر الى الاتصال بالدول الاخرى طالباً منها الانضمام الى النمسا لايقاف الحرب على

الفور ، لكن ظروفاً معينة منعت كلا من بريطانيا وفرنسا من التدخل فالوضع القلق في ايرلندا وتعاظم حركة المطالبة بالاصلاح البرلماني في بريطانيا كانت تضطر حكومة ولنكتون الى تركيز جل جهودها على الداخل لاسيما وان اقرارها لقانون منح الكاثوليك حق الانتخاب افقدها الاغلبية التي كانت تتمتع بها في البرلمان وجعلها تستند على الدعم الذي يوفره لها حزب الويك وذلك بسبب اقرارها لقانون منح الكاثوليك حق الانتخاب . كذلك قامت العوامل الاقتصادية بدور مؤثر في هذا المجال فالعلاقات الاقتصادية المتطورة بين بريطانيا وروسيا كانت تجعل النزاع مع روسيا امراً غير مرغوب فيه من جانب الاوساط المنفذة في المجتمع البريطاني ويزداد القناعة بهذه الحقيقة ، لأن قيمة صادرات بريطانيا الى روسيا انذاك كانت تزيد بمقدار ثلاث مرات على ماكانت تصدره الى الدول العثمانية واليونان(٥٩) .

اما بالنسبة الى فرنسا فقد كانت العلاقات الجيدة مع نيقولا الاول وهو قطب الرجعية وسندها في اوربا مهمة جداً لشارل العاشر لانه اراد الاستفادة منه في نظامه الرجعي الذي كان يترنح تحت ضغط المعارضة الثورية الآخذة بالاتساع ، ولهذا لم ترى الحكومة الفرنسية من المناسب مجابهة روسيا . وكان الري العام الديمقراطي في اوربا راغباً هو الاخر في خسران الدولة العثمانية وكان يتعاطف مع روسيا لانها تساند اليونانيين ولأنه لم يكن قد فطن بعد للخطر الذي يؤلفه نيقولا الاول على الحركة الديمقراطية في اوربا في الوقت الذي كان يرى في شخص محمود الثاني واحداً من اعمدة الاستبداد ارتكب ضد اليونانين «اعمالا وحشية» .

لهذا كله لم تفض الجهود المكثفة التي بذلها المستشار النمساوي طيلة الفترة من تشرين الثاني عام ١٨٢٨ الى حزيران عام ١٨٢٩ بهدف

انشاء حلف معاد لروسيا الى شيء بل يمكن القول أنها ادت بشكل ما الى عكس ما اراده المستشار ، فقد تنبه السفير الروسي في باريس يوتسودي بوركو الى نشاط مترنيخ وممثليه الدبلوماسيين فاخبر القيصر بذلـــك ، واستطاع بدهاءه ان يسود صفحة المستشار النمساوي أمام الملك الفرنسي شارل العاشر ، وذلك بان أخبره بالعلاقات السريـة القائمـة بين مترنيخ والبونابارتيين في فرنسا ، ومسانـــدة مترنيخ ســراً لترشيح الدوق ريخشتارت ـ ابن نابليون للعرش الفرنسي ، بل وزعم كذباً بان مترنيخ اقترح على روسيا ايضاً ان تدعم تنصيب الدوق ملكاً لفرنسا(٦٠) • وسواء صدق شارل العاشر ذلك ام لا فالثابت انالعلاقات بين فرنسـا وروسـيا ازدادت وثوقاً بسبب ذلك •

لقد أدى قيام الحرب بين روسيا والدولة العثمانية الى تحسن الوضع العسكري والسياسي للثورة اليونانية ذلك ان الحرب جعلت الحكومـة العثمانية تركز كل مالديها من قوات على جبهات القتال مع روسيا فلم تعد لهذا السبب قادرة على القيام بعمليات هجومية ضـد الثوار اليونانيين • ومع ذلك فقد جابه اليونانيون في هذه المرحلة صعوبات من نوع آخـــر ، فحكومة ولنكتون ، بريطانيا رغم اعترافها بحكومة كابودستريا كانت ترتاب بالرئيس اليوناني معتبرة اياه صنيعة لروسيا كما انها كانـــت تعتقد ان اصله اليوناني وكونه مـن جزيرة كورفو بالذات الى ان يسند الاتجاهات الداعية الى توحيد الجزر الايونية مع اليونان ولهذا رفضـــت الحكومـــة البريطانية منح اليونانيين قروضاً مالية كانوا بأمس الحاجة اليها وبـذل الدبلوماسيون البريطانيون بالاشتراك مع انصار بريطانيا في اليونان جهوداً كبيرة لعرقلة اعمال كابودستريا •

ومن الناحية الأخرى أدت الحــرب الروسية ـ العثمانيـة الى زيادة

التقارب بين بريطانيا وفرنسا اللتين اثارت الحرب لديهما استياء ظاهرا دون ان تستطيعا عمل شيء بشأنها وبما ان هاتين الدولتين لاتريدان لروسيا الانفراد في تسوية المسألة اليونانية فقد وقعتا في تموز ١٨٢٨ على بروتوكول نص على ان تتصدى الدولتان على الفور لابراهيم باشا في المورة وتوضت فرنسا بتنفيذ ذلك فأرسلت على هذا الاساس قوات فرنسية تعدادها ١٤٠٠٠ مقاتل الى خليج كورينث غير ان القنصل الانجليزي عارض أنزال القوات الفرنسية الى البر لان الاميرال الانجليزي الصغير بولتني مالكولم كان في تلك الاثناء يتفاوض مع محمد علي في مصر بشأن سحب القوات المصرية من المورة ٠ وفي نفس الوقت الذي نجحت فيه بعثة مالكولم ووقع في الاسكندرية في ٦ أب ١٨٢٨ ميثاقاً بهذا الشأن قامت القوات القوات الفرنسية بالانزال في خليج كورون واتفقت مع ابراهيم باشا على اخلاء المورة(٦١) ٠

وفي الوقت نفسه كانت المحادثات مستمرة بين روسيا وبريطانيا وفرنسا في لندن وكان الخلاف على اشده بين هذه الدول حول حدود الدولة اليونانية المقبلة وكانت روسيا تلح انذاك على كابودستريا ان يحتل اليونانيون المناطق القارية والجزر اليونانية التي مازالت في حوزة اليونانيين لان ذلك يسهل عليها العمل على ادخال هذه المناطق ضمن الدولة اليونانية المقبلة ، ثم قامت الدول الثلاث بتعيين ممثلين دبلوماسيين لها في اليونان ، وفي الوقت نفسه كونت لجنة استشارية تألفت من ممثليها الدبلوماسيين في الدولة العثمانية وسافرت اللجنة الى اليونان وبدأت اجتماعاتها في خريف عام ١٨٢٨ في جزيرة بوروس وهناك استمعت الى كابودستريا بوصفه رئيساً لليونان وقد عارضت بريطانيا ماطرحه كابودستريا بشأن الحدود ولاسيما مطالبته بضم جزيرة كريت الى اليونان٠

وناقشت اللجنة ايضاً شكل الحكم في اليونان وقررت ان تحكم اليونان من قبل عامل وراثي يكون للباب العالي راي في ترشيحه كما يكون له الحق في جنوبة سنوية تدفعها اليونان • وقد اصبحت مقررات بوروس هـذه اساساً للبروتوكول الذي وقعته الدول في لندن في ٢٢ أذار ١٨٢٩ والذي تقرر فيه ان تكون لليونان ادارة مستقلة يقف على رأسها امير مسيحي تشترك في اختياره الدول الثلاث • والحكومة العثمانية على ان تسير الحدود الشمالية للدولة المقبلة وفق خط فولوس – ارتا وتقرر ان يعود سفيرا بريطانيا وفرنسا الى اسطنبول لاجراء محادثات وفق هذه الاسس باسم الدول المتحالفة مع الحكومة العثمانية(٦٢) ، غير ان الحكومة العثمانية رفضت مقررات لندن هذه رفضاً قاطعاً واعلنت للسفيرين البريطاني والفرنسي اللذين وصلا الى اسطنبول في حزيران ١٨٢٩ بانها اعدت فرماناً خاصاً يتضمن اقصى مايمكن ان تقدمه من تنازلات لليونانين • وقد تضمن الفرمان المذكور اعلان العفو العام واعادة الملكية المنقولة وغير المنقولة لاصحابها السابقين سواء كانوا من الاتراك أم من اليونانيين على ان يعيد اليونانيون جميع القلاع التي استولوا عليها في اليونان وعلى ان يحكم اليونان التي ستنحصر على البليوبونيز وال ومجلس يتألف من ملاك الارض المحليين • اما جباية الضرائب فيقوم بها اليونانيون انفسهم ثم يسلمونها للوالي • وهكذا لم تؤد محادثات السفيرين في اسطنبول الشيء محدد بل ان وزير الخارجية العثماني اعلن رسمياً في نهاية تموز رفض الحكومة العثمانية قبول بروتوكول اذار اساساً لاتفاقية ما بشأن المسألة اليونانية(٦٣) •

في هذه الاثناء حدث تحول في سير الحرب فقد تمكن الجيش الروسي اخيراً من اجتياز جبال البلقان في تموز ١٨٢٩ ودخل في ٢٠ أب وبدون

مقاومة الى ادربانوبل التي لا تبعد عن اسطنبول الا قليلا الامر الذي اجبر السلطان على طلب الصلح فاستجاب القيصر لطلبه خوفا من التعقيدات الدولية التي قد يثيرها اقتراب القوات الروسية من العاصمة العثمانية وبسبب تفشي المرض في صفوف الجيش الروسي . ومع ان الدوق ولنكتون اعتقد بأن «ليس من الصعب على القوات الروسية احتلال القسطنطينية»(٦٤)، الا ان واقع الحال لم يكن كذلك خالي جانب تفشي المرض في صفوف القوات الروسية بحيث كان هناك في اواسط ايلول خمسة آلاف جندي روسي يرقدون في المستشفى في ادريانوبل وحدها(٦٥) الامر الذي حرص القائد الميداني الروسي على اخفائه بعناية فان الحكومة الروسية لم تكن تنوي اصلا الاستيلاء على اسطنبول انذاك نظراً لما يسببه ذلك من تعقيدات دولية في مقدمتها مجابهة بريطانيا ، وانسجاماً مع الخط السياسي الذي اقره اجتماع خاص عقده القيصر وشارك فيه كبار السياسة والوجهاء المتنفذين فقد قرر هؤلاء بان خسران الدولة العثمانية للحرب سيؤدي الى تقوية التأثير الروسي على حكومة السلطان ولهذا فانهم نصحوا بان تنهج روسيا في هذه الظروف سياسة المحافظة على الامبراطورية العثمانية مع اقتطاع بعض المناطق منها لصالح روسيا(٦٦) .

لقد اثارت النجاحات العسكرية التي حققتها روسيا قلق الحكومة البريطانية وخشيتها من ان يجري حل المسالة اليونانية دون مشاركة منها ولهذا فقد سعت لاخراج القضية اليونانية عن اطار الحرب الروسية ـ العثمانية ومعاهدة الصلح المقبلة بين روسيا والدولة العثمانية . ولتحقيق ذلك اقترحت عقد بروتوكول جديد يقضي باستقلال اليونان استقلالا تاماً بدلا من الاستقلال الذي كان هدفها من ذلك ايضاً تلافي شمول اليونان بمبدأ الحماية الروسية وهي الحماية التي كانت تتمتع بها الكيانات

المسيحية المستقلة ذاتياً ضمن الدولة العثمانية . ولم يصادق الاقتـــراح البريطاني اعتراضاً روسيا التي كانت قبل ذلك بوقت طويل تــرى ضرورة استقلال اليونان نهائياً ، غير ان الحكومة الروسية اعترضت على الشـــق الآخر في الاقتراح البريطاني وهو الشـــق القاضي بتقليص حدود اليونان المستقلة بحيث تكون أقل من الحدود التي أقرها بروتوكول اذار(٦٧) .

في هذه الاثناء جاءت موافقة الحكومة العثمانية عـــلى الدخول فـــي مفاوضات مع الدول فقـــد دفعها وضعها العسكري اليائس والرغبة فـــي استغلال الخلافات القائمة حول حدود الدولة اليونانية المقبلة الى أن تعلم الدول في بداية أب بموافقتها على الدخول معها في مفاوضات عـــلى اساس معاهدة ١٨٢٧ وبروتوكول اذار ١٨٢٩ ولكنها أبدت في الوقت نفسه جملة من التحفظات منها عدم الاعتراف بخط فولوس ـ ارتا الذي اقره بروتوكول اذار ١٨٢٩ حدوداً لليونان(٦٨) . واصبحت مبادرة الباب العالي هـــذه موضوعاً لجولة جديدة من المحادثات بين الدول الثلاث في مؤتمر لندن تجلت فيها الخلافات على اشدها بين روسيا وبريطانيا . وكانت هذه المحادثات مقيدة بالنسبة لروسيا في ناحية فهمه هي كسب الوقت لدفـــع الدولـــة العثمانية الى التوقيع على معاهدة الصلح والهاء بريطانيا عن التأثير فـــي سير المفاوضات بينها وبين الدولة العثمانية . وهكذا جرى في (١٤ ايلول عام ١٨٢٩) التوقيع على معاهدة صلح ادريانوبل (ادرنه) التـــي استولت روسيا بموجبها على جزء من ساحل البحر الاسود يمتد من مصب نهـــر كوبان الى ميناء القديس نيكولاي وجزء من باشوية اخالتسيخ كما استولت على جزء من دلتا الدانوب بحيث اصبح الفرع الجنوبي من مصب النهـــر يؤلف الحدود الروسية . لقد اكدت المعاهدة للروس حرية المتاجرة فـــي الدولة العثمانية وتمتعهم بالافضليات التي يوفرها نظام الامتيازات وحرية مرور سفنهم خلال المضايق وأعادت المعاهدة امارتي الدانوب الى الدولـــة

العثمانية على ان تتمتعا بجميع الحقوق والامتيازات الممنوحة لهما بموجب المعاهدات والاتفاقيات السابقة كما الزمت الحكومة بتنفيذ ميثاق آق كرمان فيما يتعلق بصربيا واعادة المناطق الست المقتطعة منهـا . اما بخصوص اليونان فقد التزمت الدولة العثمانية بموجب المعاهدة بقبول معاهدة لندن لسنة ١٨٢٧ وبروتوكول اذار ١٨٢٩ وتعهدت بتعيين مفوضين عنها للاتفاق مع روسيا وفرنسا وبريطانيا حول تنفيذ ماجاء فيهما . لقد اكدت المعاهدة جميع المعاهدات والاتفاقيات السابقة المعقودة بين روسيا والدولة العثمانية باستثناء مايتعارض منها مع بنود المعاهدة الحالية ، والزمت الحكومة العثمانية بدفع تعويضات حربية لروسيا تدفع على اقساط خلال اربع سنوات على ان لايتم انسحاب القوات الروسية كلياً الا بعد دفع التعويضات بالكامل(٦٩) .

لقد جاء معاهدة ادرنة كما هو واضح معتدلة لاتتناسب مع النصر العسكري الساحق الذي حققته روسيا على الدولة العثمانية وكان السبب الذي حدى بروسيا الى ذلك هو رغبتها في تجنب التعقيدات التي ستسببها لها بريطانيا وسعيها لازالة استياء الحكومة البريطانية من تضمين المعاهدة مادة خاصة باليونان لان ذلك من شأنـه ان يعزز النفوذ الروسي بين اليونانيين ، وكذلك سوء اوضاع القوات الروسية وتفشي المرض في صفوفها . ومع ذلك فقد احتجت حكومـة ولنكتون ورفضت الاعتراف بالمادة الخاصة باليونان في المعاهدة . كذلك أخذت الحكومـة العثمانية من جانبها تتهرب من تنفيذ الالتزامات التي اخذتها على عاتقها وتطالب باعادة النظر ببروتوكول اذار بحيث يشمل الاستقلال الذاتي الممنوح لليونان البلوبونز فقط . وقد تقرر في مؤتمر لندن بالفعل اعادة

النظر ببروتوكول اذار ولكن على اساس الاقتراح البريطاني القاضي باستقلال اليونان استقلالا تاماً مع تقليص حدودها لارضاء الدولة العثمانية، وهكذا اقر مؤتمر لندن في ٣ شباط ١٨٣٠ بروتوكولا جديداً اعلنت فيه اليونان دولة مستقلة تحت ضمان الدول الثلاث بريطانيا وفرنسا وروسيا(٧٠) .

وقد أثارت مسألة اختيار ملك لليونان جدلا واسعاً وخلافات جديدة بين الدول التي كانت كل منها تسعى لان يفوز مرشحها بالعرش اليوناني. وتعقدت المسألة اكثر نتيجة للاوضاع غير المستقرة في اليونان وقيام اضطرابات ضد كابودستريا أدت الى اغتياله في بداية تشرين الاول ١٨٣١ فانقسم اليونانيون الى فريقين وتشكلت في اليونان حكومتان وتجددت النزاعات الداخلية والحرب الأهلية والفوضى • غير ان الدول أستطاعت مع ذلك في بداية ١٨٣٢ ان تتفق أخيراً على تنصيب الأمير أوتو ابن ملك بافاريا ملكاً على اليونان ووقع الميثاق الخاص بذلك في ٧ أيار عام ١٨٣٢ وتقرر ان يتولى صلاحياته ، الى أن يبلغ سن الرشد في ١٨٣٥ ، مجلس وصاية يتألف من ثلاثة مستشارين بافاريين كما تقرر ان تمنح اليونان قرضاً مقداره (٦٠ مليون فرنك) • وتبع ذلك تعيين حدود المملكة اليونانية نهائياً حيث تقرر توسيع رقعتها قليلا على ان تدفع للباب العالي تعويضاً مالياً كبيراً • وقد وافقت الحكومة العثمانية على ذلك مضطرة(٧١) .

وهكذا تمكن اليونانيون من تأسيس دولتهم القومية المستقلة بعد كفاح طويل بلغ ذروته في الانتفاضات المسلحة التي استمرت من ١٨٢١ الى ١٨٢٩ • وقد تحقق ذلك لدرجة ما بمساعدة الدول الاوربية الثلاث : روسيا وبريطانيا وفرنسا • ومع ان تدخل هذه الدول انقذ الثورة اليونانية اكثر من مرة ولاسيما في الوضع الحرج الذي وجدت نفسها فيه في ١٨٢٥ –

١٨٢٦ ومساعد اليونانين على ان يواصلوا كفاحهم ويوسعوه حتى يبلغوا الهدف المنشود الا أن هذا التدخل افرز عدداً من العوامل السلبية تركت اثرها على النتائج التي تمخضت عنها الانتفاضة اليونانية المسلحة وسبب ذلك ان الهدف الاساس لهذه الدول لم يكن اسناد الثورة اليونانية وتحرير اليونان بل استغلال الانتفاضة اليونانية وما ارتبط بها من احداث لتحقيق مصالحها الاستعمارية وترسيخ نفوذها في المنطقة . وهكذا فقد منعت الدول اليونانيين من اختيار شكل الحكم الذي يريدون وفرضت عليهم الحكم الملكي ونصبت على عرش اليونان ملكاً اجنبياً لاصلة له بالشعب اليوناني ولايحد من سلطته دستور او قوانين مفيدة . كذلك ادى تدخل الدول الى تقليص حدود اليونان وجعل الدولة اليونانية المستقلة لاتشمل جميع الاراضي التي يقطنها اليونانيون . ومع ذلك فان قيام دولة مستقلة عن الامبراطورية العثمانية في اليونان كان خطوة بالغة الأهمية على طريق تحقيق الاهداف القومية للشعب اليوناني وتقدمه الاجتماعي كما كان له اثر كبير على نضال شعوب البلقان الاخرى التي كانت بدورها تكافح من أجل انشاء دولها القومية المستقلة .

الهوامش

Charles Eliot , Turkey in Europe, hondon and hiverpool, 1965 , p. 280

S.A. Nikitin , Borha narodov Balkan skovo poluostrova ga natsionadnuyu negavismost v 1815 - 1847 . — «Novaya istoris Tom ll 1789 - 1870 , pod red . I . S . Galkina i drug .» Moskva 1958, str . g46 .

(٣) G.W. Arsh, Getepii . — «Sovetskaya Istoricheskaya Entsiklopidiya» T.4, Moskva 1963 , str 427 .

(٤) I.S. Dostyan i K .I. hogachev , Natsionalno - osvoho- ditelnaya revoluytsiya 1821 - 1829 i sozdanie grecheskovo gosudarstva . — «A.N. sssr institnt slavyanovedeniya i Balkan , Formirovanie Natsionalnykh Nezavisimykh gosudarstv na Balkanakh . (konets xvlll — 70e gody xix v.)» Moskva 1986 , str . 38 .

(٥) W.M. Gewehr , the Rise of Natirna lism in the Balkns 1800 ? 1830 , Archon Books , 1967 p.23 ; Elint , op. cit. p. 285

Sovetskaya Istoricheskaya Entsiklopidiy Tom 6 , Moskva 1965 , str . 194

(٧) M.S. Anderson , The Eastern Questien 1774 - 1923 . A study in gnleina - tional Relations , Glasgow 1970, p. 53 ; Gewehr , op. cit. p. 24 .

J.A.R. Marriott, the Eastern Ouestsir : An Historical study in European diplomacy , oxford 1958 , p-205 .;

محمد كمال الدسوقي ، الدولة العثمانية والمسالة الشرقية ، القاهرة، ١٩٧٦ ، ص١٣٩ .

(٩) انظر تفاصيل ذلك في : مصطفى كامل ، المسئلة الشرقيــة ، مصــر ١٨٩٨ ص٦٢ ـ ٦٣ . Eliot , op . cit. p. 289

(١٠) محمد كمال الدسوقي ، المصدر السابق ص١٣٩

(١١) انظر :

Dostyan i Logachev , op. cit. pp. 39 - 41 ; Marriott. op. cit. pp. 208 - 209 .

(١٢) ViP. potemkin i drugie , Istoria diplomati , Tom 1, Moskva 1959 , str . 528 - 529 .

V.N. vinogradov , velikobritaniye i Balkany : ot Benskovo kongressa do krymskoy voyny . Moskva 1958 , str . 31 . (١٣)

Jlid . pp. 32 - 33 (١٤)

(١٥) محمد كمال الدسوقي ، المصدر السابق ص١٤٣ – ١٤٤ .

Vinogradov , op cit. p. 33 ; Dostyan i Logachev op. cit. p. 42 ; Marriolt , op cit . p. 207 . (١٦)

Dostyan i hogachev , op cit . p. 42 (١٧)

Potemkin i drugie , op . cit. vol.1 p.530 . (١٨)

Quoted in Vinogradov , op . cit. p. 38 (١٩)

Quoted in glid p. 38 (٢٠)

Diplomaticheskiy slovar , Tom II , Moskva 1961 , Str . 167 . (٢١)

(٢٢) انظر حول ذلك :

Vingradov , op. cit. pp. 54 - 55 .

ghid . p. 54 . (٢٣)

Potemkin i drugie , op cit . vol. I, pp. 531 - 532 . (٢٤)

I.S. Dostyan , Rossiya i Balkanskiy Vopros , 12 istorii russkebalkanskikh politicheskikh Svyazey v pervoy Treti xix v. , Moskva 1972 , Str . 211-212. (٢٥)

(٢٦)

Kenneth Bourne , The Foreign policy of victoriasl England 1830 - 1902 , oxford , 1970 , p. 19

(٢٧) انظر :

Vinogradov , op. cit. p. 55 .

Dostyan i Logachev , op cit . pp. 43 - 44 . (٢٨)

glid . p. 43 . (٢٩)

Vinogradov , op . cit. p. 58 . (٣٠)

Broune , op. cit . p. 20 . (٣١)

Vinogadov , op. cit. p. 64 . (٣٢)

Harold Temperley , England and The Near gast The Crimea , wondon , 1964 , p. 53 (٣٣)

Vinogrador , op. cit. p. 65 . (٣٤)

تسنمه العرش كان ضعيفاً ولذلك لم تسول لتربيته وتثقيفه نفس

(٣٥) نيقولا الاول هو الابن الثالث للقيصر بافل الاول ولهذا فان احتمال العناية التي اوليت لاخويه قسطنطين والكسندر .

(٣٦) انظر حول ذلك :

Potemkin i drugie , op. cit. Vol. I , p. 537 .

(٣٧) ghid p. 539 .

(٣٨) انظر :

Vinogradov , op. cit. pp. 67 - 68 .

(٣٩) M.S. Anderson , (ed) , The Grest powers and the Near gast 1774 - 1923 , Documests of Modern History, London 1970 , pp. 32 - 33 .

(٤٠) انظر نص ميثاق آق كرمان في :

محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ١٩٧٧ ص٢١٠ – ٢١٧ .

(٤١) Vinogradov , op. cit. p. 77 .

(٤٢) Dostyan i hogacher , op. cit. p. 45 .

(٤٣) انظر تفاصيل الوضع الداخلي للثورة اليونانية في هذه المرحلة في:

ghid . pp. 45 - 46 .

(٤٤) Quoted in Vinogradov , op. cit. p. 75 .

(٤٥) gihd . p. 75 .

(٤٦) Quoted in potemkin i drngie . op. cit. Vol . I, p. 541

Marriott , op. cit . p. 218 .

(٤٨)

(٤٧)

(٤٩) Vinogradov , op. cit. p. 79 .

(٥٠) انظر :

Quoted in Anderson . The Eastern Question ... p. 67 .

JiG. Gutkina. Grecheskiv Vooros na zaklvuchitelnom Etape Vostochnovo krizisa 20 — x Godov xix ffiffiBeka — , «Akagemika Nauk SSSR otdeilenic Istorii , Leningradskoe otdelenie Insti tuta Istorii SSSR, Probemy Istorii Mezhdunarodnych

Otnosheniy , shornik statey pamyati akademika E.V. Tarle, Leningrad 1972 . pp. 370 - 372 .

(٥١) Marriott , op. cit. p. 221 .

(٥٢) Gutkina , op. cit. p. 370 .

(٥٣) Andirson , The Eastern Guestion ... p. 68

(٥٤) Dostyan i Logachcv , op. cit. p. 48

(٥٥) Gutkina , op. cit. p.

(٥٦) Anderson , . The Eastern Question ... p. 68

(٥٧) Dostyan i Logacher , op. cit. pp. 47 - 48

(٥٨) Anderson . The Eastern Question ... p. 68

(٥٩) Vinogradov , op. cit. p. 98

ومما له دلالة في هذا الشان ان رئيس بنك روتشيلد اقترح على السفير الروسي في لندن في كانون الاول ١٨٢٨ وكان الثاني ١٨٢٩ ان يمنح روسيا قرضاً مقداره مليون جنيه استرليني دون ان يطلب السفير منه ذلك :

ghid . p. 98

(٦٠) Potemkin i drugie , op. cit. vol. 1 p. 543

(٦٤) Marriott , op. cit. p. 222

(٦١) Gutkina , op. cit. pp. 381 - 382

(٦٢) Dostyan i Logachur , op. cit. pp. 52 - 53

(٦٣) Quoted in potemkin i drugu , op. cit. vol. 1 , p. 544

(٦٥) Anderson , The Eastern Queshon ... p. 71

(٦٦) Potemkin i drugie , Op. cit. vol. 1 , p. 544

(٦٧) Vinogradov , op. cit. p. 101

(٦٨) ghid . p. 102

(٦٩) انظر : محمد فريد ، المصدر السابق ص٢٢٢ — ٢٣١ ،

Anderson , The Great Powers ... pp. 33 - 35

(٧٠) Marriott , op. cit. p. 223

(٧١) انظر :

Dostyan i Logachev , op. cit. pp. 55 - 57 .

نص جديد في تاريخ الزبير والبصرة لابن الغملاس

بقلم
الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف
استاذ التاريخ الحديث المساعد/كلية التربية ــ جامعة بغداد

نسبة الكتاب

ليس للمخطط الذي نحن بصدده عنوان ، أو مقدمة ، أو خاتمة ، كما هو معتاد في مثله ، وانما هو يبدأ فجأة بذكر أحداث السنين التي يعنى بتسجيلها ، وينتهي بالطريقة نفسها • ويرجع ذلك ــ فيما يتراءى لنا ــ الى ان المؤلف لم يعن باخراج كتابه بصورته الأخيرة ، أو انه لم يبيضه أصلا ، وبذلك فانه أجل وضع عنوان محدد له لحين الانتهاء منه تماما او هو مالم يحدث قط •

وثمة عدة قرائن تدل على انه من تأليف المؤرخ البصري ــ او الزبيري على وجه أدق ــ عبدالله بن ابراهيم الغملاس ، الذي عاش في اواخر القرن التاسع عشر ، والثلث الأول من هذا القرن • وأهم تلك القرائن ، ان المؤلف أشار ازاء عدد من الأخبار التي ساقها الى مختصرات لمناوين كتب يظهر انه كان ينوي تأليف بعضها ، أو أنه شرع ــ أو أنجز ــ تأليف بعضها فعلا • وأحد هذه العناوين ، كما تدلنا فهارس المخطوطات التي أطلعنا عليها بحمله كتاب كان قد وضعه ابن الغملاس في الحقبة نفسها ، فما يشير اليه مؤلف المخطوط باسم «تذكرة» هو كتاب «التذكرة والعبرة في تاريخ بلد الزبير والبصرة» الذي الفه ابن الغملاس بالفعل[1] وعليه

---

(١) كتابنا : التاريخ والمؤرخون العراقيون في العصر العثماني (بغداد ١٩٨٣) ص٢٧٧ • ع

فلا يبق شك في نسبة المخطوط موضوع بحثنا الى هذا المؤرخ .

مؤلـف الكتاب

وكما ان ابن الغملاس كشف من خلال تاريخه هذا كثيراً من خفايا البصرة الاجتماعية والسياسية والثقافية في عهده ، فان المخطوط كشف ـ بالمقابل ـ سيرة ابن الغملاس نفسه ، التي لم يدونها احد ، وذلك لانه سجل رجال أسرته ومحلته ومدينته ، بما يعين الباحث على التعرف على بعض معالم سيرته ، فهو ابن ابراهيم الغملاس الذي كان قاضياً في بلدة الزبير حتى وفاته في سنة ١٢٩٢ هـ/١٨٧٥م ، وأمه هيلة بنت عبدالرحمن بوحمد ، المتوفاة سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٦ م. وكان له أخوة اشقاء توفوا جميعاً في حياته ، هم : عبدالعزيز (توفـي سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م) وعبدالغني (توفي سنة ١٣٣١هـ/١٩١٢م) ولؤلؤة (توفيت سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٣م) وأخوة من أم أخرى ، هم : عبداللطيف ، وعيسى ، ومحمد .

عاش ابن الغملاس في بلدة الزبير ، حيث موطن أسرته ، وموقع طفولته وصباه ، ولم يغادرها ـ فيما يبدو ـ حاجاً سنة ١٣١٩هـ/١٩٠١م وعاد اليها في السنة التالية ليقضي بقية حياته فيها . وتزوج من فتاة تدعى فاطمة الشبيب ، ورزق منها باولاده الثلاث : أحمد ، وحصة ، ونواة، ولكنه لم يلبث ان فجع بوفاة ابنه أحمد ، وهو مازال طفلا ، ثم طلق زوجته فاطمة سنة ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م ، وتزوج بفتاة أخرى هي سبيكة بنت عبدالرحمن باحسين ، فعاشت معه نحواً من أربعة عشر عاماً توفيت بعدها سنة ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م ، ولم تمض سنة واحدة ، حتى تزوج من هيبا بنت رحمة عبدالله ، ولكنه طلقها في ذي القعدة من السنة التالية ، وتزوج من فتاة أخرى ، ولم يلبث ان طلقها هي أيضاً .

وكانت علاقات ابن الغملاس بابناء اسرته وذوي قرباه طيبة للغاية ، ويبدو

انها كانت كذلك مع أبناء محلته وبلدته عامة ، فلم يذكر أحداً منهم في تاريخه بسوء ، وطريقته المحايدة في ذكر اخبار المتنازعين الذي يحفل بها كتابه ، تدل على انه لم يكن متحزبا لأي منهم . ورغم ان عمه سلمان الغملاس ، أحد أبرز زعماء الزبير في عهده وله دوره البارز في صراعات ذلك العهد ومشاكله ، فاننا لا نلمح في كتابه أي تعاطف خاص معه ، أو تأييد له في مواقفه . ويظهر ان بيئة المؤلف الدينية ، بوصفه ابن قاضي بلدته ، واهتماماته الثقافية والادبية المتنوعة ، واشتغاله أماماً في بعض مساجد البلدة ، وقد وسمت نظرته الى احداث عصره بسمة هادئة محايدة ، فاكتفى من عصره بتسجيل مجرياته ، دون ان يقحم نفسه في صراعاته ومشاكله . ومع ذلك ، فان مشاعره العامة سرعان ماتبدت وطنية صريحة يوم داهمت القوات البريطانية البصرة في بدء الحرب العالمية الاولى ، وانحاز الى جانب حركة المقاومة التي نظمتها بعض زعماء البصرة آنذاك ، وذلك لأن للوطن — على حد تعبيره — «حق بحسب المستطاع يجب علينا اداوءه ودين على قدر المقدرة يلزم وفاءه»(١) وكان عبدالعزيز ، ابن اخيه عبدالغني ، مشاركاً مع المجاهدين العراقيين في مقاومتهم للغزو البريطاني(٢) .

وليس كالمخطوط الذي بين أيدينا دليلا على ثقافة الرجل وطبيعة اهتماماته الثقافية العامة ، فقد سجل فيه كل ما رآه أو وصل الى سمعه من أخبار سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ذات الصلة بمجتمعه آنذاك . رغم دقة ملاحظته وأمانته العلمية فيما كتب . فان كتاباته كلها تدل على ان ثقافته كانت محلية الطابع والأصول تماماً ، فاغراقه في تسجيل أدق تفاصيل الحياة الاجتماعية في الزبير ، واهتمامه الشديد بشعرها

(١) ابن الغملاس : ولاة البصرة ومتسلموها ، بغداد ١٩٦٢ ، ص٧٤
(٢) المخطوط ، الورقة ٢٥٤

العامي ، وكثرة مايتخلل كتابته من مفردات وتعبيرات محلية ، واستشهاده بالأمثال العامية المتداولة ، يؤكد ماذهبنا اليه .

ولابن الغملاس مؤلفات عديدة ضاع معظمها ، ونوه وهو بعنواناتها في كتابه الذي نحن بصدده الآن ، وجميعها يدور حول تاريخ الزبير والبصرة وتراجم أدبائها وأخبار بيوتاتها واحوالهما العمرانية وما يتصل بذلك من امور مهمة ، وهذه المؤلفات هي :

١ ــ البصرة . يتضمن سردا موجزا لأهم الأحداث التي مرت على البصرة منذ تأسيسها سنة ١٤ هـ/١٨٣٠م ، وفيه تفاصيل أحداث جرت في الزبير أيضا ، كما يتضمن أسماء عدد من الولاة والمتسلمين الذين تعاقبوا على حكمها . نشره علي البصري (مطبعة دار البصري ببغداد ١٩٦٢، ٧٤ + ١٠ ذيل) بعنوان (ولاة البصرة ومتسلموها لابن الغملاس)(١) .

٢ ــ ترجمة حسين باشا ونوادره . نسخة في المكتبة المركزية لجامعة البصرة ، ٣٠ ورقة ، برقم ٦٧ .

٣ ــ سلاطين بني عثمان . نسخة في المكتبة المركزية لجامعة البصرة، ٥٦ ورقة ، برقم ٦٨ .

٤ ــ مختصر سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر للمرادي ، في أربعة أجزاء ، نسخة في المكتبة المركزية لجامعة البصرة كتبت سنة ١٣٢٠هـ/١٩٠٢م ١١٨ ورقة برقم ٥٠ .

---

(١) لم يقف الناشر على هوية ابن الغملاس هذا ، لفقدان الصفحة الاولى من مقدمة الاصل المخطوط وقال «يظهر من بعض الملاحظات ان مؤلف الكتاب من بعض رجالات أسرة الغملاس المعروفة بالزبير بضربها في آفاق العلم والتأليف» (المطبوع ، ص٢) وقال معللا توقف المؤلف عند احداث سنة ١٢٤٦ هـ ، بانه ذلك سببه مرضه ثم وفاته (ص٧٥) مما قد يوحي بان وفاته جاءت بعيد تلك السنة .

٥ ــ مختصر خلاصة الأثر في أعيان القـرن الحادي عشر للمحبي . نسخة من الجزئين الثالث والرابع كتبت سنة ١٣٣٥هـ/١٩١٦م في المكتبة المركزية لجامعة البصرة ، ١٤٥ ورقة ، برقم ٤٩ .

٦ ــ منتخب الكامل في التاريخ لابن الأثير . نسخة في مكتبة الزبير الأهلية العامة في الزبير ومسجلة في المؤسسـة العامـة للآثار والتراث برقـم (٢١٨٨٢) .

٧ ــ التاريخ المرتب في الشـعر والادب . يتناول تراجـم الأدباء والكتاب ويبدأ بترجمة بطرس البستاني وينتهي بترجمة أميـن الجندي الحمصي . نسخة في المكتبة المركزية لجامعة البصرة ، ١٦ ، برقم ٧٠

٨ ــ كتاب في تراجم الشعراء . نوه به ، ولم نقف عليـه . ويضـم ــ يبدو ــ تراجم الشعراء المحليين من أبناء الزبير والبصرة ، ممن عاصرهم المؤلف ، وكانت له صلات ادبية ببعضهم ، وفيـه نماذج مـن أشعارهـم العامية . الفه قبل شروعه بكتابة تاريخه فانه أحال عليه بقوله في ترجمـة طه الزهيري «مذكور في الشعراء ، له بيت زهيري»(١) .

٩ ــ البيوتات . نوه به في معظم صفحات تاريخه ، وواضح مـن تلك الاشارات انه يختص بالكلام على بيوتات الزبـير والبصـرة البارزة . وقد رتبه على الحروف ليكون كالمعجم ، وتكلم فيه على الشخصيات المهمـة من تلك الأسرة وما أدته من ادوار سياسية واجتماعية في عهده . ويبدو لنا ألفه في نفس الوقت الذي كان يؤلف فيه هذا الكتاب الـذي بين ايدينا ، وانه ينقل الأخبار المتعلقة بموضوعه وربما توسع فيها هناك ، من ذلك قوله عند الكلام على بعض أخبار فالح السعدون : «نقل في البيوتات في السين»(٢)

---

(١) الورقـة ٣٠
(٢) الورقـة ٢٠

وقوله في موضع آخر «نقل في الغين ــ بيوتات»(٣) ولم نقف لهذا الكتاب على أثــر .

١٠ ــ عيون الأمثال . نوه به في تاريخه ، ولم نقف عليه ، وهو يختص بذكر الأمثال العامية الشائعة في بيئة المؤلــف ، وفيــه استطراءات تاريخية وتراجم(٤) .

١١ ــ التذكرة والعبرة في تاريخ بلد الزبير والبصرة . نوه به مرارأ في تاريخه ، ونقل منه بعض الاخبار والتراجم ، وسماه «التذكرة» مطلقا او «التذكرة الكبيرة»(٥) تمييزاً له عن كتاب اختصــــره منه ، وسماه «تلخيص التذكرة»(٦) ومعلومات التذكرة والمساحة الزمنية التــي تؤرخها تقترب في بعض النواحي من كتابه الذي نحن بصدده الآن ، فهو يسجل فيها اخبار مدينته الزبير ومدينة البصرة في اواخر العهد العثماني ، ويترجم بأختصار لاعلامها من الولاة والعلماء والمشايخ والزهاء ، على نفس منهجه في كتابــه هذا ، وعلى اية حال فان الكتابين يكمل أحدهما الآخر فيما يوردانه مـــن تفاصيل تاريخه . ومن التذكرة والعبرة نسخة في مكتبة جامعة البصـــرة برقم ٦٥ .

١٢ ــ الاعلام . أشار اليه في مواضع عديدة من تاريخه ، وهو كما يفهم من تلك الاشارات مجموع يضم تراجم معاصري المؤلف من رجال الزبير والبصرة الذين اشتهروا بنشاطاتهم الأدبية والعلمية غالباً مرتبة على حروف المعجم(٧) ، وهو من كتبه الضائعة .

---

(٣) الورقــة ٢١
(٤) الورقــة ١٠٧
(٥) الورقــة ١١١
(٦) الورقــة ٦١
(٧) انظر مثلا الورقة ٥٠

١٣ ـ المرتبط في النبط • اشار اليه في بعض المواضع من تاريخه ، وهو ـ كما يظهر ـ مجموع يضم طائفة من الأشعار العامية المحايية ، المعروفة بشعر النبط ، جمعها من ألسن الشعراء المعاصرين له في تلك النواحي ، وترجم فيه لبعضهم[١] ، وهو من مؤلفاته الضائعة أيضاً •

١٤ ـ مجموع زهيري • ضم فيه ما وصل الى سمعه من منظومات شعرية عامية على طريقة «الزهيري» ، وترجم فيه لبعض الشعراء • قال في ترجمة احدهم «وغتني له في مجموع الزهيري أبياتا ، وفيه ترجمته»[٢] وقوله في احداث سنة ١٣١٧هـ/ م انه عثر فيها على «مجموعين شعر بنط (يظهر انه المرتبط المذكور سابقا) وزهيري»[٣] •

ويظهر لنا ان المؤلف كان يسجل أحداث عصره أولا بأول في أوراق او بطاقات خاصة ، ليقوم بعدها بنقل محتوياتها الى كتبه التي كن بعضها في وقت واحد ، او في فترات متقاربة ، مكونا منها مجموعة من المؤلفات المتنوعة العناوين ، والمتشابهة في المضامين من حيث تأريخها لحقبة واحدة، ومكان واحد • ولانشك في ان هذه المؤلفات يكمل بعضها بعضاً في تقديم صورة شائقة ، مفعمة بالحيوية ، لذلك العهد ، بحوادثه ومعالمه وشخوصه وعلاقاته الاجتماعية •

وكانت أوراقه التي يسجل فيها الأحداث لأول مرة ، تمثل الصورة الأولى لمجريات عصره ، دونما تعديل او تهذيب ، والظاهرة انها كانت تحتوي على اخبار علاقات اجتماعية وأسرية بحتة ، فقد وجدناه مولعا بتسجيل مثل هذه التفاصيل ، ولذا فانه كان يعمد ، بعد ان يستقي منها

---

(١) الورقة ١٤٠
(٢) الورقة ١٢
(٣) الورقة ٩٣

معلوماته ، الى اتلافها بحرقها امام عدد من الشهود ، يقول في احداث بعض شهور سنة ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م «وفي هذا الشهر أحرقت أوراقاً كثيراً لاينبغي»[٤] وفي أحداث السنة التالية «وفيها ١٢ شعبان احرقت جملة أوراق مخرقة مخرمة لافائدة في بقائها بحضرة جماعة»[٥]

الكتاب

والكتاب الذي بأيدينا هو أحد تلك المؤلفات المهمة ان لم يكن أهمها في المادة التاريخية ، ونزاهة ملحوظة في تقويمه الأحداث التي يؤرخها ، جميعاً ، نظراً لما اتسم من دقة في الملاحظة ، ووضوح في العرض ، وسعة وهو تسجيل لحقبة حافلة من تاريخ الزبير والبصرة وبعض المدن والقصبات المجاورة الأخرى ، عاشها المؤلف بنفسه ، وشاهد بأم عينيه مجريات حوادثها ، واتصل بمعظم رجالها من ساسة وزعماء وشيوخ قبائل وشعراء وائمة وزهاد وغيرهم •

تقع مخطوطة الكتاب[١] في ٢٥٧ ورقة ، قياسها × سنتيمتر ، وهي مكتوبة بخط مؤلفها ابن الغملاس نفسه ، ورغم الحجم الكبير لحروفه وكلماته ، فانه يتسم بالضعف وعدم الوضوح أحياناً •

واخبار الكتاب مرتبة على طريقة الحوليات التقليدية ، فهو يبتدىء بحوادث سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م ، وينتهي عند السنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م ولاندري ما اذا كان ثمة قسم من الكتاب ، تال لهذه السنة ، قد فقد وضاعت معه أخبار السنين اللاحقة • ومما يرجح هذا الزعم أن المؤلف

---

(٤) الورقة ٣٤

(٥) الورقة ٣٦

(١) توجد لديكا نسخة منها ، كنت صورتها عن النسخة الخطية التي في مكتبة المرحوم مصطفى علي الخاصة ، واقوم حالياً بتحقيقها واعدادها للنشر •

أشار في كتابه الى تاريخ تأليفه اياه ، وهو سنة ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م ، اي بعد ستة عشر عاماً من نهاية ماسجلته مخطوطة الكتاب نفسها ، فان لم يكن شيئاً قد ضاع من المخطوطة فعلا ، فلا يبق لنا الا افتراض ان المؤلف عاد الى أوراقه وبطاقاته التي دون فيها تفاصيل حوادث ثلث القرن الأخير الذي سبق الاحتلال البريطاني لوطنه ، فجمع منها تاريخه المذكور بعد تلك السنوات التي مرت على انتهاء الحوادث وانقضاء صفحتها .

ويكشف تحليل معلومات الكتاب ، عن ان المحور الرئيس الذي تدور حوله أخباره ، هو تاريخ الزبير ، اذ تصل نسبة مايشغله هذا التاريخ ٨٢و٩ بالمائة ، بينما تشغل أخبار البصرة ، على أهميتها الادارية والسياسية بالنسبة للبلدة المذكورة ٣و٨ بالمائة منه . وتأتي مدينة الكويت في المرتبة التالية من اهتمام المؤلف ، اذ يبلغ ماساقه من أخبارها ٤ر٤ بالمائة من سائر الكتاب . وثمة نواح وقصبات اخرى ، مثل سوق الشيوخ والشعيبة وحائل تشغل جميعاً ٤ر٤ بالمائة منه .

ويدل هذا التحليل على ان أكثر من أربعة أخماس الكتاب يعتمد أساساً على الشهادة الفعلية للحوادث ، فالزبير هي موطن المؤلف ، وناسها أهله ومعارفه ، وهي من صغر المساحة آنذاك مايكفيه الاعتماد على اطلاعه الشخصي أو سماعه الأخبار من شهود العيان مباشرة ولذا فانه لم يجد ضرورة تدعوه الى تسجيل أسماء رواته غالباً ، الا اذا انفرد بذكر رواية خاصة مما لم يصل خبرها اليه بطريق التواتر كنقله خبراً من الشيخ محمد الصافي ، فيه تفصيلات عن حوادث جرت لأبيه[٢] ، واما ما خلا ذلك فانه يكتفي بالقول «هكذا سمعناه من الأفواه»[٣] او نحو ذلك من عبارات .

---

(٢) الورقة ١٦١

(٣) الورقة ١٤٢

والمصدر المكتوب الوحيد الذي يشير اليه في صدر كلامه عن تاريخ الزبير وتراجم أهلها ، هو أوراق ، او دفاتر ، كان معاصره الشيخ محمد الدايل (أو الدايلان) قد دون بعض أخبار الزبير والبصرة على الطريقة الحولية التي اتبعها ابن الغملاس نفسه ، وعلى اية حال فان ما نقله عنه لم يزد على بضعة اوراق ، تخص جميعاً أحداث سنة ١٣١٢هـ/١٨٩٤م وسنة ١٣١٤هـ/١٨٩٦م . وهو حريص على ان يختلط كلام الشيخ بكلامه ، اذ نراه يصرح بنقله منه ، فيقول «فصل منقول من خط الشيخ محمد الدايل» ويعلن توقفه عن النقل بقوله «انتهى»[١] .

أما المدن الأخرى ، وبخاصة البصرة والكويت ، فانه استقى أخبارهما من بعض المترددين عليهما من أبناء بلدته ، ومعظمهم من التجار ومن أصهاره ، اذ كانت اخته قد تزوجت من أحد تجار الكويت ، وأخذت تتردد عليه في الزبير مدة من الزمن ، ومن المرجح انه استقى منها ، أو من هم برفقتها ، بعض ما كان يجري في الكويت من حوادث وما يشاع في بيوتاتها ومجالسها من أخبار . وباستثناء تصريحه باسم ناصر مسلم المزين ، كمصدر معلومات له بشأن حوادث الكويت[٢] ، فان جميع اشاراته الأخرى جاءت عامة ، غير محددة ، كقوله «هكذا سمعنا» و «بلغنا»[٣] و «هذا الذي شاع»[٤] و «هكذا بلغنا وشاع بين الناس»[٥] ونحو ذلك . وأشار مرة الى كتاب عثمان بن بشر الحنبلي المعنون «عنوان المجد في تاريخ نجد» عند تطرقه الى بعض تاريخ نجد في عهد الدولة السعودية الأولى[٦] ، ويظهر انه

اعتمد في اشارته على النسخة المطبوعة في بغداد سنة ١٣٢٨هـ/١٩١٠م .

(١) ذكر في الورقة ٥٠ ان وفاة الشيخ محمد الدايل في سنة ١٣٢٠هـ/١٩٢٠م وقال «كان كتب حوادث كثيرة فسرق من الديوان» .

(٢) الورقة ٢١٠ (٣) الورقة ١٥٨ (٤) الورقة ١٥٥

كما اشار الى تاريخ للكويت لم يسم مؤلفه[7] . وكان - فضلا عن ذلك - يطلع على بعض المجلات الصادرة في أقطار عربية أخرى ، اذ نراه يشير الى مجلة (الاصلاح) التي كان يصدرها بمكة المكرمة محمد حامد الفقي ، لكنه لايبدو انه استفاد منها مواداً لتاريخه[8] .

أهمية الكتاب

أ - الجانب الاجتماعي :

بوسعنا أن نعد كتاب ابن الغملاس هذا مصدرا أصيلا وفريدا في دراسة الحياة الاجتماعية ، بجوانبها المتعددة ، لثلاث مدن رئيسية من مدن حوافي البادية ، سيكون لها شأن فيما بعد ، في خلال حقبة تاريخية مهمة اتسمت بتوسع الصلات التجارية ، وتحسن النشاط الاقتصادي ، وتزايد الهجرة من البادية الى المدن ، وبدء تشابك العلائق الاجتماعية بين سكان تلك النواحي من جهة ، وبينهم وبين سكان المدن والقصبات المجاورة من جهة أخرى .

وعناية ابن الغملاس بتفصيلات هذا الجانب عميقة وواسعة ، لكنها لم تأت متوزعة على المدن التي كتب عنها بالتساوي ، فبينما تشغل هذه التفصيلات ٤٥و٤ بالمائة مما كتبه عن الزبير ، لاتشغل فيما يتعلق بالبصرة غير ٩و١٢ بالمائة من مجموع ماكتبه عن هذه المدينة ، وتنخفض هذه النسبة فيما يتصل بالكويت الى ٧ بالمائة فقط ، ونحو ٦ر٣ عند الكلام على المدن والقصبات الأخرى ، وبالمقابل ، فان نسبة التفصيلات ذات الطابع السياسي والاداري تزداد بصفة عكسية عند حديثه على تلك المدن ، حتى تصل الى نحو نصف كلامه على البصرة ، وثلاثة أرباع ماكتبه عن الكويت ،

---

(٥) الورقة ٦ (٦) الورقة ٣٧ (٧) الورقة ٧٦
(٨) الورقة ١٠٨

والمدن المجاورة الأخرى .

ويتضمن كلام المؤلف على هذا الجانب ، معلومات مهمة ودقيقة عن الرجال الذين عاصروه ، من القضاة والائمة والتجار والعلماء والصوفية والموظفين وزعماء القبائل وامراء النواحي والأدباء والشعراء العاميين الآخرين ، كما يحتوي على اخبار الأسر العديدة التي استوطنت الزبير والبصرة ، وعاشت فيها نشاطها الاجتماعي والاقتصادي ، فمن الأسر التي ترددت أخبارها في ثنايا الكتاب . آل الزهير ، وآل الراشد ، وآل مصيقر وآل الخشير وآل القرطاس وآل المنديل وآل باش أعيان ، وآل العساقي ، وآل الغنام ، وآل الصبيح ، وآل هلال ، وآل بسام ، وآل الصانع ، وآل اشبلي وغيرهم .

وفي الكتاب معلومات دقيقة عن التحركات الأسرية والعشائرية بين مدن تلك النواحي ، ورصد للهجرات المستمرة آنذاك من البادية الى المدينة، وتواريخ استيطانها فيها ، والعلاقات بين الأسر المهاجرة والمستقرة ، وبينها وبين من تبقى منها في مواطنها الأولى ، ودور القبائل الكبيرة المقيمة على حواف المدن في مجريات الحياة الحضرية ، وطبيعة نشاطاتها الاجتماعية والاقتصادية ، وصلاتها بالقوى الاجتماعية السائدة في مدنها ، فمن تلك القبائل التي ترددت اسماؤها في ثنايا الكتاب ، المنتفق ، والظفير والدواسر ، وفيه ايضاً اسماء زعمائها وأخبارهم .

ويحفل الكتاب بصورة شائقة عن الحياة العائلية لأهل تلك المدن ، وبخاصة الزبير والبصرة والكويت ، بما تشمله من زواج ومصاهرات وطلاق وعلاقات اجتماعية وعاطفية احياناً ، واخبار بعض النساء اللواتي قمن باعمال خيرية نافعة ، ومن ولد في تلك السنين من أولاد ، ومن توفي فيها، واهتمامات الناس العامة ، وبخاصة الثقافية منها ، والعلماء الذين اثروا في

توجيه تلك الاهتمامات ، والعوامل التي ادت الى تشجيعها ، مثل تاسيس مطبعة رسمية ، هي الاولى من نوعها في البصرة ، ووصول اولى المجلات الى الزبير ، واتصال اهل المدن المذكورة ببعض مبتكرات الحضارة الحديثة آنذاك ، ابخاصة وسائل النقل الصناعية ، مثل عربات السكة الحديد التي تجرها الخيول (الكاري) والسيارة (الموتوركار) .

ب – الجانب العمراني :ـ

استأثرت مدن الحقبة التي عالج احداثها ابن الغملاس ، باهتمامه الشديد ، وعنايته الفائقة ، فنمو المدينة واتساعها كان – في الواقع – احدى ابرز الظواهر الاجتماعية التي شهدها النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، ولانشك في انها اثارت انتباهه بما تحتويه في داخلها من عوامل متشابكة تنبىء بتغيرات مقبلة . فتكلم على تطور العمران في مدينة الزبير ، واشار أحياناً الى البصرة والكويت ، ولاحظ اتساع نطاق العمارة الجديدة ، وخروجها عن حدود المدينة القديمة ، باسوارها وابوابها ، ضواح جديدة لم تكن معروفة من قبل ، ومرافق حضرية استدعتها الظروف السكنية المستجدة ، وسجل ذلك بامانة ودقة ، وحدد تواريخ نشوء كل حي من الأحياء ، والاماكن التي احتلتها ، وما يتصل بذلك من امور ، فمن الأحياء الجديدة التي دون اخبارها في الزبير مثلا : حي الدريهيمية وحي الراشدية وحي الزهيرية . كما تطرق الى اخبار شق الطرق ، وهدم ابواب البلدة القديمة ، ومن سعى بذلك من اهل البلدة وما انفقوه في سبيل ذلك من مال ، واشار الى المساجد والزوايا التي نشأها او جددها بعض اهل الصلاح تلبية لمتطلبات البلدة النامية ، مثل مسجد الرواف ، ومسجد الكوت ، ومسجد عيسى القرطاس ، ومسجد الزبير ، ومصلى العيد الجديد، ومسجد الباطن ، ومسجد الزهيرية ، ومسجد ديمخزام ومسجد فالسح

السعدون ، وتكية الدراويش ، وجميع ذلك في الزبير وضواحيها · وتطرق ايضاً الى تعمير القيصريات وانشاء الدكاكين والاسواق وأحواض المـــاء والبيوت ، واشار الى تفاصيل كثيرة ومفيدة بشأن حركـــة تنقل الملكيات العقارية بين المالكين ، وما كان يجري خلالها من نقض وبناء ·

وفي كتاب ابن الغملاس ، فضلا عما تقدم ، معلومات خططية مهمـــة ، قوامها تلك المواضع والبقاع التي يجيء ذكرها عرضاً في أثناء ترجمة عالم، او موظف ، او زعيم محلي ، او ضمن سياق حدث ما ، او ظاهرة طبيعية معينة ، فتكررت الاشارة الى : الباطن ، وديمخزام ، وابواب الزبير ، ونقرة ابي داود ، والرافضية ، والشميبة ، والخوير ، والدخانيـــة ، وجزيـــرة الصقر ، والبرجسية ، وسفوان ، والسبيل ، والصالحية ، وبقشة الربيعة، وسكة الفاو ، ومحط السقافي ، وجسر العبيد ، وعراص عريدان ، وعراص العون ، وسوق اللحم ، وسوق الجت ، وقيصرية القصاصيب وقيصريـــة ذويب ، وسوق الدجاج وسوق السيمر في البصرة ، ومنشآت جابر الصباح في الكويت ، وهي قيصرية وخان ومقبرة للسادة ، وغير ذلك منمعالم خططية مفيدة · وتبلغ نسبة ما خصصه المؤلف للكلام عن الحركة العمرانية فـي الزبير ١٢ بالمائة ، وفي البصرة ٨ر٤ بالمائة ، وفي الكويـــت ٥ر٣ بالمائة وفي مناطق أخرى ٦ر٣ بالمائـــة ·

جـ ـ الجانب الاقتصادي :ـ

عاش ابن الغملاس في وسط تجاري نشط ، فترددت في كتابه الاشارات الى أسر التجار ، ونشاطهم الاقتصادي ، كما تطرق الى احـوال العملـــة وانواعها واقيامها في عهـــده ، كالقمريات الكبار ، والشاهيات الصـغار ، والمتاليك الخفاف السلطانية ، والبشلقات ، وغيرها · وأشار عرضاً الـــى

القوة الشرائية لعملات أخرى ، مثل الريالات والمجيديات . ووجدت الضرائب منه اهتماماً ، فاشار الى الرسوم والضرائب المفروضة على الناس والبيوت والدواب ، ونوه باعفاء الزبير من تلك الضرائب ثم يأخذها منها فيما بعد . وتكلم عن ضمان البساتين واقيام ذلك ، واشار بتفصيل الى محاولات مختلفة لشق الأنهار والقنوات في نواحي البصرة ، مثل حفر نهر الى الزبير سنة ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م وأخر من ديمخزام الى نقرة ابي داود سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م وثالث من الهور شمال الديرة سنة ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م والسعي لحفر نهر بين الشعيبة والخوير في السنة نفسها ، كما تكلم على حصر الحكومة للبطيخ والمخضرات وما الى ذلك .

وتبلغ نسبة ما تكلم فيه ابن الغملاس من امور لها تعلق بشؤون الاقتصاد في الزبير ١٤ بالمائة ، و٣ بالمائة من كلامه على البصرة ، و١ر٧ مما خصصه للمدن الأخرى .

د ـ الجانب السياسي والاداري :ـ

كتب ابن الغملاس في الأحوال السياسية وادارية للزبير والبصرة والكويت على عهده ، الا انه لم يميز بين النزعات الداخلية بين الأسر والزعماء ، وبين النزعات السياسية التي كانت تتجاوز ذلك النطاق الى مجال القطر والدولة ، وسبب ذلك ان غير قليل من النزعات المحلية كان يجري بتحريك من زعماء القبائل الكبرى في المنطقة ، او الدولة العثمانية ممثلة بولاتها وموظفيها ، او انها ـ على الاقل ـ تستغل ، بعد حدوثها ، لمصلحة تحققها هذه القوة أو تلك . ولذا فمن الصعب التفرقة بين ما هو اخلال عادي بالأمن ، وما هو نزاع محلي بين قوتين متنافستين ، او صراع خفي بين قوى سياسية مترابطة ، اذ تتداخل هذه الأمور تداخلا عجيباً في تلك الحقبة الحبلى بالأحداث .

أشار المؤلف الى بعض اسماء ولاة البصرة في عهده ، وهم نصرة باشا(١) وهدايت باشا(٢) وأنيس باشا(٣) وحمدي باشا(٤) وسليمان نظيف(٥) وتطرق الى ما قاموا به من أعمال ، كما أورد معلومات دقيقة عن مديري بلدة الزبير العثمانيين في الحقبة نفسها ، وأخرى عن آل الصباح أمراء الكويت المجاورين ، اضافة الى معلومات أخرى عن آل الرشيد أمراء حائل ، وآل سعود أمراء نجد ، وتوسع في ذكر تفاصيل علاقة هذه القوى ببعضها ، وعلاقاتها جميعاً بالحكومة العثمانية في البصرة ، والقوى القبلية المجاورة ، وتكلم بسعة عن نزعات كثيرة كانت تجري بين الأسر البارزة في الزبير ، وبخاصة آل الزهير وآل راشد وتنافسها على بسط نفوذهما على البلدة ، وموقف الحكومة ممثلة بمدير الزبير ووالي البصرة من ذلك ، كما تحدث عن تحركات وانتفاضات شعبية من أجل عزل ممثلي الحكومة العثمانية ، وتعيين غيرهم ، ومحاولة الحكومة وضع يدها على مصادر السلاح في المنطقة ٠

ولمعلومات المؤلف ، بوصفه شاهد عيان لوقائع الاحتلال البريطاني للبصرة ، أهمية غير عادية في وصف مجريات هذا الحادث الخطير ، فقد وصف أوضاع العراق عند وصول خبر اعلان الدولة العثمانية الحرب مع المانيا على بريطانيا وفرنسا واحلافهما ، وتطرق الى موقف السيد طالب باشا النقيب من هذه الحرب ، واشاد بدوره في تعبئة أهل البصرة والزبير

---

(١) ليس في قائمة ولاة البصرة التي اوردها محمد خليفة النبهاني في التحفة النبهانية ـ قسم تاريخ البصرة ، وال بهذا الاسم ٠

(٢) من ١٣٠٦ الى ١٣٠٩ هـ

(٣) تولى البصرة سنة ١٣١٥ هـ

(٤) تولى البصرة سنة ١٣١٦ هـ

(٥) تولى البصرة سنة ١٣٢٧ هـ

ضد البريطانيين ، ونوه بجهود المجاهدين العراقيين في ذلــك السبيل .
ومنهم ابن اخيه عبدالعزيز بن عبدالغني ، وتكلم على قصـف البريطانيين الفاو واحتلالهم اياه ، وانسحاب القوات العثمانية الى سيحان ، حيث دارت معركة هناك خسر فيها العثمانيون وما نجم عن ذلك مـن احتـلال كامـل للبصرة ، واعتقال السيد طالب النقيب . وما يتصل بذلك مـن ملابسات وتفاصيل ، ويدور حوله من اشاعات .

وتبلغ نسبة ماتكلم ابن الغملاس عليه من شؤون سياسية وادارية ١٠ر٢٠ بالمائة من مجموع كلامه على الزبير ، و٦ر٥١ بالمائة من حديثه عـن البصرة ، و٩ر٦٦ مما كتبه عن الكويت و٧٥ بالمائة مما سجله مـن اخبار المدن والنواحي الأخـرى .

هـ ـ جوانب أخـرى :ـ

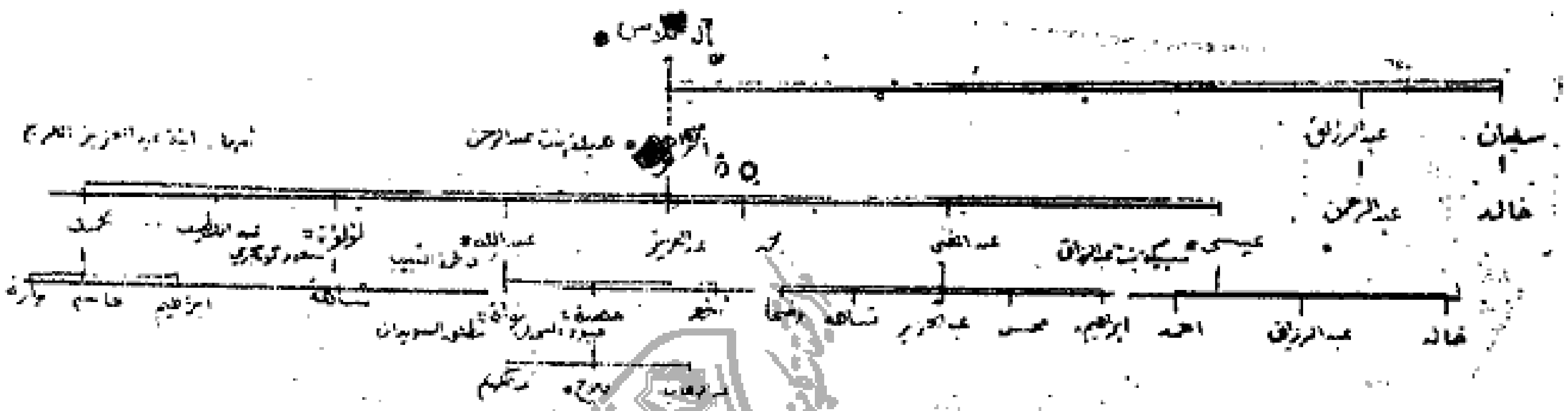
لم يغفل ابن الغملاس ، وهو يسجل حـوادث مدينته ونواحيها ، أن يشير الى أبرز الظواهر الطبيعية التي مرت على البلاد في عهده ، من أوبئـة وآفات زراعية ونحوهما ، بما يشبه وضع اللمسات الأخيرة للصورة التـي رسمها لتلك الحقبة . من ذلك كلامه على وباء داهـم سوق الشيوخ وامتد الى الزبير والبصرة سنة ١٣٠٦ هـ/١٨٨٨م ، وهجوم الجراد الكثير وأكله الزروع في سنة ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م ، وحدوث الغرق «الذي لـم يعهد مثله» في المركز وسوق الشيوخ والبصـرة سنة ١٣١٣هـ/١٨٩٥م ، وتبلغ نسبة ماكتبه عن هذه الظواهر فيما يتعلق بالزبير ٢ بالمائة وبالبصرة ٢ر٨ بالمائة.
وفي الكتاب ، فضلا عما تقدم ، أخبار مفرقة عن امـور مختلفة مما لايدخل ضمن الجوانب المذكورة ، وهي لاتخلو من نفع لمؤرخ تلـك الحقبة ودارسها ، تصل الى ٣ بالمائة عن الزبير ، و ٢ر١٧ عن البصرة ، و ١ر٧

من المدن والنواحي الأخرى .

والكتاب بعد هذا كله ، خير شاهد على لغة عصره ، بما حفل به من تراكيب ومصطلحات والفاظ عامية كانت شائعة على السنة أهل ذلك الزمان ، من بدو وحضر ، وهو أمر يزيد في أهميته بوصفه يقدم مادة غنية تصلح لدراسة لغة تلك النواحي في اواخر العصر العثماني ، بما فيها من الفاظ ومصطلحات وأمثال عبرت عن روح العصر وطبيعة مؤثراته .

من سنة ١٣٢٦

الدكتور عماد عبدالسلام رؤوف
مركز احياء التراث العلمي العربي
جامعة بغداد



ال الغلاس في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين (من عمل المؤلف)

نماذج مقتطفة من تاريخ ابن الغملاس

من سنة ١٣٢٦

«وبلغنا ان صباح بن محمد الصباح توجه الى الكويت ببنته ليزوجها ولد مبارك الصباح (في) ١٥ ربيع الثاني ، وهكذا سمعنا .

وفي ذي القعدة توجه السيد طالب (النقيب) الى اصطنبول .

وفي ذي الحجة توجه أحمد باشا (الصانع) الى اصطنبول .

وفيها تم بنيان مسجد مزعل السعدون على يد داود الفداغ (اذ) هو الوكيل . وصلى فيه محمد بن رابح نيابة حتى يحضـر محمد الشنقيطي ، فلما حضر عصى ابن رابح وساعده آل صباح وأحمد الصانع وثبتوه واعطوه الشنقيطي ليرات كثيرة جمعوا له من التجار ، وتزوج بنت سلطان الطويل واولدها . وسعى في تأسيس مكتبة النجاة في الرشيدية ، وسعى سليمان وحمد اذكير في بنيان مسجد ، فتم الجميع في سنة ١٣٤١ ، وكان حضـور الشنقيطي في سنة ١٣٢٧ وقدمات مزعل عند قدومه» .

من سنة ١٣٢٨

« وفي ٣ ربيع الاول كتبوا مضبطة للوالـي سليمان نظيف في عـزل المدير عرب انما أبو نديم ، وكرروا المضابط فلم يسمع لهم كلام ، فهوس